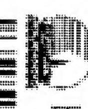
مكسيم غوركي

طفولتي

الترجمة الكاملة



منشورات دار مكتبة الحياة

مكسيم غوركي

طفولتي

الترجمة الكاملة

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

١

كان والدي مستلقيا على الارض تحت نافذة غرفة صغيرة مظلمة تعج بالغبار ، يبدو لي طويلا بشكل يلفت النظر ويدعو على الدهشة ، وقد اكتسى بالبياض من قمة راسه حتى اخمص قدميه .. وكانت اصابع قدمه الحافية منفرجة عرضا بشكل غريب جدا ، تتباعد عن بعضها بفعل حركة تشنجه ، واصابع يديه اللطيفتين ، المصلوبتين فوق صدره ، ملتوية هي الاخرى بعناد وقوة . وكان درهمان نحاسيان يغلقان عينيه الضاحكتين ، وقد امسى وجهه النحيف شديد الزرقة ، هالني منه بصورة خاصة اسنانه الاصطناعية وبروزها بين فكيه المتوترين .

وكانت والدتي ، نصف العارية بتنورتها الحمراء القصيرة ، جاثية قربه تسرح شعره الطويل الناعم ، المنسدل بدلع على جبينه ، بذلك المشط الاسود الذي اعتدت ان استعمله منشارا اقطع به قشر البطيخ . كانت تجمجم باشياء عديدة مبهمة في صوت مبحوح عميق ، وقد انتفخت عيناها الرماديتان وراحتا تذرفان دموعا غزيرة .

كانت جدتي — وهي امراة ضخمة الجسم ، مستديرة الراس ، كبيرة العينين ، ذات انف بارز يبعث على السخرية — ممسكة بيدي ، وكل شيء فيها كثير النعومة ، عظيم الكآبة ، فائق الفتنة ... وكانت هي الاخرى تذرف الدموع السخينة ، لكن بطريقة خاصة تصعد نغمة رقيقة ترافق بكاء امي . وكانت ترتجف بكليتها ، وهي تدفعني باستمرار ناحية والدي . اما انا فارتمي الى الخلف ، وافتش عن مخبأ لي وراء تنورتها ... كنت خائفا ومتضايقا في وقت واحد ...

كنت قد ابللت لتوي من مرض خطير طرحني في الفراش مدة طويلة ، عادني والدي اثناءه — وانا اذكر ذلك جيدا — واخذ يلاعبني ويضاحكني في

شيء كثير من الجذل والمرح . ولكنه اختفى ، فجاة .وشغلت مكانه هذه المراة الغريبة ، جدتي !

سألتها :

ـ هل تعبت كثيرا من السير حتى وصلت الى هذا المكان ؟

فأجابت :

ـ انا لم امش ، بل ركبت ! فانت لا تستطيع السير على الماء ، ايها الماجن الصغير ! لقد هبطت من نيجني نوفجورود .

وقد ابهم هذا الكلام علي ، وان ترك في نفسي صدى مضحكا : كان يقطن فوقنا في المنزل بعض الفارسيين ذوي اللحى الطويلة والاجسام الناحلة، اما القبو فيقطنهكالميكي ذو البشرة الصفراء الذيبتاجر بجلودالخراف. وكنت استطيع الهبوط اليه بالتزحلق على حاجز السلم ، او تدحرجا اذا زلت القدم بي . . . وانا اعرف ذلك تمام المعرفة . ولكن ، ما دخل المياه في هذا الموضوع،انها مخطئة ، وهي تخلط بين الاشياء بهوس وجنون .

سألتها :

ـ لم تنادينني بالماجن الصغير ؟

فرن جوابها الفخم الهازىء :

ـ لانك كبير جدا !

كان اسلوبها في الحديث لطيفا ، جميلا ، رائعا ... ولقد اصبحنا صديقين حميمين ، جدتي وانا ، منذ اليوم الاول للقائنا . اما الان فقد اخذ القلق يستولي علي ، فأود لو اغادر هذه الغرفة باقصى سرعة ممكنة .

كانت امي تقلقني ، تملؤني دموعها ونواحها بمخاوف غريبة لا حصر لها ، فتلك هي المرة الاولى التي اراها فيها على هذه الحال ... كانت ، على وجه العموم ، امراة عابسة الوجه ، صامتة ، نظيفة ، حسنة الهندام ابدا ، عريضة المنكبين كالفرس ، ذات جسد متين ، ويدين صلبتين قويتين للغاية ... غير انها غدت الان مترهلة الاعضاء ، شعثاء الهندام بشكل لا يبعث على الارتياح ابدا .. فثيابها ممزقة ، وشعرها ـ وهي تسرحه عادة وتعقصه كتلة ضخمة شقراء في قمة راسها ـ قد تبعثر على كتفيها العاريتين ونزل فوق عينيها ، في حين راحت خصلة منه تتراقص على وجه والدي النائم . ومع اني قضيت فترة طويلة منتصبا في وسط الغرفة كالتمثال ،

مانها لم تعرني أدنى التفات على الاطلاق ، اذ شغلها عني امر تصفيف شعر زوجها ، وواجب ذرف الدموع عليه ...

وفتح الباب فجأة ، والقى الجندي الحارس وعدد من الفلاحين السود الوجوه نظرة عجلى على الغرفة ، ثم صاح الاول بحدة :

ــ هلموا اسرعوا ، واحملوه خارجا !

كان حراماسود اللون، مسدلا على النافذة، وهو يتطاير بفعل تيار الهواء الجاري فكأنه شراع قارب صغير ، يذكرني ، دون سبب على الاطلاق ، بما حدث لي مرة عندما اصطحبني والدي في نزهة على متن مركب شراعي ، وانفجرت عاصفة من الرعد بغتة ، فضحك والدي ، وضمني بين ركبتيه ، وصاح يهدىء من روعي :

ــ لا بأس ، لا تخف يا بني !

وعلى غير انتظار ، تحاملت والدتي على نفسها بصعوبة ، ولكنها لم تلبث ان سقطت واستلقت على ظهرها ، فانتشر شعرها على الارض ، وازرق وجهها ، وغاض منه كل لون ، وانطبقت اسنانها بعنف كانطباق اسنان والدي تماما .

تمتمت في صوت خائف يرتعد :

ــ اغلقي الباب ، اخرجي الكسي !

فدفعتني جدتي جانبا ، وهي تمضي ناحية الباب ...

صاحت جدتي عاليا :

ــ لا تخافوا ، أيها الطيبون ! لا تلمسوها ! اخرجوا ، محبة بالمسيح ! ليست هذه كوليرا ! بل بداية آلام المخاض ! ، اشفقوا عليها ، ايها الناس الكرام !

واختبأت وراء صندوق للملابس في زاوية مظلمة ، اتطلع منها الى والدتي تتلوى على الارض ، تئن وتصر بأسنانها ، بينما تتدحرج جدتي بالقرب منها وهي تتلو بلطف وجذل بعض الصلوات :

ــ باسم الاب والابن ! تشجعي يا فاريوشا ! يا والدة الاله العذراء ارحمينا ...

كنت خائفا ... فهما تتابعان الزحف والحركة على الارض قرب والدي ، حتى تلامسا جسده البارد أحيانا ، تئنان ، وتبكيان ، وتلطمان الخدود حزنا عليه ... اما هو ، فيرقد هادئا دون حراك ، وعلى محياه

سيماء السخرية منهما . واستمر هذا المشهد مدة ليست قصيرة ، وامي تحاول الوقوف على قدميها ، لتعـود من جديـد فتسقط على الارض ، بينما تقفز جدتي داخل الغرفة وخارجها كطابة كبيرة سوداء ، وانا عاجز عن ادراك اي مغزى لذلك الاضطراب كله ... وعلى حين غرة ، تـردد في الظلمة بكاء طفل صغير ...

تنفست جدتي الصعداء ونبرت :

ــ شكرا لله ! انه صبي !

واشعلت شمعة ...

لا ريب انني استسلمت للنوم في زاوية الغرفة ، لانني لم اعد اذكر شيئا مما حدث بعد ذلك ...

اما ثاني ذكريات حياتي فكنت اقف في بقعة مهجورة في احدى المقابر ، ذات يوم ماطر ... على رابية قليلة الارتفـاع ، فـوق كتلة من التـراب لزجة متحركة ، انفرس في تلك الحفرة التي انزلوا فيها نعش والدي . كان قاع الحفرة يطفح بالماء والضفادع ــ حتى لقد قفزت ضفدعتـان فوق غطاء النعش الاصفر اللون ، واستقرتا عليه .

كنت هناك مع جدتي ، والحارس ، وفلاحين يحملان معوليهما . وكنا ، جميعا ، نستحم في رذاذ بديع كان يتساقط حديثا ...

قال الحارس ، وهو يتحرك مبتعدا :

اطمرا الحفرة بسرعة .

فانخرطت جدتي في البكاء ، وقد غطت وجهها بطـرف وشاحها ... وانحنى الفلاحان ، وهالا اول دفعة من الطين في الحفرة ، فتطايـر الماء منها ، واخذت الضفدعتان تثبان على جوانب القبر تطلبان النجاة . فتردها دفقات التراب ثانية الى قاع الحفرة .

وقبضت جدتي على مرفقي ، وقالت :

ــ فلنرجع ، يا اليوشا !

فافلت من قبضتها ، راغبا في العودة ...

تنهدت بشكل ترك في بعض الارتياب :

ــ اه ، يا الهـي !

ترى ، اشكواها مني ام من رب السماء ؟

ظلت جامدة في مكانها فترة طويلة ، مطرقة الراس ، صامتة ... ولم يخطر لها ان تتحرك ، حتى بعد ان طمرت الحفرة تماما ..

مهد الفلاحان الارض بسطح معوليهما ، وفي هـذه الاثناء هبت ريح صرصر طردت الغيوم ، وحملت المطر بعيدا . فاخذت جدتي بيدي ، وقادتني الى كنيسة غير بعيدة تقوم بين غابة من الصلبان السود .

والتفتت الي عندما خرجنا من المقبرة ، وسألت :

ــ ما بالك لا تبكي ؟ يجب ان تبكي قليلا !

فقلـت :

ــ اني لا اشعر بميل الى البكاء .

ــ حسنا ، ان كنت لا تميل الى البكاء ، فلا حاجة لك به اذن .

ادهشني منها ان تطلب الي البكاء ... كنـت نادرا ما ابكي ، واذا فعلت فلأن بعض الناس جرح شعوري ــ ابدا لم ينتزع الالم الجسدي مني الدموع ــ فاذا ما اهرقتها مرة ، كان والدي يضحك من عبراتي ، اما والدتي فتأمرني قائلـة :

ــ لا تبك ! اني امنعك عن البكاء !

وقطعنا ، بعد قليل ، دربا عريضة مغبرة تمتد بين عـدد من المنازل تجمع بين اللونين الاسود والاحمر .

سألت جدتـي :

ــ هل ستخرج الضفدعتان من الحفرة ؟

ــ كلا ، لن تخرجا . غفر الله لهمـا !

كانت تردد اسم الله بكثرة ، وبشيء مـن السهولة ، لم اشاهدهـا عند والدي مطلقـا ...

●●●

بعد مضي عدة ايام اتخذنا ، جدتي وامي وانا ، غرفة صغيرة على متن احد المراكب البخارية ... كـان اخي الطفل مكسيم قد توفـي ، وهو الان

ممدد على طاولة صغيرة في احدى الزوايا ، تلفه ثياب بيض محزومة بشريط احمـــر .

جلست على بعض صناديقنا وامتعتنا ، اتطلــع الى الخارج مــن كوة صغيرة ، مستديرة ، اشبه بعين الحصان الصغير . وكانت المياه الغاضبة تتدفــق تحت الزجاج المبتــل . وتتكوم في بعض الاحيـــان بموجة عاتيـــة جبارة فتغمره برذاذها . وساعتئذ ، كنت اقفز مكرهـــا حتى الارض ... فتنهضني جدتي بذراعيها الناعمتين وتعيدني مرة اخرى الى مكاني السابق فوق الامتعة ، وهي تقول :

ـ لا تخف ، يا عزيزي !

كان ضباب رطب ، رمادي اللون ، يبدو كأنه معلق فوق المياه .. وبين الفينة والفينة ، كانت بقعة خضراء من الارض تنبثق من قلب الضباب ، ثم لا تلبث ان تتلاشى في مكان ما ، على بعد سحيق ... كان كل شيء يحيط بنا يهتز بشكل واضح جلي ما عدا امي ، التي تقف ثابتة لا تأتي بحركة ، مستندة الى الجدار وقد شبكت يديها خلف رأسها ، واغلقت عينيها بشدة واحكام ، وبدا وجهها اسود اللون ، عابسا ، خاليا من كل تفكير . ولم تفــه بكلمة طوال الوقت ، حتى خيل الي انها قد تغيرت تماما ، وتجــدد كل شيء فيها . حتى ان ثوبها ايضا لم يك مألوفا لدي ...

كانت جدتي تلتفت اليها من وقت لاخــر ، وتخاطبها بحنان وعطــف لا يخطران ببال :

ـ هلا تناولت بعض الطعـــام ، يا فارفارا ... لقمة واحـــدة على الاقـــل ؟...

ولكن والدتي تظل معتصمة بصمتها محتفظة بجمودها ...

وطفقت جدتي تحدثني همسا كعادتها ، فاذا خاطبت امي توجهت اليها بصوت عال بعض الشيء وفي شيء من الخجل والحذر ، وفي فترات متباعدة كل البعد ، مما دفعني الى الظن بانها تخاف والدتي . ولم يصعب علي فهم ذلك ، بل ضاعف تحببي الى الجدة ، وزاد الروابط بيننا شدة وتمكنا ...

قالت امي ، على غير انتظار ، في صوت مرتفع اجش :
ـ ساراتوف ! اين هو ذلك النوتي ؟

تلك كلماتها الغريبة غير مألوفة : « ساراتوف » ، « النوتي » ؟ .

ودخل الى الغرفة رجل عريض المنكبين ، اسود الشعر ، يرتدي بزة زرقاء ، ويحمل صندوقا صغيرا تناولته جدتي منه ، ومددت جسد اخي الصغير في جوفه . . . ومن ثم حملته ، بعد ما تم لها ما ارادت ، وخطت ناحية الباب ، وقد مدت يديها بحملها الى الامام . غير انها كانت اسمن من ان تتمكن من المرور منه الا بصورة جانبية ، بحيث وقفت عنده حائرة مرتبكة ، وهيئتها تبعث على السخرية .

صاحت والدتي ، وهي تختطف النعش من يدي جدتي :

ــ اوف ، ما بك يا اماه !

ثم اختفتا معا ، وتركتاني في الغرفة بصحبة ذلك الرجل الازرق . فقال ، وهو يحنو علي :

ــ لقد ذهب اخوك وتركنا هنا .

ــ من انت ؟

ــ نوتي .

ــ ومن ساراتوف ؟

ــ انها بلدة . انظر من النافذة ، انها .. هناك !...

كانت الارض تتحرك خارج النافذة وتميد ، سوداء ، كثيرة التعرجات، مكللة بالضباب المتصاعد منها كالدخان ، فتذكرني بقطعة كبيرة من الخبز اقتطعت من رغيف ساخن .

ــ اين ذهبت جدتي ؟

ــ تدفن حفيدها .

ــ هل ستدفنه في جوف الارض ؟

ــ طبعا !

فقصصت عليه كيف طمروا الضفدعتين الحيتين يوم دفنوا والدي . فحملني بين ذراعيه ، وضمني الى صدره ، وقبلني ثم قال :

ــ آه ، يا صغيري ! انك لا تدرك الا امورا قليلة بعد ! ليست الضفادع

ـ أخذها الشيطان ـ من يستحق الشفقة ، بل والدتك ... انظر كم هي تتألم وتشقى !

وفجأة ، قامت فوقنا ضوضاء عظيمة هي مزيج من الزمجرة والانين والصراخ ، لم أرتعد منها خوفا لانني ادركت ان مصدرها ان هو إلا عملية تسيير المركب البخاري . وانزلني البحار من بين ذراعيه بسرعة ، وانطلق خارجا وهو يعلن .

ـ يجب ان اذهب !

رغبت بدوري في الذهاب ، فخطوت خارج الغرفة ... كان الممر الضيق المعتم مقفرا من الناس ، يطالعني فيه ، غير بعيد من الباب ، لمعان نحاسي انه السلم . طلعت الى اعلاه ، فشاهدت بعض الناس يحملون امتعة محزومة ... كان من الواضح ان الجميع يغادرون المركب ، وهذا يعني انه ينبغي علي بدوري ان اغادره مثلهم .

وعندما بلغت السطح ، وانزلقت بين جميع اولئك المسافرين الواقفين على السلم الذي يصل المركب بالبر ، شرع القوم يصيحون في وجهي :

ـ من انت ؟ اين أهلك ؟

من اين لي ان أدري .

فراحوا يدفعونني حينا ، ويلقونني ارضا حينا اخر ، وينتهرونني دون انقطاع ...

ولكن البحار الاسود الشعر ظهر اخيرا ، وقال :

ـ انه صبي من استراخان ـ خرج من غرفته صدفة ...

وحملني ، وركض عائدا بي الى الغرفة حيث وضعني على الصناديق وخرج ، لكن بعد ان هددني قائلا ، وهو يهز اصبعه في وجهي :

ـ اياك ان تفعل هذا مرة اخرى ، والا ...

وعاد الهدوء يخيم ، شيئا فشيئا ، على المركب الذي كف عن الاهتزاز ، كما انقطع رذاذ الماء في الوقت ذاته . ولكن لهاثا من الرطوبة سد نافذة الغرفة ، فأمست مظلمة خانقة ، يخيل الي في عتمتها ان الصناديق تنتفخ وتحدق في باصرار وعناد .. ذعرت ، فرحت اتساءل :

ـ ترى ، هل تركوني وحيدا في هذا المركب البخاري الفارغ الى غير ما عـودة ؟...

مضيت الى الباب ... كان مغلقا ، فلم استطـع ان ادير قبضتـه النحاسية ، فتناولت قنينة حليب كانت على المنضدة قربي ، وهويت بها بكل قواي على القفل . فتكسرت القنينة ، وتدفق الحليب على قدمـي وتسرب الى حذائي .

اسفت من فشلي ، فتمددت باكيا منتحبا فوق الامتعة ، وحاولـت ان انام ... عندما استيقظت كان المركب يتأرجح من جديد ويهتز ، والماء يتطاير ونافذة الغرفـة تبرق كالشمس وجدتـني تجلس الى جانبي تسرح شعرهـا معقودةالحاجبين ، تغمغم بينها وبين نفسهـا باشياء عديدة .. كان لها شعر غزير يتراوح لونـه بين الزرقـة والسواد ، يتدلى بكثافة فـوق كتفيهـا ، وصدرها ، وركبتيها ، حتى يبلغ الارض ... وكانت ترفعه باليـد الواحدة عن الارض ، وتنثره فوق راسها ، ثم تدفع بيدها الاخـرى مشطا خشبيا ، خشنا قليل الاسنان ، داخل جدائلها الثقيلة المتمردة . وكـان فمها يلتوي الما ، وعيناها السوداوان تلمعان غضبا ، ووجهها يبدو صغيرا رائعا فـي وسط تلك الكتلة الجبارة من الشعر الكثيف .

كان مزاجها ، فيما يظهر ، سيئا ذلك النهار على غـير اعتياد . ولكن صوتها كان ناعما ، لطيفا ، مثله دائما ، عندما اجابتنـي وقـد سالتها عن سبب طول شعرهـا :

ـ انه عقاب من الله ـ لقد قال لي : فلتمضي ايامك كلها في تسريح هذا الراس الملعون ! لقد اعجبت به في صغري ، ولعنته في شيخوختي . ولكن ، عد الى النوم ، يا صغيري . فالوقت ما زال مبكـرا ، والشمس لم تكد تشرق بعد ، وانت في حاجة الى الراحة والسكينة .

ـ لارغبة لي في النوم بعد الان .

فاجابت ، وهي تعقص شعرهـا وتشخص الى الاريكـة حيث تتمدد والدتي بشكل تبدو معه وكانها السهم :

ـ حسنا ، لا تنم اذا لم يكن لك رغبة في الرقاد . كيف كسرت القنينة لبارحة ؟ تحدث بصوت خافت .

كانت تنغم كلماتها بطريقة خاصة ، فتنحفر الكلمــات حفرا في ذاكرتي بسهولة ــ ما احيلاها كلمات زاهية معطرة كالورد ! وعندما تبتسم كانت عيناهــا السوداوان تشعان وتشرقــان بلمعان لا يوصــف ، وابتسامتهــا تفضح اسنانها البيضاء القوية ، ووجهها كله ، رغما عن التجاعيــد الكثيرة المنتشرة في وجنتيها الجافتين ، يبدو فتيــا رائعا فاتنــا ... ولم يك يفسد جمال هذا المحيا الا ذلك الانف البدين الاحمــر ، بخيشوميــه الواسعين ، وارنبته المتأججة الحمراء . ان جدتــي تتعشق السعوط كثيرا ، وتتناولــه باستمرار من علبة سوداء مزينة بخيوط من الفضة . وكان كــل ما ترتديه اسود اللون قاتما ، الا ان نورا انيسا دائما دائم الاشعاع يطل من عينيها ، ويلقي عليها من الداخل هالة رائعة من الضياء . وكانت فارعــة القامة . منحنية الظهر حتى تقارب الاحديداب ، وان ظلت حركتها سهلة سريعة مثل حركة قطــة . والى جانب ذلك ، كانت تماثل القطة الاليفة لطفا ورقة ...

لقد كنت قبل قدومها ، كالغارق في النوم ، محاطــا بنوع من الظلمة الغريبة . فاذا بها تأتي الي ، وتبعثني من رقادي ، وتقودنــي الى النور ، ومن ثم تغزل كل ما يحيط بي في خيط واحد متصل ، وتجعل منه شبكة زاهية الالــوان .

وسرعان ما اضحت ، الى الابد ، رفيق حياتــي ــ الرفيــق القريب والعزيز على قلبي ، والذي استطيع ان افهمه تماما ... وكان حبها المتجرد الحياة يثقفني ، ويهبني القدرة التي كثيرا ما احتجت اليها ، فيما بعد ، لاجابه بعزم وقوة مستقبلي المظلم الذي لم اكن لاعرف عنه شيئا .

●●●

كانت المراكب البخارية ، قبل اربعين سنة مضت ، تتحرك ببطء ظاهر ، بحيث تضينا وقتا طويلا حتى بلغنا نيجني نوفجورود . وانا لا ازال اذكر ، حتى الان ، تلك الايام الماضيات الطافحة رقة وعذوبة ، المشوبة بالغبطــة والبهجة والفرح والسرور .

ظل الطقس بديعا ابدا ... ومنذ الصباح حتى المساء ، كنت اقتعــد وجدتي سطح المركــب ، عائمــين هناك تحت قبة السماء الزرقاء اللامعة ، بــين ضفتــي نهر الفولجــا المزخرفتــين ببساط ذهبــي يطرزه الخريــف

ويزينه . وكان المركب الرمادي اللون الذي يجر وراءه قاربا صغيرا للانقاذ ، يتحرك ببطء وسط الماء الازرق الضارب الى الرماد ، مقاوما مجرى التيار شاقا طريقه بواسطة لطمات لطيفة خفيفة تضرب بها المجاذيف العريضة سطح النهر المتدفق ابدا ... اما القارب الصغير المجرور فكان اغبر اللون ، يشبه حشرة مائية ضخمة ... وكانت الشمس تسير بخفة فوق نهر الفولجا حتى اننا لا نحس بها ، تضيف في كل ساعة شيئا جديدا الى بهاء الطبيعة ورونقها ... وكان كل شيء يحيط بنا يتغير بين لحظة واخرى ، كما في اقاصيص الجنيات ... والهضاب الخضراء تتوج الارض الثرية ... والقرى والسهول على الجانبين تبدو ، وهي تمر بنا عن بعد ، وكأنها مصنوعة من اللون الاخضر ، واوراق الخريف الذهبية اللون تعوم فوق المياه وتسبح .

— انظر ، ما اروع تلك المناظر الطبيعية !

هذا ما كانت تقوله جدتي ، وهي تذرع السطح جيئة وذهابا ، يتالق وجهها نورا ويغمر الفرح عينيها .

وغالبا ما كانت تنتصب ، وتسف النظر الى هذا المشهد الهادىء ، متناسية وجودي تماما ، وقد صلبت يديها عند خصرها ، وتحدبت شفتاها بشكل ابتسامة لطيفة ، واخضلت عيناها بالدموع . وعندئذ ، كنت اتعلق مذعورا بتنورتها السوداء الموشاة بالوان عديدة زاهية .

كانت تقول حينذاك :

— ماذا ؟ كأنني غفوت ، وحلمت حلما لذيذا !

— لم تبكين ؟

فكانت تبتسم ، وتجيب :

— من سعادتي ، يا صغيري ! ومن ضعفي ، يا عزيزي ! لقد هرمت ، بعد ان خلفت ورائي فصولا ثلاثة من عمري ...

وحينذاك ، كانت تنشق قليلا من السعوط ، وتقص علي بعض القصص الخيالية عن القديسين ، والحيوانات ، واللصوص الظرفاء ، والسحر الاسود .

كانت تروي اقاصيصها بصوت منخفض غريب الجرس ، وقد تجهم

وجهها ، وهي تثبت حدقتيها الواسعتين في عيني ، كما لو كانــت تصب فــي قلبي تيارا من القوة تشد به من عزيمتي. كانت تغني اكثر منها تقصّ علي حكاية ... وكلما اطالت الحديث ، كلما سجعت اسلوبها ... وكان يسيطر علي فرح لا يوصف عندما استمع اليهــا ، حتى اذا انتهــت من احدى القصص هتفت بهــا :

ـــ تابعي ، يا جدتي ، قصة اخرى ! ارجوك ...

ـــ ... وعندئــذ حدث ان كان العفريــت الصغــير يجلس تحــت المدفأة وقد اصيب بشظية ابرة كان يتأرجح في جلسته ويتأوه ... « اوه ، ايتها الفأرة الصغيرة ، ايتها الفأرة الصغيرة ! سأمــوت ، ايتها الفــأرة الصغــيرة ! »

ثم تمسك بقدمها وترفعها ، وتأخذ تهز راسها ، فاتحة عينيها ، الى الامام والى الخلف ، وكأنها هي التى تعاني تلك الالام .

ويتجمع حولنا البحارة ـــ رجال طيبون لحاهــم طويلة ـــ ويغرقــون بالضحك ، وهم يصيخون السمع اليها ، ثم يمتدحونها ويطلبون منها المزيد :

ـــ تابعي ، ايتها الجدة ، وقصي علينا مزيدا من هذه الخرافات !

وعند العشاء ، كانوا يدعونها الى شرب الفودكا ، ويدعونني على البطيخ الاحمر والاصفر . كان ذلك يجري في الخفاء ، اذ كــان على المركب انسان منع اكل الفواكه بسبب الاوبئة المنتشرة ، فاذا ما وقــع على احدهم ياكلها اختطفها منه راسا ، ثم القى بها في مجرى النهر . وكــان يرتدي ثيابا اشبه بثياب الفقراء ، وقد صف مجموعة مــن الازرار النحاسية على صدر معطفه بتناسق جميل . وكان ثملا دوما ، يهــرب الجميع منه كلما صادفوه في طريقهــم ..

كانت والدتي نادرا ما تصعــد الى سطح المركب ، فــاذا فعلت كانت تتجنبنا وتظل معتصمة بصمتها وهدوئها . وما زلــت اذكر ، حتى اليوم ، جسدها الطويل الجميل ، ووجهها الاسود الانبس المتوج بجدائل من الشعر الاشقر ، وقامتها القوية الصلبة ، ان كل هذا ينبثق امامــي الان ، من خلال ضباب ابيض او غيوم شفافــة . ومــن وراء السنين ، يأتينــي حتى اليوم

بريق عينيها الرماديتين المتوحشتين اللتين تعادلان عيني جدتي في الاتساع .

قالت ، ذات يوم ، بجفاء :

ــ انك تجعلين من نفسك اضحوكة ، يا اماه !

فأجابتها جدتي بمرح :

ــ فليضحك الناس ان ارادوا ذلك ، فهذا يجعل حياتهم اكثــر هناء . كان اللـــه معهم !

وانا اذكر ذلك الفرح الصبياني الذي استولى على جدتي عندما وقعت عيناها على نيجني نوفجورود ... صاحت ، وهي تقبض على يدي ، وتدفعني ناحية الحاجز :

ــ انظر ، انظر ! ما اروعها ! هذه هـــي نيجنى ، مدينـــة الله ، حيث ستعيش ! يا لجمالها! انظر الى قبـــب الكنائس ، لكأنها تحلق عاليا فـــي الجـــو !

واستدارت نحو امي ، وقد غلبتها الدموع :

ــ انظري ، يا فارفارا ! لا ريب انك نسيتهـــا على ما اظن ... هيا عبي من سرور لقياهـــا !

ولكن والدتي ابتسمت بحزن ...

والقى المركب مرساه في ناحية تقابل المدينة المحبابة . توقف في منتصف النهر الذي احتشد بالزوارق الصغيرة ، يطغى عليه سيل من مئات القوارب الشراعية . وهذا قارب صغير يعج بالناس ويضيق يحاذي مركبنا ، ثم يعرج حتى السلم الذي يصل بين المركب والشاطىء ، فاذا بلغه قفزت الجموع ، منه ، وصعدت الينا حتى السطح . وكان يدب ، على رأس تلك الجموع ، شيخ صغير الجسم ، نحيل القوام ، ارتدى معطفاطويلا اسود اللون . كانت له عينان صغيرتان خضراوان ، وانف اقنى ، ولحية حمراء تلتمع كالذهب .

صاحت والدتي بصوت عال ، وهي ترمي بنفسها بين ذراعيه :

ــ ابتـــاه !

فراح يمسح راسها بيديه الصغيرتين الحمراوين ، ثم اخذ يضرب بلطف على وجنتيها ، ويصيح مهتاجا :

ـ آه ، آه ! ايتها الطائشة ! اخيرا ، ها انتذي هنا ! اه ـ ه . . .

وشرعت جدتي تحتضن الجميع وتقبلهم ، وهـي تدور حول نفسهـا مثل المروحـة . . .

صاحت ، وهي تدفعني نحو القوم

ـ هيـا ، اسرع ! هـذا هو الخـال ميخائيـل ، وهذا ياكـوف ، وهذه الخالة ناتاليا ، وهذان الصبيان ابنا خاليك ، واسم كل منهما ساشا ، وهذه ابنة الخال كاترينا ، كلهم يؤلفون عشيرتنـا ـ انظر الى هذا العـدد العديـد !

وسأل جـدي :

ـ كيف حالك ، يا اماه ؟

وقبل كل منهما الاخر مرات ثلاثا . . .

و اختطفني الجد من بين الجميع وقال ، وقد وضع يده على راسي :

ـ ومن تكون انـت ؟
ـ صبي من استراخان ـ خرج من غرفته صدفة . . .
فسأل جدي مدهوشا ، وقد استدار جهة والدتي :
ـ ماذا يقـول ؟
ثم دفعني الى الامام دون ان ينتظر جوابا . قال :
ـ لقد ورث هزال والده . فلننزل الى القارب .

ركبنا حتى الشاطىء ، ثم تسلقنا الطريق القديمة الحجريـة بين صفين من الارصفة العالية المكسوة بالعشب الاخضر المرتجف .

سار جدي في الطليعة بصحبة والدتي ، وكان لا يكاد يبلغ كتفيها ، يخب على الارض الى جانبها بخطواته السريعة القصيرة . وهي تنظر اليه من عل تبدو وكأنها على وشك ان تطير في الهواء . . . ومشى خلفهما خالاي ، دون ان يند عنهما ادنى صوت : ميخائيـل ، بشعـره الاسود الاملس ، وجسده النحيف الذي يداني جفافا جسد جدي ، وياكـوف ، بشعره الاشقر المجعـد البراق ، ومن ثم بعض النسوة السمينات بثيابهن الزاهية الالوان ، وحوالي ستة اطفال ، وكلهم يكبرونني سنا ويفوقونني هدوءا ايضا امـا انا فمشيت

وجدتي في مؤخرة الجميع ، تصاحبنا الخالة الصغيرة ناتاليا . كانت شاحبة اللون ، ذات عينين زرقاوين ، وبطن عبل . . . وكانت تقف بين لحظة واخرى، تلتقط انفاسها وتخرخر :

ـ اوه ، لم يعد في استطاعتي السير خطوة أخرى .

فيتمتم جدي بغضب :

ـ لم اصطحبوك معهم ؟ يا لها من عشيرة غبية !

اما انا فلم يرق لي احد من هذه العشيرة ، لا الكبار ولا الصغار . . . احسست كانني غريب بين هذا الجمع الفائض . حتى جدتي نفسها ذبلت قليلا في عيني ، وازدادت بعداً . .

كرهت ، خاصة ، ذلك الذي يسمونه جدي ، اذ عرفت فيه منذ اللحظة الاولى ، عدوا لي ، استفز استقباله في فضولا حذرا جعلني أوجه اليه انتباها خاصا .

وانتهينا الى اخر ذلك المرتفع . . فانتصب امامي منزل منخفض مؤلف من طابق واحد ، ينهض مقابل الرصيف الايمن في تلك البقعة المرتفعة حيث يبدا الطريق بالقرب منه . . . كان البيت مدهونا بلون وردي وسخ ، ونوافذه منتفخة : تنتفخ تحت سقف مهدم عتيق . كان يبدو كبيرا واسعا عندما نظرت اليه من الخارج . ولكن الغرف ، في داخله ، كانت صغيرة جدا ، مظلمة ضيقة ، مليئة بجمهور مضطرب كثير الحركة والضوضاء . كان مثله مثل المركب عند تفريغ حمولته ، والاطفال يتجمهرون فيه مثل العصافير الدورية ، رجوه النظيف قد تشبع برائحة حادة غير مالوفة .

وجدتني في ساحة لا تبهج القلب مطلقا ، ازدحمت بدورها ببعض الاواني الزجاجية المملوءة ماء ملونا كريه المنظر ، مصفوفة في كل مكان دون انتظام ، وبثياب نشرت على عدة حبال بغية تجفيفها . وكان شعاع نار تبعثها اخشاب تلتهب في الموقد ، يجيء من زاوية مظلمة ، قديمة ، متآكلة ، مصحوبا بصوت غليان وقرقرة وضجيج . . . وكان شخص غير منظور يتفوه بكلمات غريبة في صوت عال :

ـ اعطوني سانتالين ـ اعطوني زاجا ـ اعطوني حامض الكبريت ! . .

٣

كان ذلك فجر حياة دائبـــة الجريان ، طافحـــة بالحوادث ، معقدة ، غريبة ، يستحيل وصفها تماما . وان ذكراها لتحيا في خاطري كحكاية كئيبة رواها لي جني طيب القلب ، لكنه واقعي حتى درجـــة الايلام . ولكم يصعب علي حتى اليوم ، اذ اعود بالذكرى الى الماضي البعيـــد ، ان اصدق ان هذا الماضي كان حقا على ذلك الغرار ، فأروح أميل الى انكار كثـــير من الوقائع ومعارضتها كيما اختصر مما كانت عليه الحياة في تلك « العشيرة الغبية » من ظـــلام وقسوة .

ولكن الحقيقة فوق كل نزوة شخصية . وانا لا اكتب هنا عن نفسي ، بل عن تلك البيئة الخانقة الرهيبة التي كان يعيش فيها ، وما يزال ، الروسي العـــادي .

كان منزل جدي مليئا بدخان العداوة الخانق ــ عداوة كل فرد للجميع ، هذه العداوة التي تسمم الكبار بها تمامـــا ، وسرت عدواهـــا الى الاطفـــال الصغار أيضا . وقد عرفت فيما بعد من اقاصيص جدتي ان والدتي رجعت الى الدار واخواها يطالبان والدهما ــ بالحاح زائـــد ــ ان يقسم أملاكه فيمـــا بينهما . فاذا رجوع أمي غير المنتظر يزيدهما جشعا واسرافـــا في الالحاح ، خوفا من أن تطلب مهرها الذي سبق لجدي ان حرمها منه لاختيارها زوجها دون موافقته ورضاه . وكان خالاي يطالبـــان باقتسام ذلك المهـــر ، وهما يخوضان ، دون انقطاع ، جدالا مرا حول من سيفتتح مصبغـــة في البلدة ، ومن سيغادر البيت الى كونافينو ، على الضفة الثانية لنهر اوكا .

وهكذا نشب ، ولما يمض على وصولنا زمـــن طويل ، شجار عنيف في المطبخ ساعة الغداء . فقد قفز خالاي بسرعة ، وارتميا فوق المائدة ، يصيحان وينبحان في وجه جدي ؛ ويكشران عن اسنانهما ، وينتفضان كالكلاب . واذا الجد يهب بدوره واقفا ؛ يضرب بملعقته وقد اصطبغ وجهه بالحمرة ، ويصيح بصوت اجش :

ـــ سأجعلكما تستعطيان الناس في الشوارع .

فقالت جدتي ، وقد تغضن وجهها ألما :

ـــ أعطهما كل شيء ، يا ابتاه ! هيا ، اعطهما كـــل شيء . وسوف تجد الراحة والسلام . اعـــط !

فصاح ، وعيناه تقدحان شررا :

ـــ صمتا ، ايتها المتساهلة !

وقد بدا لي غريبا يومئذ ان يستطيع انسان بحجمه الصراخ في مثل ذلك الصوت المخوف الهائل .

ونهضت والدتي ، واتجهت ببطء نحو النافـــذة ، حيث استقرت وقـــد ادارت ظهرها للجميع .

وفجأة ، ضرب خالي ميخائيل اخاه ضربة جبـــارة على وجهه ، فأرسل هذا عويلا عنيفا ، وتعلق به وجذبه اليه بشدة ، فتدحرج الاثنان على الارض يلهثان ، وينفخان ، ويتشاتمان . . .

وهنا اخذ الاطفال يبكون ، واطلقت خالتي الحامل ناتاليا من فيها صرخة يأس ، فضمتها والدتي بكلتا ذراعيها ، ثم دلفت واياها خارجا . أما يفجينيا ، وهي المربية الجميلة ذات الوجه الضحوك المجدور ، فأسرعت تخرج الاطفال من المطبخ . . وتحطمت بعض المقاعد في حميا المعركـــة ، فأسرع الصانـــع ايفان ـــ الملقب بتسيجانوك ـــ وامسك بظهـــر الخال ميخائيل ، بينما راح جريجوري ايفانو فيتش ـــ وهو معلم ملتح اصلـــع الرأس يحمل نظارتـــين سوداوين على أنفه ـــ يوثق يديه بهدوء باحدى المناشف .

وابتدأ الخال يحك لحيته الرفيعة على الارض ، ويطلق من فيه صيحات مرعبة مبحوحة ، بينما جدي يركض حول الطاولة كالمجنون ، وهو يزعق :

ـــ اخوة ، ها ! اخوة دمويون ! تفو ! . . .

كنت قد قفزت خائفا ، عند بدء ذلك النزاع ، فوق الموقـــد . . . ومن هناك اخذت أراقب جدتي ، وهي تغسل الدماء عن وجـــه ياكوف المدمى . وكان هذا يبكي ، ويضرب الارض بقدميه ، بينما الجدة تقول بلهجة يائسة :

ـــ أفلا تعقلان ، أيها الملعونان ! يا لها من عشيرة متوحشة !

فرفع جدي قميصه الممزق الذي سقط عن كتفه ، وصاح :

— اليك الوحوش التي حبلت بها ، أنت ايتها الشمطاء اللعينة !

وعندما خرج ياكوف ، تكورت الجدة على بعضها في احدى زوايا المطبخ، وراحت تحدث الايقونات .

— يا أم الاله الطاهرة ! أرجوك ان تعيدي الى ولدي ادراكهما !

فأتاها جدي ووقف بالقرب منها ، شاخصا الى الطاولة حيث كان كل شيء قد اندلق وتكسر . قال بهدوء :

— انت يا أم ، يحسن بك ان تراقبي هذين الولدين اللذيـــن انجبتهما ! انهما يريدان الخلاص من فارفارا . . . وما نفع هذا ؟

— لا سمح الله ! لا سمح الله ! والان ، اخلع قميصك حتى ارفاه لك .

وتناولت راسه بين يديها ، وقبلته في جبهته ، فدفـــق راسه — لشدة قصره بالنسبة اليها — بين كتفيها . . . وقال :

— لننفصل ، فيما يبدو ، أن نتقاسم يا أماه !

— صدقت يا أبتاه ، صدقت !

وتشاورا هكذا مدة طويلة . . كان حديثهما ، في البدء ، لطيفا محببـــا ، ولكن سرعان ما شرع جدي ينبش الارض بقدمه كديك يتأهب للبراز ، ويهدد جدتي باصبعـــه .

قال شاكيا في همسة عالية :

— انني أعرفك تماما ! فانت تعنين بهما أكثر ممـــا تعنين بي . ولكن سيخائيلك هذا منافق كبير ، وياكوف ذاك كافر جبان ! وسيبذران كل ما أملك على سكرهما وعربدتهما — بل سيبتلعانه عن اخره !

وبحركة لا شعورية من كتفي القيت على الارض المكواة ، بحيث قعقعت متدحرجة فوق درجات الموقد ، ثم سقطت في سطل الماء الوسخ . فقفز جدي مرتاعا ، وجذبني حتى صاقبته ، وحملق في وجهي وكانه يراني للمرة الاولى .

— من وضعك هناك ، على الموقد ؟ أهي أمك ؟
— لقد تسلقـــت لوحدي . . .
— أنت تكـــذب .
— لا ! انا لا اكذب . لقد كنت خائفا .
فدفعني عنه بلطف ، وقد ضربني براحة يده على جبيني :

ــ انك مثال ابيك ! اخرج !

وكان سروري عظيما بالافلات من ذلك المطبخ ...

كنت اشعر بوضوح أن جدي لا ينقطع عن ملاحقتي بعينيه الخضراوين الحادتين ، فكنت أرهبه ... وما برحت اذكر حتى الان ذلك الخوف الغريزي الذي يدفعني دوما الى الاختباء من هاتين العينين المحرقتين . ورحت أعتقد انه وضيع النفس شرير ، فهو ينادي الجميع بلهجة تهجم واستهزاء ، ويسر باغاظة الناس واستفزازهم دوما .

ــ تفو ! يا لهم من قوم !

كان مولعا بهذه الكلمات ، يلفظها متعمدا مطّ الفاء والــواو ، الامر الذي كان يرسل دوما قشعريرة باردة يائسة .

كان جدي ساعة الراحة ، وقت تناول الشاي مساء ، اذ يغادر وخالاي والعمال المعمل ، ويدخلون المطبخ لاهثين متعبــين ، وقــد تلطخت أيديهــم بالصباغات ، وترطبت بالحوامض المختلفة ، وعقدت شعورهم بعصابات الى الوراء ، فاصبحوا يشبهون ــ في كل شيء ــ تلك الايقونات المظلمة الموضوعة في احدى زوايا المطبخ ــ خلال هذه الساعة الخطــرة ، كان الجــد يجلسني قبالته ، تاركا احفاده الاخرين مغيظين ، في كثير من الغيرة ، من توجهه الي اكثر منه اليهــم .

كان في مظهره العام شيء لائق جدا ، لطيف ، حتى لتقول انه منحوت نحتا دقيقا رائعا . وبالرغم من ان معطفه الحريري المطرز عتيق مهترىء ، وسترته القطنية مجعلكة ، وسراويله مرقعة عند الركبتــين ، فقد كان يبدو انظف من ولديه وافضل لباسا واحسن منظرا ، بالرغم من معطفيهما الجديدين واكمامهما المنشاة ، واربطة عنقهما الحريرية .

ولقد ارغمني ، ولما يمض عدة ايام على وصولنا ، على حفظ صلواتي . كان بقية الصبيان اكبر مني سنا ، يتعلمون جميعا القراءة والكتابة عن شماس كاتدرائية اوسبينسكي ، الكنيسة التي نستطيع ان نطل على قببهــا الذهبية الرائعة من خلال نوافذ منزلنــا .

وقد اسند الى الخالة ناتاليا امر تعليمي هذه الصلوات ، وهــي امرأة رزينة وجلة ، لها وجه غرير ، وعينان ساطعتان شفافتان حتى ليمكنك ، اذا ما نظرت اليهما ، ان تستشف كل ما يجول في مؤخرة راسها من افكار .

كنت أحب ان اشخص طويلا اليها دون ان يطرف لي جفن ، فيزعجها هذا مني ، فتروح تضيق عينيها ، وتسبل اهدابها ، وتلوي راسها لتتفادى نظراتي ، وتسأل في صوت اشبه ما يكون بالهمس اللطيف :

ـ قل معي هذا ، ارجوك : أبانا الذي ...

ـ وماذا تعني كلمة « الذي » ؟

فكانت تجيب ، وهي تسترق النظر فيما يحتف بنا :

ـ لا تسأل ! ان السؤال يزيد الامور سوءا . يكفيك ان تردد بعدي : أبانا ... هيا !...

ولم أكن استطيع أن افهم لم يزيد السؤال الامور سوءا .. ان كلمة « الذي » تحمل معنى خفيا ، فكنت اتعمد تشويهها :

ـ الزي ، اللاذي ....

ولكن الخالة البيضاوية الوجه التي تبدو وكأنها تذوب تدريجيا ، تصحح قولي بصبر :

ـ كلا ، قل ذلك ببساطة هكذا : أبانا الذي ...

ولكنها لم تك ، لا هي ولا كلماتها ايضا ، من البساطة في شيء بالنسبة الي . وكان ذلك يبعثني على السأم والضيق ، ويجعل حفظ الصلاة صعبا علي .

وذات يوم ، استفسر جدي عن مبلغ نشاطي فقال :

ـ حسنا ، يا الكسي ، ماذا فعلت اليوم ؟ اكنت تلعب ؟ اني أرى ذلك من هذه الحدبة التي تعلو جبينك . لا تكن نشيطا الى هذه الدرجة حتى تجلب على نفسك كل هذه المتاعب . ولكن ، اخبرني ، ماذا حفظت اليوم من « أبانا » ؟

فهمست عمتي :

ـ ان ذاكرته رديئة للغاية .

فضحك جدي ، ورفع حاجبيه الحمراوين :

ـ اذا كان الامرر كذلك ، فيجب جلده اذن .

والتفت ناحيتي ، وسأل :

ـ ترى ، هل جلدك ابوك مرة ؟

فلم افهم ما يعني بكلامه هذا ، ولذا اعتصمت بالصمت .

واجابت امـــي :

ـ ان مكسيم لم يضرب الطفل قط ، وكان يمنعني عن ذلك .

ـ ولـــم ذلـــك ؟

ـ كان يقول ان الضرب لا يعلم المرء شيئا .

فأجاب جدي ، وقد ساء خلقـــه :

ـ لقد كان مكسيم هذا غبيا أبله ، غفر الله له .

اغاظتني كلماته ، فقال وقد استشعر ذلك :

ـ فيم عبوسك ؟ ايه ، أنت ! يحسن بك ان تنتبه لنفسك ! سوف ينال ساشا جلدة صغيرة لطيفة نهار السبت بسبب ذلك الكشتبان .

قال هذا وهو يسرح باصابعه شعره الاحمر المفضض . فسألت :

ـ كيف ستفعل ذلـــك ؟

فضحك الجميع ، بينما أجاب جـــدي :

ـ انتظر ، وستكتشف كيف . . .

واختبأت في ركن منعزل ، وأخذت أحاول ان أتصور ذلك : ان الناس يفتقون «١» الثياب التي يريدون صبغها ، ولا ريـــب ان هذا هو ما يعنيـــه جدي . وهم يضربون الخيول ، والكـــلاب ، والقطط . وفي استراخان يضرب الجنود الفارسيين ـ ولقد شاهدت ذلك بأم عيني ، ولكنني لم أر قط انسانا يضرب طفلا صغيرا . والحقيقة ان خالي كانا يضربان ، في كثير من الاحيان ، ولديهما على الجبين او مؤخرة الرأس ، ولم يك يبدو على الضحيتـــين أدنى اهتمام لذلك ، بل كانا يحكان نقرتيهما برهة وجيزة ثم ينسيان كل شيء .

وكنت في بعض الاحايين ، اسألهمـــا عما اذا كان ذلـــك يؤلمهما ، فكانا يجيبان بشجاعة :

ـ انه لا يؤلم البتـــة . . .

وبلغني خبر حادث الكشتبان الشهير . فقد كان خالاي ورئيس العمال ، في الفترة الواقعة بين تناول الشاي والعشاء ، يخيطـــون سوية بعض قطع

« ١ » في الروسية يعبرون عن الجلد وفتق الثياب بكلمة واحدة .

الثياب المصبوغة ويجعلون منها قطعة واحدة ، ثم يلصقون بها رقعة معدنية للدلالة عليها . واراد الخال ميخائيل ان يداعب جريجوري الـذي كان نصف اعمى تقريبا ، فعلم ابن اخيه البالغ من العمر تسع سنوات ان يسخن كشتبان العامل على الشمعة . فحمل ساشا الكشتبان فوق اللهـب بملقط النار حتى اصبح احمر اللون ، ثم وضعه في متناول يد جريجوري واسرع يختبىء وراء الموقـد .

ولكن جدي دخل في تلك اللحظة ، وتأهب للعمـل مباشرة ، فاذا بـه يدخل اصبعه في الكشتبان الملتهب .

وانا اذكر انني سعيت راكضا الى المطبخ لاعرف منشأ الضجة ، وسبب تلك الصيحة الرهيبة التي اطلقها جدي من فمه ، فوجدته يقفز بشكل يجبر على الضحك ، ممسكا اذنه بيده المحترقة ، وهو يزعق :

ـــ من فعل ذلك ؟ اجيبوا ، ايها الوحوش !

كان ميخائيل ، في تلك الاثناء ، وقد انحنى فوق الطاولة يدعك الكشتبان عليها باصبعه ، وينفخ عليه . اما جريجوري فاستمر يخيط ثابـت الجأش ، تترجح الاخيلة على راسه الاصلع وتتراقص ... واتانا ياكوف يركض ، ثم توارى خلف الموقد ليخفي ضحكاته ، في حين تناولت جدتي راسا من البطاطا النيئة واسرعت تقشره .

وعلى حين فجأة ، قال الخال ميخائيل :

ـــ انها فعل ساشا ... ابن ياكوف ...

فصاح ياكوف ، وقد وثب من وراء الموقد :

ـــ ذلك كذب ! ذلك هراء !

وشرع ابنه يصيح من احدى زوايا المطبخ متباكيا :

ـــ لا تصدقه ، يا ابتاه ! فهو الذي دفعني الى ذلك .

وابتدا الخصام بين خاليّ ... وما اسرع ما استرد جدي هدوءه ، فوضع لزقة البطاطا على اصبعه ، ثم خرج وقد اصطحبنـي معـه دون ان يتفـوه بكلمـة مـا .

قر راي الجميع ان الذنب يقع على عاتق الخال ميخائيـل . وكان من الطبيعي ان استفسر ، على مائدة الشاي ، ان كان سيضرب او يجلد ..

فتمتم جدي ، وهو يرنو الي :

يجب ان يجلد طبعـــا !

فضرب الخال ميخائيل الطاولة بيده ، وفح في

ـــ اذا لم تؤدبي جروك اللعين هذا ، يا فارة
جسده !

فاجابت والدتـــي :

ـــ جرب اذن ان ترفع اصبعك عليـــه !...
فران الصمت على الجميع ...

كانت لها مهارة فائقة ، عندما تنطق ببعض الكلمات المختصرة ، لتهزم ايا كان وتخمده تماما . وكنت اشعر بوضوح ان الجميـــع يهابون والدتي ، حتى جدي كان يتوجه اليها بالحديث في نغمة مختلفة ـــ نغمـــة اهدأ من تلك التي كان يخاطب الاخرين بها . وكان ذلك يسرني كل السرور ...

كنت اتباهى على ابني خا لـــيّ :

ـــ ان والدتي تفوق الجميع قـــوة !

فلم ينكرا ذلك ابدا ...

ولكن حوادث السبت التالي زعزعت ايماني بوالدتي ...

• • •

ذلك انني تصرفت بدوري ، قبل نهـــار السبت ، بصورة تسبـــب لي المشاكـــل ...

كان الاسلوب الذي يتبعه الكبار في تبديـــل لون الثياب يدهشني ويثير اهتمامي . فهم يأخذون شيئا اصفر اللون ، ويغطسونه في ماء اسود ، فيخرج ازرق اللون يضرب الى السواد : « نيليا » . أو هم يغسلـــون شيئا أشهب اللون في ماء احمر ، فيخرج اسود اللون يضرب الى الحمـــرة : « خمريا » . كل ذلك بسيط جدا ، فيما يبدو . ولكن غير مفهوم على الاطلاق .

وقد ساورتني رغبة خفية في ان اجـــرب بنفسي ذلك العمـــل فهمست

برغبتي هذه في اذن ساشا بن ياكوف ، وهو صبي مهذب ، وقـور ، يتعقب العمال دوما ليعرض عليهم خدماته ، فيشكره الجميع ، ما عدا جدي ، على نشاطه ومساعداته .

كان العجوز يقول : وهو يتطلع باحتقار الى الصبي :

ــ تفو ! يا للمنافق الصغير !

كان ساشا يميل الى السواد ، رقيـق الجسم ، ذا عينين منتفختين تماثلان عيني السرطان . وهو يتحدث بصوت هادىء سريع النبـرات حتى ليزدرد نصف كلماته ، ويضرو هنا وهناك خلسة وبصورة غريبة ، فكأنه يعد خطة للهرب والاختفاء . وغالبا ما كانت حدقتاه البنيتـان تجمدان فلا تأتيان بحركة البتة ، فاذا ما أغاظه شيء تبدلت حالهما ، وراحتا ترتجفان ا رتجافا، يصاحبهما في ذلك بياض العين كله .

وبالرغم من ذلكفلم أكن أحبه أو أميل اليه ابدا . كنت اضمر محبة اكبر لابن ميخائيـل ــ واسمه ساشا ايضـا ــ رغم ما يكتنفـه مـن غموض ، وما يبـدو عليـه مـن حماقـة ... كـان هـادىء الطبـع ، لـه عينا والدته الحزينتان وابتسامتها الفاتنـة . وكانـت أسنانه بشعة كـل البشاعة ــ اذ تندفع خارج فمه ، وتنحني بشكل صفين مضاعفين متراكبـين في فكه الاعلى . وكان اصلاحها شغله الدائم ، فأصابعه ابدا في فمـه يحاول أن يخلع بها اسنان الصف الخلفي . وكان يسمح ، متلطفـا طائعـا ، لاي انسان يرغب في تفحصها ان يفعل ذلك . ولكنني لم اقتـع على شيء اخر فيه يثير الاهتمام . كان يبقى على الغالب ، منعزلا في ذلك المنـزل الصاخب يقبع وحيدا في احدى الزوايا المظلمـة الدامسة ، أو يقضي أمسياته قـرب النافذة ، وكان يبهجني ان اصاحبه تدثرا بالصمـت اقعد الى جانبه قـرب النافذة واظل ساكنا مدة ساعة من الزمـن او يزيد ، أراقب الغربـان تحط وتحلق فوق كاتدرائية اوسبينسكي التي تنتصـب قببها الذهبية الرائعة فـي بروز جميل تواجه فيه الاشعة الحمراء التي يبعثها مغيب الشمس . كانـت الغربان تحلق في أعالي الجو ، ثم تندفع هابطة .. وعلى حـين غرة ، تنشر اجنحتها السوداوية في السمـاء العريضة الحرة ، ومن ثـم تختفي مخلفـة وراءها فراغا هائلا ميتا ، فاذا بك تفقد كل رغبة في الكلام ، وانت تشخص الى هذه الامور تجري امام عينيك ، لان صدرك يمتلىء عندها بسرور مؤلم .

اما ساشا ، ابن الخال باكوف ، فباستطاعته انيتحدث ما شئت عن جميع الامور مثل رجل بالغ وبصورة مثيرة حقا . . وعندمـــا عرف رغبتي في تعلم مهنة الصباغ نصحني باللجوء ، في تجربتـــي الاولى ، الى غطاء المائدة الكبير الخاص بأيام الاحاد والاعياد ، فآخذه من موضعه في الخزانة ، واصبغه باللون الازرق القاتم .

قال لي القاتـــم

وقال لي جـــادا :

ــ ان الاشياء البيضاء تتقبل الالـــوان اكثر من اي شيء اخـــر ، وانا واثق من ذلـــك .

. فاستوليت على الغطاء الثقيل الثمين ، ، وركضت به حتى الساحـــة . . . ولم اكد اغطس اطرافه في حوض « النيل » حتى رمى تسيجانوك بنفسه علي ، واختطف الغطاء من بين يدي ، وعصره بيديه الكبيرتين ، وصاح بابن خالي الذي كان يراقب ذلك من المظلـــة :

ــ اركض وادع جدتـــك !

والتفت ناحيتي ، وحك راسه العريض منذرا بالشر . قال :

ــ ستنال نصيبك من دون ريب .

واسرعت جدتي الينا ، وراحت تلهث عندما رات فداحة ما ارتكبت ، حتى انها سكبت بعض الدموع وهي تعنفني بطريقتها المضحكة .

ــ آه منك ايها اللعين ، آه منك ومن اذنيك الشبيهتين باذني الفيل . فليرفعك الشيطان ويرميك ارضا . لا بد ان تتبد وتجلد . . .

وعندها شرعت تتوسل الى تسيجانوك :

ــ لا تخبر جده بهذا ، يا فانيا ! سأخبئه ، ولعل الامور تجري خيرا . . فاجاب فانيا مغتاظا ، وهو يمسح يده الندية بمئزره الملوث بالصباغ :

ــ لا تقلقي من جهتي ، فهذا ليس من شاني ! ولكن يحسن بـــك ان تنتبهي لما سيثرثر به ساشا .

فقالت ، وهي تنطلق بي ناحية البيت :

ـــ سأعطيه بعض الدراهم ليسد بها فمه .

وفي ذلك السبت ، قبل صلاة الغروب ، صحبني احدهم ـــ ولم اعد اذكر هويته الى المطبخ .. كانت الظلمة والسكون يخيمان هناك .. واني لاذكر ان الابواب المفضية الى المشى ، وابواب الغرف الاخرى كانت جميعا مرتجة باحكام ، بحيث توارى مساء الخريف ، اشهب اللون كثير الضباب ، خلف النوافذ التي كان المطر يسامرها هامسا وهو يتساقط عليها ، وكان تسيجانوك يجلس على دكة صغيرة قبالة الموقد الاسود الكبير ، وهو اسوان على غير عادته . وقد وقف جدي قرب برميل قائم في احدى الزوايا ، يسحب من الماء عدة قضبان طويلة مقطوعة من احدى اشجار البتولا ، ومن ثم قاسها ، وجمعها في حزمة واحدة ، وضربها في الهواء ببأس كبير ... وكانت جدتي تستنشق السعوط في مكان شبه مغمور بالعتمة ، وهي تهمهم :

ـــ انه مبتهج ، هذا الظالم الوحش !

وكان ساشا ، ابن الخال ياكوف ، متراكما على احد المقاعد في منتصف المطبخ ، يفرك عينيه باصابعه ، ويعول كاحد المستعطين الشيوخ :

ـــ سامحني ، لاجل المسيح ...

ووقف ساشا ، ابن الخال ميخائيل ، واخته الصغيرة متلاصقين وراء الطاولة ، جامدين كتمثالين قدا من الحجر الصلد .

واجاب جدي : وهو يمسح على كفه قضيبا طويلا مبللا :

ـــ سأصفح عنك بعد ان تنال نصيبك كاملا . حسننا ، اخلع سروالك .

كان يتكلم بهدوء ، ولم تستطع نغمة صوته ، ولا حركات الصبي المتربع على الكرسي ، ولا ضربات قدم جدتي ، تدنيس حرمة الصمت المسيطر على ذلك المطبخ الظليل الجاثم تحت ذلك السقف المنخفض المطلي بالهباب .

ونهض ساشا ، وفك سرواله ، وانزله حتى ركبتيه ، وجثــا معتمدا على الدكة ، وقد تقوس بكامل جسده . كان النظر اليه يحز في النفس حتى ان قدمي طفقتا ترتجفان بشدة . ولكن المشهد ازداد ايلاما عندما اضطجع بضعف ، ووجهه الى الدكة ، واخذ فانيا يقيده بمنشفة طويلة مر بها تحت الابطين وحول العنق . ثم انحنى ، وامسك به من عقبيه . . .

صاح جدي :

الكسي ! تعال هنا ! حسنا ، مع من اتكلم ؟ اقتــرب وانظر ما عنيتــه بالجلد ؟ انظر مليا ! واحد . . .

وبحركة خفيفة من ذراعه رفع القضيب واهوى به على جسد ساشا العاري . . . فاخذ الصبي يعول وينوح .

قال الجــد :

ــ لا تكذب ! . . . فتلك لم تؤذك ! ولكن هذه ستفعل !

وضرب ضربة قوية رسمت على جلد الصبي ، بسرعة غريبــة ، توردا ظاهرا . ثم خلفت عليه تورما احمر اللون قانيا . فانطلق مــن ابن خالي عويل طويل متتابع . . .

وحرك الجد ذراعه حركة موزونة من الاعلى الى الاسفل ، وسأل :

ــ اما احببتها ؟ اما وافقت مزاجك ؟ هذا ليس بكشتبان ؟

كان يهب في صدري ، كلما رفع ذراعه ، شيء مجهول يصاحب حركته، وايان ما ضرب بيده كنت كمن يتلقى تلك الضربات منه .

وشرع ساشا ينتحب بصوت عال ، حاد ، يبعث الالم في قلب السامع اليــــه :

ــ لن افعل ذلك ثانية ! الم اخبرك عن غطــاء الطاولة ؟ فانا الــذي اخبــر . . .

ــ وشيت ؟ ان وشايتك لن تشفع لك او تخفف ذنبـــك ! ان للواشي السوط الاول ، وهذه ايضا لك بسبب الغطاء !

فارتمت جدتي علي ، واحتضنتني بين ذراعيها :

ــ انني لن اعطيك الكسي أبدا ، لن أعطيك ... لن أدعك تفعل ذلك ، ابها الوحش !

وطفقت تضرب الباب ، وتصيح :

ــ فارفارا ! فارفارا !

فهجم عليها جدي ، ورماها على الارض ، واختطفني ، ثم حملني حتى الدكة ... كنت اجاهد جهاد اليائس لافلت من بين ذراعيه ، اشد له لحيته الحمراء ، واعض له اصبعه . فشرع يزأر ويشدد الضغط علي ، ثم رمى بي اخيرا على الدكة فاصطدم وجهي بعنف شديد . وما زلت أذكر جيدا صياحه الوحشي :

ــ اربطه ! ساقتلــه !

وكذلك اذكر وجه أمي الابيض ، وعينيها الكبيرتــين ... تركض وراء الدكة وامامها ، وهي تحشرج :

ــ كفى ، يا ابتاه ! اتركه ، رده الي !

وظل جدي يضربني حتى فقدت الوعي . وبقيت ، بعد ذلك ، عدة أيام اعاني المرض ، وقد مددوني على صدري في سرير دافــىء عريض ، في غرفة صغيرة ذات نافذة واحدة ، يضيء في أرجائها نور قنديل احمــر باهت يحترق على الدوام في زاوية الايقونات .

كانت أيام مرضي احدى المراحل الهامة الرئيسيــة في حياتي . وكنــت خلال تلك الايام ، وكأني انمو سريعا واتحول من حال الى حال جديد ــ ومنذ ذلك اليوم ، ظهر عندي ذلك الانتباه القلق العميق نحو المخلوقات البشرية ، مكأنما الجلد قد تمزق عن قلبي ، فاصبح حساسا بصورة غير مألوفة لا تكاد تصدق حيال الامتهانات والالام الانسانية التي اعانيها انــا او يعانيها سواي مــن البشر .

وقد فجعت ، بادىء الامر ، بذلك الشجار الذي نشب بين أمي وجدتي ... كانت هذه الجدة الكبيرة السوداء ، في تلك الغرفة الصغــيرة ، تنقض

على امي وتحصرها في زاوية الايقونات ، وهي تغمغم :

ــ لم لم تختطفيه بعيدا ؟ قولــي !

ــ كنت خائفــة !

ــ مخلوقة كبيرة مثلك تخاف ! يجب ان تخجلي ، يا فارفارا ! انا لــم اخف بالرغم من كبر سني ! ذلك مخجل حقــا !

ــ انك لا تحبينه ! ولا تحملين عطفا لذلك اليتيم الصغير المسكين !

ــ انني يتيمة انا الاخرى ــ لقد كنت وسأبقى يتيمة طوال حياتي !... قالت والدتي هذا بصوت مرتفع ، حزين الرنة ..

وحينئذ شرعتا تبكيان ، وقد جلستا على الصندوق بالقرب من الزاوية.

قالت والدتــي :

ــ لولا الكسي لهربت بعيدا ! الى مكان ناء حيثما كان ، فأنا لا أستطيع العيش في هذا الجحيم ! انا لا اقدر ، يا اماه ! وليس لدي الطاقة الكافية !

فهمست جدتــي :

ــ آه يا ولدي ، يا فلذة كبدي !

استنتجت من ذلــك ان امي ليســت على شيء من القــوة . فهي ، كالاخرين ، تخاف جدي وترهبه ... وانا مسؤول عــن بقائها في ذلك المنزل حيث لا تستطيع للحياة تحملا . ما انسى ذلك ! وسرعــان ما اختفت والدتي بعد زمن . اخبروني انها مضت تزور بعض الامكنة ، ولكننــي لم اعرف قط اين ذهبــت ...

وذات يوم جاءني جدي ... حدث ذلك فجاة ، فكأنه سقط علي مــن السقف ... جلس على حافة السرير ، وراح يداعب راسي باصابعه الباردة كالثلــج ..

ــ صباح الخير ، ايها الشاب الصغير ! هيا واجب على سؤالي ــ لا

تحدق علي ـــ حسنا ، كيف حالـــك ؟

فأحسست رغبة في ان ارفسه . ولكن الحركـــة كانت تؤلمنـــي كثيرا .
جلس الى جانبي ، يبدو لي شعره اكثر احمرارا منـــه في اي وقـــت مضى ،
وهو لا يفتأ يهز رأسه بشكل متعب ، في حين علقت عيناه اللامعتان بالجدران ،
فكأنهما تبحثان فيها عن شيء ما . واخرج من جيبـــه كعكة مـــن الزنجبيل ،
وقضيبين من سكر النبات ، وتفاحة ، وبعض الزبيب ، ووضع ذلك كله على
المخدة بالقرب من انفـــي :

ـــ انظر ! لقد حملت اليك بعض الهدايا !

ثم انحنى وقبلني في جبيني ... وراح يتحدث وهـــو يضرب بلطف على
جبهتى ، من آن لاخر ، باصبعه الصغيرة الممتلئة ، الملطخة باللـــون الاصفر
الفاقع ، وخاصة حول الاظافر المعوجة الشبيهة بمخالب الطيور :

ـــ لقد ضربتك اكثر مما تستأهل ذلك اليوم ، يا صغيري . وانا اعترف
بذلك . لقد فقدت صوابي . لقد كنت مجنونا . وانت ضربتني ، وعضضتني ،
و ... حسنا ، لقد ثارت ثائرتي .. ومن حسن حظك ، على اية حال ، انك
نلت علاوة هذه المرة ـــوسأخصمها من حسابك في المرات القادمة . يجب ان
تذكر فقط شيئا واحدا ـــ ان ضربك احد من ذويك فهو لا يقصد اهانتك ، بل
تربيتك ... وليكن هذا درسا مفيدا لك ! ولكـــن ، اياك ان تـــدع الاخرين
يلمسونك بسوء ـــ ذلك مجاز لاهلك فقط ـــ فهم لا يحاسبون عليـــه ! اتظن
انني لم انل نصيبي في صغري ؟ لست تستطيع ان تتصور ، في اكثر احلامك
رداءة ، كيف كانوا يضربونني ، يا البوشا ! كانوا يضربونني بوحشية لو كان
الله شاهداً عليها لبكى ... وماذا كانت نتيجة ذلك ؟ انظر الي الان فقط ـــ
انا ، اليتيم ، ابن مستعطية عجوز ـــ اراس الان معملا كاملا ، وامر الناس
المحيطين بـــي .

واقترب مني بجسده النحيل المحكـــم البنـــاء ، وراح يروي لـــي قصة
طفولته ، وكلماته الثقيلة تسترسل ، الواحدة تلو الاخرى ، بمهارة فائقـــة
ودون صعوبة على الاطلاق .

كانت عيناه الخضراوان تشعان ، وشعره يلتمع كالذهب ، وصوته يزداد حدة ، وهو ينفخ في وجهي :

ـ لقد جئت الى هنا على ظهر مركب بخاري . فالبخار ، اذن ، هو الذي حملك حتى هذا المكان . ولكنني عندما كنت صغيرا ، كانت قواي وحدها تصارع أمواج الفولجا ، وهي تجر العوامات الخشبية . كانت العوامة تنزلق على الماء ، اما انا فاسير على الضفة ، حافي الاقدام ، فوق تلك الحجارة المدببة والاشواك المسنونة ، منذ بزوغ الفجر حتى هبوط الليل ، والشمس تشع لاهبة حتى لتحس براسك قدرا من الحديد يغلي في داخله شيء ما . وانت منحن حتى يقابل راسك قدميك ، وعظامك تصرصر ، ولكنك تدب وتدب دون توقف ، ودون ان ترى الى اين ، والعرق يتصبب في عينيك ، وقلبك يئن ، وشفتاك ترتجفان ـ آه ، نعم ، يا اليو شا ، انك لا تستطيع ان تتذمر ، بل تظل تسير وتسير حتى تسقط من اعياء ، ووجهك الى الارض مدفون فيها . انك لتغتبط بذلك لانه يعني على الاقل ان قوتك قد تلاشت جميعا عن اخرها ، وان عليك ان تستريح بعد الان أو تموت من شدة الاعياء ، والامران عندك سواء،هكذا كنا نعيش تحت نظر الله ورحمة شفيعنا السيد المسيح ... ثلاث مرات في حياتي قست طول امنا الفولجا بالرغم من عرضه واتساعه : من سمبيرسك حتى ريبينسك ، ومن ساراتوف حتى هنا ، ومن استراخان حتى ماكارييف ، وهي تساوي مسافات تزيد عن الوف الفراسخ . وفي السنة الرابعة فقط رقيت الى درجة بحار ، فقد أدرك الرئيس اخيرا انني اكثر من مجرد حيوان للجر .

كان ينمو امام عيني باستمرار ، كلما قطع في حديثه شوطا جديدا ، مثل سحابة تتحول من مخلوق صغير الى بطل ذي قوة خارقة ـ بطل يستطيع لوحده ان يجر عوامة شهباء اللون ضد تيار النهر العظيم .

كان يقفز ، في بعض الاحيان ، عن السرير ، يمثل لي كيف كانت العوامة تتقدم بواسطة حبالهم ، وكيف كانوا يجذفون المياه ، ثم يأخذ بانشاد اغنيات غير مألوفة بصوت عميق . ويعود فيثب ، كرة اخرى ، ويجلس على السرير ، مخلوقا مدهشا يتابع الحديث في صوت يزداد عمقا واقناعا حينا بعد حين :

ورغما عن ذلك كله ، يا الكسي ، كنا نستريح في احدى ليالي الصيف في ريجولي ، ونشعل نارا تؤرثها الاخشاب عند سفح احدى التلال الخضراء ـ

اوه ، لقد كانت تلك اياما ممتعة حقا ، يـا الكسي ! فهذا الحساء يغلـي في قدره ، وهؤلاء بعض المراكبيين يترنمون بأغنية حماسيـة يخففون بها عـن قلوبهم بعض العناء ، فنشاركهم بها بدورنا ـ اوه ، كـان الغناء يحفز كـل جارحة فينا ، ويدفعنا للاستزادة منه ، والعب من منهلـه . حتى يخيل اليك ان الفولجا نفسه يضاعف من شدة جريانه ، مثـل حصان غاضب يزمجـر ويهاجم بعنف عنان السماء ! وعندها كانت متاعبنـا تضمحل وتتلاشى كمـا يتلاشى الغبار امام الريح ! وكنا ننسى في غنائنا ، ذلـك الحساء حتى يفور وينصب على النار . فنلتفت الى الطاهي ، نصب علـى رأسه ثورة حامية الوطيس :

« لك ان تتمتع باغنيتك ، ولكن اياك ان تنسى وظيفتك ! » .

ولقد جاءوا الى الباب يطلبون جدي عدة مرات ، فكنـت اتوسل اليه في كل مـرة :

ـ ابق لحظة اخرى !

فيضحك ، ويلوح بذراعيه ، ويصيح :

ـ انتظروا ! هناك ...

واستمر يسرد لي حكاياته حتى المساء . استنتجت عندما ودعني ومضى ان جدي لم يكن مخيفا ولا شريرا .

كان الالم يعصر قلبي بقسوة كلما تذكرت انـه هو الذي ضربني ذلـك اليوم بكل تلك الوحشية والقسوة ، فاجـرب ان اتناسى تلـك الحقيقة دون جـدوى .

وفتحت زيارات جدي الباب على مصراعيه لكل طارق ، فكـان احدهم يقبع على سريري منذ الصباح الباكر حتى هبوط الليـل ، يحاول تسليتـي بطريقة ما . واني لاذكر ان تلك المحاولات لم تكن تتكلل بالنجاح دوما .

وكانت جدتي تعود اكثر مـن اي شخص اخر ، بـل كانت تقاسمنـي الفراش دائما . ولكن الشخص الذي ترك الاثر الاكبر في ذهني هو تسيجانوك

من دون ادنى ريب . جاءني ذات مساء شابا وافي القامة ، عريض المنكبين، ذا رأس كبير يفرشه شعر مجعد اسود اللون فيغطيه ، وهو يرتدي ثياب نهار الاحد المؤلفة من قميص حريري فاتح اللون ، وسروال عريض من المخمل ، وحذاء يصرصر عند كل خطوة ، ويتجعد عند العقب كآلة الاكورديون . وكان شعره يلمع ، وعيناه المنحرفتان تشعان جذلتين تحت حاجبيـــه السوداوين ، واسنانه البيض تبرق من تحت الخطوط الضيقة لشاربيه الفتيـــين ، وقميصه يتوهج وهو يعكس بعذوبة الضوء الاحمر الذي يبعثه قنديل الايقونة .

وسحب كم قميصه ليكشف لي عن جروح حمر صغيرة في ذراعه ، وقال:

ـــ انظر يا صاحبي ، اترى مبلغ تورمه ! ولكنه كان اسوأ من قبل ، ثم اندمل شيئا فشيئا ... لقد ادركت ان الغضب افقــد جدك كل ما لديه من صواب ، فأزمع ان يضربك حتى الموت ، ولذلك وضعـــت يدي اتلقى بهمـــا ضربات القضيب آملا ان يتكسر ، فيضطر جدك عندها للاستعاضة عنه بآخر جديد ، معطيا بذلك لوالدتك او جدتك فرصة لاختطافـــك بعيدا ... ولكن القضيب لم يتكسر ، اذ كان مبللا ومرنا للغاية . ولكني ظللـــت اتلقى عنـــك بعض الضربات ، وانت تستطيع ان ترى بنفسك كم كان عددها ! نعم ..

وضحك ضحكة فتانة ناعمة ... ثم اضاف ، وهو ينظر ثانية الى ذراعه المنتفـــخ :

ـــ لقد شعرت بالاسف من اجلك حتى انبهـــرت انفاسي . وادركت ان عاقبة عمله ستكون وخيمة ، ولكنه استمر فيه وهو يؤرجح ...

ونفخ بمنخريه كالحصان ، وهز رأسه ، وراح يمثل لـــي حركات جدي بطريقة صبيانية بسيطة استطاعت ان تنال ، بسرعة عجيبة ، كل عطفي ...

واخبرته انني احبه كثيرا ، فاجابني بذات تلك اللهجة البسيطة المحببة:

ـــ وانا خصصتك بثمرة قلبي . ولذا تحملت ذلك الالم من اجلك ـــ من اجل حبي لك . اتظن اني افعل لاي كان ؟ فليذهب باقي الناس الى الجحيم ! انا لا يهمني امرهـــم !

ثم اعطاني امثولة ، وهو يتطلع الى الباب بنظرات مسترقة . قال :
ــ عندما يجلدونك مرة اخرى فلا توتر اعضاءك ، اتسمع ؟ ان ذلك يضاعف الالم مرتين . ولكن ، اجعل جسدك يتمدد مرتاحا ، حتى يصبح طريا ناعما مثل الجلاتين . ولا تقطع نفسك ابدا . تنفس باقصى ما تستطيع من رئتيك . تذكر هذا جيدا ، ذلك افضل لك !

فسألت :

ــ وما فائدة ذلك ؟ هل سيعودون الى جلدي ؟
فاجاب تسيجانوك بهدوء :
ــ وماذا تظن ؟ بالطبع سيفعلون ! سيفعلون ذلك كثيرا .
ــ ولاي سبب ؟
ــ ان جدك سيخترع سببا لذلك ، حسنا !

ومرة اخرى راح يعلمني ، باهتمام عظيم ، ماذا يجب ان افعل :

ــ وإذا بدأك بالضرب فارتم على الارض فقط ، والزم الهدوء بحيث تستطيع ان تتمدد براحة ودون حراك . فان تابع الضرب وانت على الارض، واخذ يشد القضيب اليه حتى يسلخ عن جسدك الجلد ، فتدحرج عندئذ ناحيته ، بل ناحية القضيب ، اتسمع ؟ ان ذلك يجعل الضربات اكثر احتمالا !

وتبت في نظرة جانبية سوداء ، وقال :

وفيما يتعلق بالتعذيب فان ابي الماما يفوق الام رجال الشرطة . اذ يمكنك أن تصنع زوجا من القفازات بما انسلخ عني من جلد .

ونظرت الى وجهه الجذلان ، فتذكرت أقاصيص جدتي عن الامير ايفان، وايكفانوشكا الاحمق ...

٣

اتضح لي ، بعد ان اخذت صحتـــي بالتحسن ، ان تسيجانوك يشغل مركزا ممتازا بين سكان منزلنا ، فجدي لا يصيح في وجهه بخشونة وكثرة كما يفعل مع ابنائه ، بل يضيق عينيه ويحك راسه عندما يتحدث عنه في غيابه :

ــ ان ايدي ايفان مصنوعتان من الذهب ، أخذه الشيطان ! سيكبر مثل الجبل ! تذكروا ما اقول : هذا الذي يعيش بيننـــا ليس بالانسان الوضيع ، ولسوف يشق لنفسه دربا ...

كانت علاقات خاليّ مع تسيجانـــوك حسنــــة ايضا ، فهما لا يحـــاولان التلاعب عليه ابدا كما يفعلان مع المعلم جريجوري . كانا يستنبطان ، في كل مساء تقريبا ، لعبة دنيئة ضد هذا الاخير ـــ فيسخنان مقابض مقصاته ، او يثبتان في مقعده مسمارا رأسه في الهواء ، او يقدمـــان اليه اقمشة مختلفـــة الالوان فيخيطها لقصر بصَره ـــ ببعضهـــا في قطعـــة واحدة دون ان ينتبـــه لالوانها ، مما يؤدي الى خلاف عنيف بينه وبين جدي .

وحدث ذات مساء ، بعد العشاء ، ان مضى جريجوري وغفا على الدكة القائمة في المطبخ ، فصبغا وجهه بالقرمز . وبقي بعد ذلك فترة طويلة أشبه بالمهرجين ، يتدلى انفه الاحمر الطويل كاللســان بين قرصي نظارته الاسودين اللذين يسطعان ببلادة فوق لحيته الشهباء .

كان خالاي لا يفرغان من ابتكار امثال تلك الالاعيـــب ، وجريجـــوري يتحمل ذلك صاغرا دون ان ينبس بحرف واحد ، بل يجمجم بينه وبين نفسه، ويحترس من التقاط المقصات ، او الملاقط ، او الكشتبان ، او أي شيء حديدي اخر ، الا بعد ان يلمسها باصابعه المبللة بلعابـــه . وامست هذه عـــادة لا تفارقه ، حتى اضحى يبلل اصابعه باللعاب حين يجلس الى مائدة الطعام ،

وقبل ان يلمس سكينا او شوكة ، فيبعث ذلك منه سرورا لا حدود له في قلب الاطفـــال .

كانت تعلو وجهه العريض موجة من التغضن عندمـــا يؤذيه شيء ما ، ثم تتسلق بشكل غريب ، حتى تصل الى جبهته ، فترفع حاجبيـــه ، ومن ثم تختفي في احدى زوايا راسه الاصلع .

ولست أدري رأي جدي في لهو ولديه ، اما جدتي فكانـــت تهز قبضتها في وجهيهما ، وتهمهم :

ـــ يا لكما من شياطين لا يخجلان ، حقاانكما لعفريتان . . .

وفي غياب تسيجانوك ، كان خالاي يتحدثان عنه بخبـــث واستهزاء ، يذمان اعماله ، ويسميانه لصا وخاملا .

سألت جدتي مرة عن سبب ذلك ، فأجابت :

ـــ ذلك انكلامنهمايرغب في أن يشتغل فانيا لحسابه حينما يفتتح معمله الخاص ، فيصغر في قدره امام الاخر . وكل منهما اخبث من اخيه واكذب . ولكنهما خائفان ايضا من ان بفضل فانيا البقـــاء مـــع جدك على الذهـــاب معهما ، فقد يخطر لجدك مشاريع جديدة ، ان يفتتـــح مثلا معمـــلا خاصا لفانيا . وهذا مما يسيء الى الخالين ، افهمت ؟

وضحكـــت بهـــدوء :

ـــ ولكن الله نفسه يهزأ بهما . ويلاحـــظ جدك دهاءهما ، فيغيظهمـــا بقوله « سادفع عن فانيا بدل الجندية ، وهكذا لن يأخذوه الى الجيش ، فأنا لا أستطيع الاستغناء عنـــه » ، والان ، افـــلا يكفي هـــذا ليفقدهما مـــا في رأسيهما من عقل ؟ ومع ذلك ، فهما لا يريدان هذا ، ويعز عليهما صرف المال لان البدل يتطلب كمية كبيرة منـــه .

مرة ثانية ، عدت اعيش مع جدتي ، تماما كما عشنا على ظهر المركب ، فتروح تقص علي ـــ كل مساء قبل أن أمضي الى النوم ـــ أقاصيص الجن ، أو قصصا من حياتها الخاصة لا تقل عن تلك جمالا وروعة . فاذا تحدثت عن « قضايا العائلة العملية » ، وعن تقسيم أملاك جدي ، أو عـــن عزمه على شراء منزل جديد خاص به ، فقد كان يشوب لهجتها شيء كثير من السخرية واللامبالاة ، فكأنها مجرد جارة لا شأن لها بتلك الامور ، وليست ثانية العائلة تقدما في السن .

وقد اخبرتني أن تسيجانوك ليس الا لقيطا ... فقد وجدوه ، ذات ليلة ماطرة من مطلع الربيع ، على دكة قريبة من بوابة منزلنا .

قالت ، وقد بدت عليها علائم التفكير والغموض :
ـ كان مضطجعا هناك ، وقد لف بحزمة من القماش . يترقف من البرد حتى ليعجز عن الصياح والبكاء .

ـ لم يتخلى الناس عن اولادهم هكذا ؟

ـ وقتما تجد الام ان الحليب والطعام ينقصانها لتغذي رضيعها بهما ، تفتش عن بيت ولد فيه طفل اخر ومات من توه ، فتحمل وليدها اليه وتتركه هناك .

وبعد هنيهة صمت قضتها في تمشيط شعرها تابعت ، وهي تتطلع ناحية السقف :

ـ والفقر اساس ذلك كله ، يا اليوشا ! ان بعض الناس لعلى درجة من الفقر لا يمكن وصفها . ومن العار عندهم ان تضع فتاة غير متزوجة .. وقد اراد جدك ان يحمل فانيا الى الشرطة ، ولكنني منعته عن ذلك وقلت : « فلنحتفظ به ... ان الله ارسله لنا عوضا عن ابنائنا الذين توفوا ... » . لقد انجبت لهذا العالم ثماني عشرة نفسا . وكانوا لو بقوا على قيد الحياة يملؤون شارعا كاملا ـ ثمانية عشر منزلا ! اليس كذلك ؟ لقد زوجوني ولما ابلغ من العمر اربعة عشر ربيعا ، واصبحت اما قبل الخامسة عشرة . ولكن الله احب نسلي هذا ـ فصار يدعوهم اليه واحدا تلو الاخر ، ليجعلهم ملائكة له في السماء . وان ذلك ليؤلمني ويشقيني ، ولكنه يفرحني في الوقت نفسه ...

كانت تشبه ـ إذ تجلس على حافة السرير ، وقد ارتدت قميص النوم، يجللها شعرها الاسود ، ووجهها الضخم الاشعث ـ دبة جلبها لنا ، منذ عهد قريب ، فلاح طويل اللحية من غابات سيرجاش .

وقهقهت ، وهي ترسم اشارة الصليب فوق صدرها الابيض ، وتهتز بكليتها :

ـ لقد اخذ افضلهم جميعا ، ولم يترك لي الا اشرارهم . ولذا كنت سعيدة لحصولي على فانيا ، ولقد احببته حبا جارفا ، فأنا اتعشق الصغار امثالك ! اخذته وعمدته ، وها هو قد عاش ، وصار انسانا رائعا . وقديما

كنت ادعوه بالخنفساء بسبب دوبه الدائم — فقد اعتـاد ان يدب على الارض وهو يدوي كالخنافس . هلا احببته يـا الكسي ، فـان له روحـا بسيطـة سانجـة .

كنت احب ايفان ، وتمتلكني دهشة لاعجابي به ...

وفي كل سبت ، اذ يمضي الجد لاداء صلاة المساء بعـد ان ينزل العقاب بمن اذنبوا خلال الاسبوع ، كانت حياة جديدة تبدا في المطبخ ، حياة تسعدنا بشكل لا يمكن وصفه ... كان تسيجانوك يقبض على بعض الصراصير من وراء الموقد ، ثم يسرجها بخيط صغير الى مركبة من الـورق يصنعها بمهارة وسرعة فائقتين ، ثم يسوق الصراصير الاربعة غدوا ورواحـا على الطاولة التي دهنت بلون اصفر براق .

كان يصيح متهيجا ، وهو يسوقها بعصا رفيعة :

— انها ذاهبة لاحضار الاسقف ...

ثم يلزق قطعة ثانية من الورق بمؤخرة صرصار اخـر ، ويرسله وراء العربة السابقة ، وهو يقول :

— لقد نسوا متاعهم ، وها هو ذا احد الرهبان يحمله لهم .

ثم يربط اقدام صرصار اخر ، بحيث يتعثر لوحده ، وهو يجـر نفسه على راسه !

ويعلن ثانيا ، وهو يفرك يديه فرحا :

— هاكم الشماس يغادر الخمارة الى صلاة المساء !

وراح يرينا الاعيب فيرانه المدربة .. جعلها تقف وتسير على قوائمهـا الخلفية وقد تدلت اذنابها الى الخلف ، واخذت اعينها تطرف بشكل مضحك . لقد كان لطيفا جدا مع فيرانه ، يحملها في عبه ، ويطعمهـا السكر من فمه ، ويقبلها ، وهو يقول في اقتناع جازم:

— ان الفأرة جار عظيم الحكمة ، وعظيم الود . ان عفريـت كل دار مغرم بالفيران وهو يتساهل جدا مع كل من يطعمها ...

كان في استطاعة تسيجانوك ان يلعب بعض الخدعات بالورق والدراهم، وان يصيح بصوت عال لا يجاريه فيه احـد من الاطفال . وفي الحقيقـة ، كان من الصعب جدا ان تميزه عنهم . وقد غلبه الاطفال ، في احدى الامسيات،

مرات عديدة متتابعات ، فاستشاط غيظـا ، واعتصـره الحزن ، وغمرتـه الكآبه ، فقطب ما بين حاجبيه ، ثم انسحب من اللعب .. وفيمـا بعد اعلن شاكيـا :

ـ تلك كانت مؤامرة ضدي . وأنا أعرف ذلك ! انهم يتغامزون ويتبادلون الورق من تحت الطاولة . أتسمي ذلك لعبا ؟ انني أستطيـع أن اغش تماما مثلما يفعلـون !

كان في التاسعة عشرة من العمر ، فهو يكبرنا جميعا ولو جمعنا اعمارنا ـ نحن الاربعة ـ الى بعضها بعضا . وان ذكرى خاصة به ما تـزال حية ندية في خاطري : كان جدي يذهب ، في أمسيات الاعياد ، مصطحبا الخـال ميخائيل القيام بواجب الزيارة . فيحمل الخال ياكوف ، بشعره المجعد المشعث ، قيثارته الى المطبخ ، بينما تهيء جدتي الشـاي وآنيته ، والفودكا والمرطبات . كنا نجد دوما ما يفيض عنا من الطعام . وكانت الفودكا تنصب مـن قوارير خضـر ممتزجة بزهور حمر ، وتنسكب في الاقداح باتقان عجيب . وكان تسيجانوك يدور كالبلبل في ثياب الاحد . اما جريجوري فيدلف بهدوء الى مكان الاجتماع ونظارتاه تلتمعان بمزيج من النور والظلمة . وكانت مربيتنا يفجينيا ، بوجهها ذي البثور السمينة ، الاحمر كالقـدر ، وعينيهـا الصغيرتـين الخبيثتـين وصوتها العميق المخفض ، بين الحضور أبدا . وفي بعض الاحايـين ، كان يقدم الينا ايضا الشماس الكثيف الشعر ، وبصحبتـه اشخاص اخـرون وجوههم قاتمة ، وابدانهم شديدة النحول .

كان كل فرد يأكل كثيرا ، ويشرب كثيرا ، ويرسل من حين لاخر تأوهات عميقة . وكان الاولاد ينالون حصتهم ايضا ، وفيها كأس من بعض المشروبات اللذيذة ... وفي كل مرة كانت بهجة غريبة متوحشة تنمو تدريجا حتى تملك الجميع وتسيطر عليهم سيطرة تامة ، وكان الخال ياكوف يبض قيثارته بهيام وشغف ، فاذا فعل ذلك قال هذه الكلمات التي لا تتغير :

ـ حسنا ، سأباشر ...

وينحني على القيثارة ، وهو يصفق تجعدات شعره ، ويمـد رقبته الى الامام كطير الاوز ، ويتخذ وجهه المدور المتكاسل مظهر رجل يحلم ، وتغشى عينيه الجميلتين سحابة ناعمة ، ثم يشرع بالضرب على الاوتار برقة وعذوبة ، يلعب عليها لحنا يدفعك ابدا ، بالرغم منك ، الى الوقوف على قدميك .

كانت موسيقاه تتطلب صمتا مطبقا ، فهي تندفع كساقية صغيرة رقراقة تنساب من مكان سحيق ، فتبلل الجدران والارض ، وتوقظ في القلب عاطفة حزينة مبلولة بالاسى والقلق ، فلا تستطيع ان تسمعها دون ان تحس بالاسف على نفسك ، وعلى كل مخلوق اخر حي .. وكأن يبدو ان الكبار انقلبوا اطفالا صغارا ، فيجلسون جميعا دون ان يأتوا بحركة ما ، غارقين في بحر من السكون الكئيب .

كان ساشان بن ميخائيل خاصة يصغي بانتباه مركز ، فيميل على عمه بكل جسده ، وعيناه مثبتتان في القيثارة ، وفمه مفتوح يتحدر اللعاب من زاويته ويستغرق احيانا في ذلك حتى ينزلق عن مقعده ويظل ، في مثل هذه الاحوال ، قابعا حيث سقط على اربعته ، دون ان يزاول الشخوص عينيه .

كان الجميع يحبسون انفاسهم ، يرهفون السمع الى عذوبة الموسيقى كالمسحورين ، اللهم الا السماور الذي يظل يهمهم في هدوء دون ان يقلق راحتنا على الاطلاق .

وكانت النافذتان الصغيرتان تطلان على ظلمة ليالي الخريف الداكنة في الخارج . ونادرا ما يدق أحدهم بهدوء على زجاجها ، وعلى الطاولة يشع خيطان ضيقان من لهب اصفر تبعثهما شمعتان صغيرتان ذابلتان .

ويغرق الخال ياكوف شيئا فشيئا في سبات عميق ، فيخيل اليك انه سيغفو عما قريب ، وهو يكز على اسنانه ، اللهم الا يداه وحدهما اللتان تنبضان بحياة خاصة ، فابهام يده اليمنى المقوس اخذ بالاضطراب كطير يقف على حافة هاوية سحيقة ، بينما اصابع اليد اليسرى لا تنقطع عن الصعود والهبوط على الاوتار .

وينطلق ، بعد ان يشرب جرعة او جرعتين ، ينشد بصوته الاجش اغنية طويلة ، مزعجة لا نهاية لها :

« ... ولو كان ياكوف جروا صغيرا ،
لايقظ جيرانه بنباحه ...
ضجرت وربي ... لقد مل قلبي !

●●●

وهـا هـي راهبـة الديـر تعـدو
على الدرب خائفـة من نواحـه ...
ضجرت وربي ... لقد مـل قلبـي !

●●●

وغرد ، فـي الغـاب ، طـير حنون ،
فعكـر ياكـوف حلـو صداحـه ...
ضجرت وربـي ... لقد ملّ قلبـي !

●●●

ومر فقـيران ... يبكـي الصغـير
دما سال كالسيـل فـوق جراحـه ..
ضجرت وربي ... لقد مـل قلبـي !

فلم احتمل تلك الاغنية ، بل انخرطت في البكاء عندما بلغ خالي مقطع المستعطين منها ، وانا نهب حزن لاعزاء له .

كان تسيجانوك ، كالاخرين ، يرهف اذنيه بانتباه الى الموسيقى ، وهو يجدل باصابعه شعر راسه المجعد ، ويرنو الى احدى الزوايا بثبات ، ويتنفس بصوت مسموع . وكان ، في اغلب الاحيان ، يهتف دون ما سبب ظاهر :

— اواه ، لو كنت املك صوتا جميلا ! اما كنت اغني ؟

فتتنهد جدتي ، وتجيب :

— كفاك تمزق قلبنا ، يا ياكوف ! يكفينا ما نلناه ! هلا رقصت لنا ، يا فانيـا ؟

لم يكن طلبها يستجاب دوما . ولكن الموسيقي كان يضغط احيانا على الاوتار براحة يده ، ثم يجمع قبضته ، ويلقي بحركة وحشية شيئـا خفيا لا صوت له على الارض ، ويصيح :

— كفى كآبة ! هب على قدميك ، على قدميك يا فانيا !

فينهض فانيا ، ويرتب هندامه ، ويمهد قمبصه الاصفر ، ثم يتبختر حتى وسط الغرفة ببطء فكأنه يسير على الزجاج ، ويطلب بادب بالغ ، وهو خجلان

من ارتباكــه :

ــ اسرع اللحن ، ياكوف فاسيليفيتش ، من فضلك !

فتاخذ القيثارة بتوقيع لحن صاخب سريع ، وتشرع الاعقــاب تصاحب النغم ، والصحون تتراقص على الرفوف والمائدة ، بينما يــدوم تسيجانوك في وسط الغرفة منتفضا كالعصفور ، يموج يديه كالاجنحة ، ويحرك قدميــه بسرعة عظيمــــة تــعجز العين عن متابعتهما. ثم يجلس على ركبيه وهو يهتف بصوت عال ، ليعود الى الدوران كخذروف ذهبي ، يضيء كل شيء بشعاعات سندسية تلتمع وتشع من ملابس الحرير المتموجة التي يرتديها .

ويظل تسيجانوك يرقص طويلا ، وقد سهــا عن نفسه وعن محيطــه تماما ، حتى يخيل الي انه سيتابع ذلك ــ فيما لو فتح البــاب له ــ ويدلف راقصا الى الشــارع ، وخــلال البلدة ، وهكــذا حتى يبلــغ بعض الاراضى البعيدة المجهولة ...

ويصيح الخال ياكوف ، وهو يضرب الارض بقدميه مرافقا انغام قيثارته:

ــ عظيــم !

ويرسل من فيه صفيرا قويا ، ويزعق بهذين البيتين بصوته الثائر :

« لو لم يكن في ذهابي اتلاف حذائي في الطريق ،
لفررت من زوجي كما افر من الحريق ... »

وتصيب الحمى الاشخاص الجالسين الى المائدة ، فيأخذون بالصيــاح والزعيق كأنهم يطعنون بحديد محمى . ويستمر المعلم الملتحى يرافــق النغم بضربات متتابعة على رأسه الاصلع ، وهو يتمتم في سره بشيء ما ..

واتجه مرة ناحيتي ، حتى صاقبت لحيته الناعمة كتفــي ، وهمس في اذني وكأنه يخاطب احد الكبار :

ــ لو كان والدك هنا ، يا الكسي مكسيموفيتش ! لكان اضاء شعلــة صاخبة مسلية تختلف عن هذه ! لقد كان في طراوة العمر وبسمة الصبا ، اتذكــره ؟

ــ كــلا !

ــ ها ! لقد اعتاد ان يرقص وجدتك احيانا ... انتظر ... انتظر لحظة وستــرى !..

ونهض جريجوري على قدميه ، باسق القامة ، هزيـــل الجسم ، يشبه صوره أحد القديسين ، ثم انحنى على جدتي ، وقال في صـــوت عميق غـــير مألـــوف :

ــ كوني لطيفة ، يا اكولينا ايفانوفنـــا ، وارقصي لنا . اتذكريـــن كيف كنت ترقصين مع مكسيم سافاتيفيتش ؟ والان ، اصنعي معنا هذا المعروف !

وضحكت جدتي وقالت ، وهي تبتعـــد :

ــ يا الهي ! ماذا تقوله ، يا جريجوري ايفانوفيتش ؟ اوه ! انا ! انـــا أرقص ؟ انت تريد ان يسخر الناس مني ، أليس كذلك ؟

ولكن الجميع توسلوا اليها ... فانتصبت على حين غرة كما لو كانت فتاة يافعة في رونق الشباب وميعته ، واصلحت من وضع قميصها ، وقومت عمودها الفقري . ورمت شعرها الكث الى الوراء ، ثم طفقـــت تدور حول المطهى ، وهي تصيـــح :

ــ فليضحكوا ما شاؤوا ! تعال هنا ، يا ياكوف ! اعزف لي !

فانطرح خالي على الارض ، ومدد ساقيه ، وراح يلعـــب لحنا بطيئـــا عيناه نصف مغمضتين ... ووقف تسيجانوك لحظة ، ثم قفز وشرع يثب حول جدتي ، بينا راحت هي تنساب صامتة فوق الارض وكانها تسبـــح في الجو ، وهي تحرك ذراعيها بطراقة بالغة ... فيرتفع حاجباهـــا ، وترنو عيناهـــا السوداوان الى الافق البعيد ... وصور لي انها تبعـــث على السخرية ، فانفجرت ضاحكا ... ولكن جريجوري حرك اصبعه في وجهي ، في حين رمقني جميع الكبار بنظرة تنم عن السخط والغضب .

صاح جريجوري ، وهو يضحك

ــ ابتعد ، يا ايفـــان !

فذهب تسيجانوك بطاعة غريبة وقبع في احدى الزوايا قريبا من الباب . وابرزت المربية يفجينيا حلقومها ، وراحت تنشد في صوت عميق رائع :

« لقد رقصوا منذ فجر النهـــار
وسرعان ما هجـــم الليل عدوا
وكادوا يطـــيرون عبر الفضاء
فولى نهارهـــم ، وانقضى ! »

وكان يلوح ان جدتي لا ترقص ، بل تحكي روايـــة ما . فهي تتحـــرك

ببطء وتأن ، تخطر من ناحية لاخرى ، وترنو الينا من تحت ذراعها المرفوعة، تضطرب في حركاتها ، مترددة ، وهي تتحسس طريقها بحذر واعتناء بالغين. ثم تقف لحظة وكأن شيئا قد اثار في قلبها الذعر على حين بغتـــة ، فيرتعش وجهها ويقتم لونه ، لتعود ملامحها فتضيء بعد قليل بابتسامـــة لطيفة نقية طاهرة ... ومن ثم تقفز ، على غير انتظار ، تفســـح الطريـــق لشخص لا نراه ، وتدفعه باليد بعيدا عنها ، ومن ثم تتوقف وتصغي ، مطرقة الراس ، ووجهها يشرق رويدا رويدا بابتسامة سعيدة ، كي تتفجر رقصا من جديد ، وبصورة مفاجئة وهي تدور كالعاصفة اكثر طولا وانتصابا وتناسقا منها في اى وقت مضى ، تشع منها جاذبية متوحشة في هذه اللحظات مـــن الشباب المبعوث حتى ليستحيل على المرء ان يرفع بصره عنها او يحيد ...

وكانت المربية يفجينيا ، اثناء ذلك ، تتابع ضجيجها ، كاحد الابواق :

وتبكي عليـــه مدامعهـــــا !
وتطرز ، طول الليالي ، الحرير
وتبذل ضعفـــا اصابعهـــا ؟
الـــم تر فاتنـــة الدار تذوي ،

واخذت جدتي مجلسها قرب السماور ، بعد ان انتهـــت من الرقص ، فشكرها الجميع وهنأوها ، ولكنها احتجت بتواضع ...

قالت ، وهي تصفف شعرها المشعث :

ــ كفى ، كفى ! انكم لم تشاهدوا في حياتكم راقصة حقيقية . كانـــت هناك فتاة ــ حيث كنت أعيش في بالاخنا ، ولقد نسيت اسمهـــا وابنة من تكون ــ لا يستطيع المرء الا ان يبكي فرحا عندما يشاهـــد رقصها . فيمتلىء قلبه بهجة لمجرد النظر اليها ، ولا يعود يرغب في شيء اخر مطلقـــا ! لكم كنت اغار منها ، انا الخاطئـــة !

واعلنت المربية يفجينيا بحدة ، وقد اخـــذت تغني شيئا عـــن « الملك داود » :

ــ ان المغنين والراقصين هم ملح الارض ...

فالتفت الخال ياكوف صوب تسيجانوك ، ووضع يده فوق كتفه ، وقال :

ــ يجب ان تعمل راقصا في مسرح ما ، فلا ريب انك ستبعث الغبطة في قلوب الناس .

فاجاب تسيجانسوك :
ــ افضل ان اغني ، لو يمنحني الله صوتا عذبا استمر في الغناء دون انقطاع طوال عشر سنوات . وعندئذ لا أبالي بما يحدث لي ــ حتى ولو اصبحت راهبا !

وشرب الجميع بعض الفودكا ، وخاصة جريجوري ...

حذرته جدتي : وهي تملأ له الكأس تلو الاخرى :

ــ انتبه يا جريجوري ، والا غدوت أعمى دون مراء .

فاجاب :

ــ وما اهمية هذا ؟ فلن احتاج الى عيني بعد الان ما دمت قد شاهدت كل شيء في هذا العالم .

ولم يسكر ، بل اخذ يزداد طلاقة لسان ، وهو يحدثني طوال الوقت عن والدي :

ــ لقد كان يملك قلبا كبيرا ! نعم ! كذلك كان صديقي العزيز مكسيم سافاتيفيتش !

فتنهدت جدتي ، ووافقت على كلامه :

ــ آه ، نعم ، لقد كان ابنا لله ...

فاثار ذلك كله فيّ اهتماما عظيما ابقى بي في حال من التوتر الدائم تبعث في قلبي شيئا من كآبة هادئة ، لطيفة ، غير متعبة فالكآبة والسرور يعيشان معا في قلوب الناس ، غير منفصلين ، يخلف أحدهما الاخر برشاقة خداعة غامضة .

وذات مرة اخذ الخال ياكوف ، ولم يكن على شيء كثير من السكر ، يمزق قميصه ، ويشد شعره ، وشاربه عديم اللون ، وانفه وشفته البارزة .

قال ، والدموع تنهمر من عينيه :

ــ لم ، آه ، لم ؟ يجب ان تكون الحياة على هذا الشكل ؟

ولطم بيده وجنته ، وصدره ، وهو ينشج طوال الوقت :

ــ انني شرير لا نفع في ! انني نفس ضائعة !

ودمدم جريجوري :

ــ آه ! ذلك صحيح !

فقالت جدتي ، وقد اسكرتها الفودكا قليلا ، وهي تمسك بيدي ولدها:

ــ كفى ، يا ياكوف ! ان الله العزيز ادرى منا بحاجاتنا .

كانت نفسها تطيب كلما تجرعت مزيدا من الفودكا ... وكانت عيناها السوداوان تصبان نورا دافئا على كل فرد منا ، وهي تروح وجهها المتورد بمنديلها ، وتقول في نغمة غنائيــة :

ــ اوه ، يا الهي ، يا الهي ! ما احلى الاشياء ! انظروا فقط الى روعة العالــم !

كانت هذه الصرخة تند عن قلبها ، وكانت شعار حياتها ابدا !...

اثارت دموع خالي وبكاؤه ، وهو اللامبالي عادة ، دهشتــي الى الحد الاقصى . فسألت جدتي لم يبكي ويشتم ويضرب نفسه ، فدمدمــت في شيء من النفور لم يكن ابدا من طبيعتهــا :

ــ يبدو عليك انك تود معرفة كل شيء ! رويدك قليلا ، لم يزل الوقت باكرا جدا لتدس بانفك في مثل هذه الامور !

هيج ذلك فضولي ... فدخلت المعمل ، ورحت اسال ايفان عن ذلك. ولكنه تجنب ، هو الاخر ، الاجابة على اسئلتي . وشرع يضحك بهدوء ، وهو يرنو الى المعلم بطرف عينه ، ويدفعني خارج المعمل . قال :

ــ كفى ! اطفح عني قبل ان ارمي بك في احد هذه البراميــل واصبغك باللون الاخضر اللامع .

كان المعلم يقف امام موقد واطيء عريض ، بنيت فيه ثلاثــة احواض للصباغ ، يحرك محتوى احدها بعصا طويلة سوداء ، ثم يرفع بهــا الملابس ويراقب الماء الملون المتساقط منها . وكانت النار المتاججة تنعكس على مئزره الجلدي المتعدد الالوان الذي يشبه ، الى حد بعيد ، ثوب الكاهــن الرسمي المزركش . وكانت مياه الصباغ تغرغر في الاحواض وتكركر ، بينمــا تنسل سحب من الدخان الحاد من خصائص الباب ، وتمتــد على طول الساحــة الشتائيــة ...

رنا جريجوري الي من تحت نظارتيه بعينين حمراوين ، ثــم التفت الى ايفان ، وقال بفظاظــة :

ــ الا ترى انني احتاج الى بعض الوقود ؟

وعندما خرج تسيجانوك راكضا ، جلس جريجوري على احد الاكياس

المصنوعة من خلاصة خشب الصندل ، واشار الي ، وقال :

ــ تعــال هنــا !

اجلسني على ركبتيه ، واجرى لحيته الناعمة الدافئــة على خدي ، واطلعني على اشياء لن انساها ما حييت :

ــ لقد ضرب خالك زوجته حتى قتلها ، وضمــيره لا يترك له فرصــة للسلام ، اتفهم ؟ حق لك ان تعرف كل شيء ــ ابق عينيك مفتوحتين ، والا هلكت بكل تأكيد .

كان كل شيء في جريجوري بسيطــا مثله في جدتــي ، ومع ذلك فهــو يرهبني ، ويبدو انه قادر على ان يستشف كل ما يعتلج في فكر الانسان وقلبه عندما يشخص اليه من تحت نظارتيه السوداوين .

وتابع حديثه قائلا بسرعــة :

ــ وكيف ضربها حتى ماتت ؟ اليك ذلك ــ كان يسحبها الى السرير ، ثم يلفها باللحاف من راسها حتى قدميها ، ويروح يضربها بوحشية ، ليلة تلو اخرى ، حتى توفت . ولم ذلك ؟هو نفسه لا يعرف لماذا ! . . .

ورجع ايفان يحمل شحنة من الحطــب ، وجلس القرفصاء بالقرب من النار يدفيء يديه ، لكن جريجوري تابع حديثه بصوت مؤثر ، دون ان يلقــي اليــه بــالا :

ــ لعله كان يضربها لانها افضل منه ، تثــير في نفسه الحسد منهــا ، ان آل كاشرين لا يطيقون شيئا جيدا ، يا صغيري . انهم يغارون منه ، ولما كانوا لا يستطيعون ان يحصلوا عليه لانفسهم ، فانهم يدمرونه . اسال جدتك كيف اقتلوا على ابيك حتى حرموه الحياة ، فهي ستخبرك عــن كل شيء ــ انها لا تستطيع الكذب ولا تفهمه . انها من طينة القديسين تلك الجدة ، رغم انها تجرع بعض الخمرة من آن لاخر ، وتحب سعوطها حبا جما . انها امراة قديسة ويحسن ان تلازمها ، يا صغيري . . .

دفعني عنه ، فخرجت الى الساحة مذهولا خائفا . ولحق بي فانيا ، عندما اجتزت العتبة ، وهمس في اذني وقد وضع يده فوق راسي :

ــ لا تخف منه انه من طينة طيبة . تطلع باستقامــة في عينيه . فهو يحب الذين يفعلون ذلــك .

كانت سائر الاشياء تثير القلق بشكل غريب . ورغم جهلي المطلق بكل اسلوب اخر للحياة ، فاني اذكر ، في كثير من الغموض ، ان امــي وابي كانا

يعيشان حياة اخرى مختلفة . كانا ينطقان بكلمات اخرى ، ويجيدان تسليات اخرى ، يقعدان ويسيران دوما جنبا الى جنب ، يلاصق كل منهمـا الاخر ولا يفارقه لحظة واحدة . وكانـا يجلسان ، في الامسيات ، الى احـدى النوافذ ينشدان بعض الاغنيات ، ويضحكان طويلا بصوت عالٍ ، حتى يتجمع الجيران مرهفين السمع اليهما . وانا اذكر ان وجوه اولئك الجـيران المرتفعة نحو النافذة كانت تذكرني بصحون مائدة الغداء الوسخة . غير ان الايـة تنعكس في هذا المكان ، فالقوم لا يضحكون الا في التدري ، وان فعلوا فانت تعجز عن الالمام بالسبب الذي يدفعهم الى الضحك . كانوا يزعقون في وجـه بعضهم بعضا ، ويهددون بعضهم بعضا ، ويتهامسون في الزوايا دون انقطاع . اما الصغار فيعتصمون بالصمت ويصعب تمييز احدهم عن الاخـر وهم لاصقون بالارض كالغبار . . وهكذا شعرت بانني غريب في جو ذلك البيت ، والحياة التي تحيط بي تخزني بمئات الابر ، وتستفز ريبتي ، وتجبرني على مراقبة كل ما يدور حولي بانتباه زائد . . .

وقد ترعرعت صداقتي لايفان كثيرا ، وجدتي مشغولة عني ، منذ الفجر حتى ساعة متاخرة من الليل ، باعمالها البيتية . وهكذا اصبحت اقضي اغلب ايامي وانا اخب في اعقاب تسيجانوك الذي استمر يحميني بذراعيه كلمـا جلدني جدي . ثم كان يريني اصابعه المتورمة في اليوم التالي ، وهو يقول :

ـــ لا جدوى من ذلك ! فهو لا يساعدك مطلقا . ومع هذا ، فانظر مـا يجره علي ! هذه هي المرة الاخيرة ـــ وفي المستقبل ستنال نصيبك بنفسك . .

ولكنه كان يتحمل ، عندما تسنح الفرصة ، العقاب الـذي لا يستحقه مرة اخـرى . .

ـــ لقد قلت انك لن تفعل ذلك ثانيـة ؟

ـــ لم اتعمد ذلك ،لكن وجدتني امد ذراعي ، هكـذا دون ان انتبه الى ما افعـل .

وقد عرفت ، بعد فترة من الزمن ، شيئا عن تسيجانوك زادني اهتماما به ، واخلاصا لـه .

كان تسيجانوك ، كل نهار جمعة ، يربط المهـر الخصي « ساراب » الاشقر اللون « وهو حيوان خبيث نبيث ذو اسنان جميلة لدى جدتـي » الى مزلجة للجليد ، ويلبس قبعة غريبة الشكل ، ويرتدي معطفا قصيرا من جلد الماعز يحزمه زنار متين اخضر اللـون ، ويمضي الى السوق ليبتـاع مؤونة

الاسبوع من الطعام . وكانت غيبته تطول احيانا ... وعندئـــذ يفقد الجميع رباطة جأشهم ، فياتون النافذة باستمرار وينفخون على الزجـــاج المتجمـــد ليلقوا نظرة على الشارع .

ــ هل عـــاد ؟

ــ كلا ، لم يعد بعـــد !

وكانت جدتي ، خاصة ، تتاسي الكثير من القلـــق ، فتقول لولديهـــا وزوجهـــا :

ــ يا للمصيبة ! ستسببون موت انسان طيب ، وحصان طيب . انتم في امس الحاجة الى ضمير حي ، ايتها المخلوقات المخجلة ! انكـم لا تكتفون ابدا بما كسبتموه . يا للعشيرة الغبية ، والعائلـــة الطماعـــة ! ان اللـــه سيعاقبكم جميعا ، وسترون ...

فكان جدي يعبث ويتمتم :

ــ اوه ، حسنا ! هذه هي المرة الاخيرة !

وكان تسيجانوك ، احيانا ، لا يعود الا بعد الظهـــيرة ، فيسرع جدي وخالاي حتى الساحة لملاقاته ، تلحق بهم جدتي وهي تنتشق سعوطها بغيظ ، وتهمهم كالدب ... وفي مثل هذه الاحوال كانت تبدو لي ، لسبب ما اجهله ، على كثير من السماجة والثقل . وينطلق الإطفال ركضـــا الى الساحـــة ، ويشرعون ، في بهجة عظيمة ، بتفريغ العربة مما فيها مـــن لحوم طازجـــة ، وطيور ، وسمك ، ومآكل من مختلف الانواع .

ويسالجدي ، وهو يلتهم العربة بعينيه الحادتين الصغيرتين :

ــ أجلبت كل ما اوصيناك بـــه ؟

فيجيب ايفان منشرح الصدر ، وهو يثب فوق الارض طلبـــا للدفء ، ويضرب يديه المتصلبتين ببعضهما ليبعث فيهما بعض الحرارة :

فيصيح جدي بغضب :

ــ مهلا ، يا صاح !... ان لقفازيك ثمنا . هل تبقى معـــك شيء من المـــال ؟

ــ كـــلا !

ويسير جدي ببطء حول العربة ، ويتمتم وهو يعود أدراجه :

ــ يخيل الي انك جلبت كمية كبيرة من السعـــوط مرة ثانية . ومـــن

المؤكد انك لم تحصل عليها بدون ثمن ! حذار من ارتكاب الفعـل نفسه في منزلي أيضا . أسامع انـت ؟

ثم يمضي بعيدا ، وقد قطب وجهـه ...

وعندها كان خالاي يندفعان ناحية المزلجة ، ويروحـان يقـدران وزن الدجاج ، والسمك ، والطيور ، وافخاذ لحم العجل ، وكتل اللحم ...

كانا يقولان ، وهما يصفران ويصيحان معبرين عن رضاهما :

ــ لقد اجدت الاختيار ، هذا رائع !

كان ابتهاج خالي ميخائيل يفوق حدود التصور . فهو يقفز حول العربة وكأنه يقف على عدة نوابض ، يستنشق بأنفه اشبـه بمنقار طـير « نقار الخشب » ويتلمظ بشفتيه ، ويضيق عينيه الهادئتين مغتبطا .

كان بخيلا كجدي ، يشبه غجريا متشردا . وكان يخفي يديه المتجمدتين في جيبيه ، ويسأل :

ــ كم تناولت من ذلك الشيخ ؟

ــ خمسة روبلات .

ــ ولقد كلف هذا ما يقارب الخمسة عشر روبلا على الاقل . كم صرفت من المبلـغ ؟

ــ اربعة روبلات وعشرة كوبيكات .

ــ وهكذا يتبقى في جيبك تسعون كوبيكا . ما ؟ اتسمع هذا ، يا ياكوف؟ هذه طريقة فريدة في الربح !

ويضحك ياكوف بلطف ، وهو يقف في ذلك الجو البارد بقميصه قصير الاكمام ، يطرف بعينيه الى السماء الزرقاء المتجلدة . كان يسأل ببطء :

ــ ما قولك في ان نتقاسم المال ، يا فانيا ؟

وتخلع جدتي عن الحصان اغطيته ، وتقول وهي تشتعل غيظا :
ــ ماذا ؟ يا حبيبي ، ماذا ، يا قطتي الصغيرة ؟ اترغـب في اللعب ؟

امض ، امض سريعا ! ان الله لا يمانع في قليل من التسلية ...

ويهز سارات الضخم ناصيته ، ويحك كتفها باسنانه البيض ، ثم ينتش وشاحها الحريري . ويرنو الى وجهها بعينين جذلتين ، ويصهل بعذوبة وهو يزعزع الجليد بضرباته .. وتسأله جدتي ، وهي تدفع بقطعة من الخبز الملح بين اسنانه ، وقد رفعت مئزرها تحت فمه تراقبة وهو يمضغ :

ـ اتريد قطعة من الخبز ؟

فيقول تسيجانوك ضاحكا :

ـ انه جميل ، هذا الخصي العجوز ! وهو سرتيع سبوح ، وذكي ايضا !

فتضرب جدتي الارض بقدمها ، وتصيح :

ـ اليك عني ! كفاك تدور حولي وتهز ذيلك . انت تعرف انني لا احبك في هذه الاوقات !

وشرحت لي ان تسيجانوك ، حين يمضي الى السوق ، يسرق اكثر مما يشتري من البضائع . قالت بصوت كئيب :

ـ يعطيه جدك ورقة من فئة الخمسة روبلات ، فيصرف ثلاثة منها ـ ويسرق ما قيمته عشرة روبلات . فهو يحب السرقة ، هذا الوغد ! وقد جربها مرة ، فنجحت ، فضحك جميع من في المنزل وامتدحوه . ولذلك اتخذها عادة. وقد عرف جدك الفقر والبؤس في ايام فتوته ، فجعله ذلك مقترا نوعا ما في شيخوخته . والمال عنده اعز عليه من اولاده . ويروق له كثيرا ان يحصل على شيء من لا شيء . اما ميخائيل وياكوف ...

وعبرت عن سخطها بحركة من يدها ، ثم صمتت لحظة ... وتابعت ، وهي تنظر الى داخل علبة سعوطها :

ـ ذلك شيء معقد ، يا اليوشا ، صنعته حيزبون عمياء عجوز فخرج من بين يديها مسحورا ؛ فلا عجب اذا لم نستطع ، انا وانت ، ان نميز له راسا من ذنب ... ولكنهم اذا ما قبضوا على فانيا مرة بجريمة السرقة ، فسيضربونه حتى الموت ...

وجنحت الى الصمت ثانية ، برهة وجيزة ، وعندما تابعت الكلام كان صوتها ناعما للغاية :

ـ ايه ! لدينا قوانين كثيرة ، لكن دون حقيقة تقوم عليها هذه القوانين، أو عدالة تتضمنها .

وفي اليوم التالي توسلت الى تسيجانوك ان يكف عن السرقة :

ـ سيضربونك حتى الموت !

فأطلق ضحكة سرعان ما كسفتها تقطيبة علت وجهه ، ونبر :

ـ ولكنهم لن يقبضوا علي ، ساهرب ! وانا خبيث ماهر ، وجوادي من الخيل السريعة . اوه ، انا اعرف ان السرقة جرم وامر خطر . وانا الجأ اليها لمجرد التسلية طالما اني لا ادخر شيئا من المال فخالاك ياخذانه مني في بحر الاسبوع . ولكنني لا أعني بذلك ـ فلياخذاه ، ما دمت احصل على كفايتي من الطعام .

ورفعني فجأة عن الارض ، وهزني بلطف :

ـ انت هزيل ضعيف ، لكن عظامك قوية . وستصبح شابا هرقلا . أصغ ، تعلم العزف على القيثارة ، واسأل خالك ياكوف ان يعلمك ذلك . انا لا امزح ! فانت صغير بعد ، وهذا هو البلاء ! طفل صغير ، ولكنك لطيف! واظن انك لا تحب جدك ، اليس كذلك ؟

ـ لست ادري .

ـ حسنا ، اما انا فلا احب احدا من آل كاشرين ، اللهم الا جدتك .. الشيطان وحده يستطيع ان يحبهم !

ـ وانا ؟

ـ انت لست من كاشرين ، انت من بشكوف ، وهذا دم اخر ، وعشيرة مختلفة .

وضمني اليه بلطف ، وقال وهو يئن :

ـ يا الله لو استطيع ان اغني فقط ! اذن لاوجعت القلوب بغنائي .

والان ، اليك عني ، يا اخي ... يجب ان اشرع في عملي .

أعادني الى الارض ، وزق قبضة من المسامير في فمــه ، وراح يسمر تحلما سودا مبتلة في لوح مربع كبير من الخشب ...

ولم يمض طويل وقت على هذا حتى مات ...

واليكم كيف حدث ذلــك :

كان صليب هائل من خشب البلوط ينتهي بقاعدة كثيفــة من الجذور يستند الى السور في ساحتنا ، قرب البوابة ، منذ زمن طويل ، حتى لاذكر انه لفت انتباهي يوم جئت استوطن ذلك البيت للمرة الاولى . كــان يومئذ جديدا اصفر اللون ، اما الان فاصبح اسود لكثرة ما تساقط عليه من امطار الخريف ، وفارقته الرائحة الحادة لاخشاب البلوط المنقوعة ، فهو يبدو شيئا زائدا عديم النفع في ساحة دارنا الصغيرة المفروشة بالاوساخ .

ولقد اشتراه الخال ياكوف ليرفعــه على قبر زوجتــه ، واقسم ان يحمله الى المقبرة على كتفيه في الذكــرى الاولى لوفاتهــا ... وصادفــت الذكرى نهار السبت ، في الايام الاولى من فصل الشتــاء . كانــت الريــح القارسة تناثر الثلج علينا من فــوق الاسطحة حــين مضى جدي وجدتــي والاحفاد الثلاثة الاخرون الى المقبره لحضور الجناز ، بينمـــا خرج الباقون جميعا الى الساحة وخلفوني وحدي في الدار عقابا لي على ذنــب سبق ان ارتكبتــه .

وارتدى خالاي معطفــين سوداوين متماثلين ، ورفعــا الصليــب عن الارض ، ووضعا ذراعه الواحدة على كتف احدهمـــا ، والثانية على كتــف الآخر . ورفع جريجوري ورجل غريب اخر ، بصعوبة جمة ، قاعدة الصليب الثقيلة والقيا بها على كتف تسيجانوك العريض ، فترنــح من ثقل الحمــل وباعد ما بين قدميه اتقاء للسقوط .

سال جريجوري :

ــ الا تستطيع حملــه ؟

ــ لست ادري . يظهر انه ثقيل جدا !

وزمجر الخال ميخائيــل :

ــ افتح البوابة ، ايها الشيطان الاعمى !

وقال ياكـــوف :

ــ الا تخجل من نفسك ، يا فانيا ؟ فكلانا اضعف منك بنية .. ولكـــن جريجوري استدار الى فانيا ، وهو يفتح البوابة ، ونبهه بحدة :

ــ احذر من ان تجهد نفسك ! حسنا ، كان الله في عونك !

فصاح الخال ميخائيل من الشارع :

ــ يا لك من احمق جربان !

فضحك كل من في الساحة ، وشرعوا يتحدثون بأصوات عالية ، فكأن نقل ذلك الصليب قد ابهجهم جميعا وصب السرور في قلوبهم .

وامسك جريجوري بيدى وقادنى الى المعمل . قال :

ــ لربما لم يجلدك جدك اليوم . يبدو انه حسن المزاج ...

اجلسني على قمة من الصوف مهيئة للصباغ ، واحاطنـــي به بلطف ، وراح يحدثني بتأمل وهو ينفخ البخار المتصاعد من الاحواض :

ــ عرفت جدك منذ سبعة وثلاثين عاما ، يا صغيري . ولقـــد شاهدت بداية هذه الاعمال ، وهانذا الان اشهد نهايتها . لقد كنا قبلا صديقين طيبين ــ شرعنا في العمل معا ، وهيأناه معا . ان جدك هذا لانسان حاذق ! انظر ، فهو يجعل نفسه القائد هنا ــ اما انا فلم اكن كفؤا لذلك . ولكن الرب اذكانا جميعا . يكفي ان يبتسم حتى يروح احكم الناس يفرك عينيه كالاحمق . أنت لا تعرف بعد شيئا عن لماذا وكيف . ولكن من الضروري ان تعرف كل شيء ، فحياة اليتيم شاقة . وقد كان أبوك مكسيم ساماتيفيتش الورقـــة الرابحـــة دوما ، فهو يفهم كل شيء . ولذا لم يحبه جدك ، ولم يتعرف عليه ....

كنت ابتهج بالجلوس والاصغاء الى مثل هذه الكلمات ، وانـــا اراقب النار الجامحة المتأججة الذهبية تتراقص في الموقد ، ودفقات البخـــار الابيض تنطلق من الاحواض ثم تتجمد على الواح الاسطحة المائلة . وشاهدت ، من خلال احد الشقوق المبثوثة في هذه الاخشاب ، شريطا أزرق من السماء يزهر

في خيلاء . وقد خمدت الريح الان ، واشرقت الشمس ، وبدت الساحـــة كما لو كانت مرشوشة بتراب من الزجاج الناعم . وكانت قرقعة انزلاق مركبات الجليد تدف من الشارع ، بينما يتموج دخـــان ازرق يتصاعـــد من مداخـــن البيوت ، وندب اخيلة منورة على الثلج وكأنهـــا ، هـــي الاخرى ، تـــروي اقاصيصها وحكاياتهـــا .

وبدا لي جريجوري الطويل ، المتعظم ، ذو اللحية الطويلة ، والاذنين العريضتين ، ساحرا لطيفا ، وهو يقف امامي حاسر الراس ، يحرك الصباغ الذي يغلي ، ويزودني بارشاداته :

ـــ تطلع في عيون الناس باستقامة دائما ، فاذا فعلت ذلك اضطر حتى الكلب المقتفى أثرك أن يقف في مكانه جامدا . . .

كانت نظارته الثقيلة تضغط على حافتي انفه ، مما جعل نهاية ذلك الانف تزرق ، فتشبه في ذلك انف جدتي . . .

ـــ ما هـــذا ؟

قال ، وقد نهض فجأة ، ثم اصغى برهة ، واغلق باب الموقد بقدمه ، وانطلق نحو الساحة وانا اقفز في أثره .

كان تسيجانوك يضطجع على ظهره في وسط المطبخ ، وشريطان عريضان من النور يمرقان من خـــلال النافذة فيقع احدهمـــا على راسه وصـــدره ، ويترامى الثاني على قدميه . وكان نور غريب يلمع على جبهتـــه ، وقد ارتفع حاجباه ، ورنت عيناه المنحرفتان الى السقف المملـــوء بالهبـــاب ، وراحـــت شفتاه السوداوان ترتجفان وتبعثان بزبد وردي اللون ، وخطان رفيعان من الدماء ينزان من زاوية فمه ويجريان على وجهه ورقبته ، ثم على الارض . والدم يتدفق بحرية من تحته . وكانت ساقاه تضطجعان بترهـــل ، وسرواله العريض يلتصق بالارض ، يبدو بوضوح وجلاء انه مبلول . وكانـــت الارض مفروشة بالرمل مما جعلها تلتمع كالشمس ، ونهيرات من الدمـــاء تتسابـــق ناحية الباب ، تتضوا ببهاء عندما تتصلب مع خطـــوط شعاعـــات الشمس المسترسلة .

كان تسيجانوك مضطجعا دون حراك ، ممدود الذراعين ، ينقر باصبعه

على الارض ، واظافره الملوءة بالونة الصباغ تشرق في الشمس البراقة

وجثت المربية يفجينيا الى جانب ايفان تحاول ان تضع شمعة في يده ، ولكنه لم يستطع الامساك بها ، فسقطت وانطفأت شعلتها في الدماء . وعادت المربية فالتقطتها ثانية ، ومسحتها بطرف مئزرها ، ثم حاولت مرة اخرى ان تضعها بين اصابعه المتحركة بدون هدوء . وكان المطبـــخ يغلي بهياج شديد دفع بي كالريح عن العتبة ، وكاد يرمي بي لو لم اتمسك بقبضة الباب .

قال الخال ياكوف في صوت لا رنة فيه وهو يهز راسه ، وقـــد بدا ــ هو الاخر ــ ضعيف البنيـــة ، متكرش الوجه ، تطـــرف عيناه المتكاسلتـــان باستمرار :

ــ لقد تعثر ! . . . لقد سقط ، فسحقه . . . ضربه على ظهره . وكاد يحطمنا نحن الاخرين ، لو لم نفلت في الوقت المناسب .

فقال جريجوري بصوت مبحوح :

ــ اذن ، فانتما اللذان سحقتمـــاه ! . . .

ــ ولكن ، ماذا تظن اننـــا ؟

ــ انتمـــــا ! . . .

ظلت الدماء تتدفق بحرية حتى شكلت بالقرب من الباب بحيرة صغيرة اسودت ولاحت انها ترتفع كالماء حينما يصطدم بسد منيـــع ، وتسيجانوك ملقى هناك يبعث بتلك الضوضاء التي يحدثها في نومه ، والزبد الوردي اللون يتابع جريانه من فمه ، وجسده يضمحل ويـــزداد تسطحـــا ، وينبسط على الارض كما لو كان يغوص فيهـــا .

همس الخال ياكوف :

ــ لقد امتطى ميخائيل حصانا ومضى الى الكنيسة يخبر والدنا ! امـــا انا فنقلبته على عربة واسرعت الى هنا . . حسنا فعلت اذ لم احمل القاعدة بنفسي ، والا فالام كنت ساصير ؟ . . .

وثبتت المربية ، مرة ثانية ، الشمعة في يد تسيجانوك ، وهي تساقط

الشمع والدموع على راحته ، فصاح بها جريجوري في خشونة :

ــ ضعي الشمعة على الارض قرب راسه ، ايتها الخرقاء !

ــ هذا صحيــح !

ــ انزعوا عنه قبعته !

نزعت المربية القبعة ، فضرب راس ايفان الارض محدثا صوتا اصم . واستدار راسه اثر ذلك ، فازداد تدفق الدم من فمه ، لكــن من جهة واحدة فحسب . واستمرت الحال هكذا زمنا طويلا مرعبا . ولم ادرك تمامــا ماذا حدث . . . توقعت ، بادىء ذي بدء ، ان تسيجانوك يأخذ قسطا من الراحة، وانه لن يلبث وينهض ويبصق كراهية ، ويقول بنغمته المعتــادة . تفو ! يا الحرارة ! كما اعتاد ان يقول دوما ، بعد ان يصحو من غفــوة الظهيرة ايام الاحاد . ولكنه لم ينهض ، بل ظل مضطجعــا هناك يــذوي ويــذوب شيئا فشيئا . . .

وانسحبت الشمس ، فقصرت شعاعاتها بحيث لم تبلغ ابعد من حفاف النافذة . واصبح لوجه ايفان ويديه لون قاتم ، وخمدت اصابعه عن الحركة، وتوقف الزبد عن الانصباب من فمه ، بينما كانت ثلاث شمعات تشتعل حول راسه تضيء شعاعاتها الذهبية كتل شعــره الازرق المسود ، وقمة انفــه الضيقة ، واسنانه المصبوغة بالدماء ، ثم ترمي بومضات متماوجة من انوارها فوق خديه الاسمرين .

واستمرت المربية تبكي الى جانبه وهي جاثية على قدميها ، وتهمس :

ــ آه ، ايتها الحمامة الصغيرة المسكينة ! لقد كنت عزاء حقيقيا !

كان الجو باردا مرعبا قارسا ، فتسللت واختبأت تحت الطاولة وساعتئذ دخل جدي المطبخ متثاقلا في فروته السوداء تتبعه جدتــي في معطفها السميك المطرزة ياقته باذناب صغرة ، ودخل معهما الخال ميخائيــل ، والاطفال ، وعدة غرباء . . . ورمى جدي فروته على الارض ، وصاح :

ــ يا لاولئك الاوغاد ! يضيعــون هكذا بمثــل هذا الفتــى ! خمس سنوات اخرى ويصبح يساوي ثقله ذهبــا !

: وآخفت الثياب الملقاة على الارض ايفان عن ناظري . فوقفت ، وانـــا اسعى للحصول على موضع آخر ممتاز ، بين قدمي جدي ، فركلنـــي جانبا وهو يهز قبضته الحمراء الصغيرة في وجه خاليّ :

ـــ ايها الذئبـــان !

ثم ارتمى على الدكة واطبق باصابعه عليهـــا في عنف ، وهو يغمغـــم ويجمجم في صوت اجش :

ـــ اوه ، انا اعرف ـــ لقد كان شوكة في حلقيكما ! آه ، يا فانيا ، ايها الولد المفتي ! ماذا نستطيع ان نعمل الان ؟ انـــا اسالك مـــاذا نستطيع ان نعمل ! ان الخيل غريبة ، واللجام مهترىء عتيق . . . انظري ، يا اماه ، فكان الرب لم يعد يحبنا في هذه السنوات القليلة الاخيرة ! اليس كذلك ، يا ام ؟

فانطرحت جدتـــي على الارض بالقرب مـــن ايفان تتحسس وجهـــه ، وراسه ، وصدره ، وتنفخ في عينيه ، وتمسك يديه وتفركهما . . . فاطاحت في اثناء ذلك بالشمعات كلها . ونهضت اخيرا على قدميها تشبه صورة سوداء قاتمة ، وثوبها الاسود يلمع ، وعيناها السوداوان تقذفان شررا هائلا مخيفا، وهي تقول في صوت خنيض :

ـــ اخرجوا من هنا ، يا ملاعين

فاختفى الجميع عدا جدي . . .

وثوى تسيجانوك ببساطة ، دون ان يسترعي ادنى انتباه . . .

٤

كنت اضطجع في سرير عريض ، ملتفا بلحاف ثقيـــل يحيط بي من كل جانب ، اصغي الى جدتي تصلي . . . كانت تجثو على ركبتيهـــا ، وتضغط صدرها باحدى يديها ، وترسم بالثانية ـــ من وقت لاخر وبدون اي اسراع ـــ اشارة الصليـــب .

وكانت قرقعة تكسر اللبد وراء النافذة تبلغ سمعـــي ، ونور القمـــر

المخضر يرنو من خلال السجف المزركشة التي تغطي زجاج النافذة ، فيضيء بأنواره الفسفورية ذلك الوجه اللطيف بانفه البارز ، وعينيه السوداوين . وكان غطاء الراس الحريري الذي يخفي شعر جدتي بشع كالمعدن ، وثوبها الاسود يتدلى عن كتفيها بثنيات متبدلة تكومت على الارض تحف بها من كل جانـــب .

وحين كانت تنتوي مـــن تـــلاوة الصلاة ، تنضو عنها ثيابها في صمـــت وتضعها بعناية على صندوق الملابس القائم في زاوية الغرفة ، ثم تقترب من السرير ، فأتظاهر بالنوم .. وتقول بهدوء :

ــ كفاك تصنعا ، ايها الخبيث الصغير ! انت لست بنائم ! ليس الان، اليس كذلك أيها الطير الصغير ؟ هيا ، دعنا نصيب شيئا من هذا اللحاف .

كنت ادرك ما سيتبع ذلك ، ولذا لا استطيع الامتناع عن الابتسام ..

وتصيـــح :

ــ آه ، انك تود ان تعمل من جدتك ملهاة ، اليس كذلك ؟

وتمسك بحافة اللحاف وتشده اليها بقوة ومهارة عظيمتين بحيث ارتفع كالصاروخ في الهواء ، وانا ادور حول نفسي . ثـم أعود ثانية الى السريـــر الريشي ، في حين تنفجر هي في عاصفة من الضحك :

ــ خذها ، أيها الجني الصغير ! انك تستحقهـــا !

كانت تصلي طويلا في بعض الاحيان ، فأنام دون ان انتبه اليهـــا عندما ترد السريـــر ...

كانت أيام المتاعب والشجار والقتال تنتهي دوما في مثل هذه الصلوات الطيبة ، فكنت أصغي بانتباه واهتمام الى جدتي تحدث الرب بكـــل تفاصيل حوادث النهار . كانت تجثو كالهرم ، وتبدأ صلاتها بهمس سريع مبهم ، يعلو شيئا فشيئا حتى يصبح دمدمة عميقة :

ــ انت تعرف ، يا الله ، ان كل انسان يسعى وراء مصلحته الخاصة، وذلك أمر طبيعي جدا . ان ميخائيل الان هو ولدي البكـــر ، فعليه يقع اذن

واجب البقاء في البلدة هنا ـــ وانها لاساءة اليه أن يبعث بـــه عبر النهر الى مكان جديد لم يختبره أحد من قبل ، وليس من يدري كيف يمكـــن ان يخرج منه . ولكن الاب يفضل ياكوف عليه . أمن العدل ان يحب الاب اولاده بصورة غير متساوية ؟ انه خلوق عنيد ، ذلك العجوز ! وانك لتعمـــل خيرا ان وهبته بعض العقل ، يا الهـــي !

كانت تشخص الى الايقونات المظلمـــة الدامسة بعينيها الواسعتـــين البراقتين ، وهي تتابع تقديم نصائحها لالاهها الذي تعبده .

ـــ هلا جعلته يحلم حلما طيبا ، يا الهي ، فتعلمه كيف يقسم حبه بين ولديه بصورة متساوية عادلة !

وكانت ترسم اشارة الصليب ، ثم تنحني حتى تمس جبهتهـــا العريضة السجادة ، ومن ثم تعاود كلامها باقتناع ، وهي تنهض :

ـــ ولم لا ترسل من لدنك لفارفارا قليلا من الفرح ؟ مـــاذا فعلت حتى تغضب عليها ، يا الهي ؟ اهي اسوأ من الاخرين ؟ ومن سمع عن امراة صبية قوية تعيش في مثل هذا البؤس ؟ وثم جريجوري يا الهي ـــ احفـــظ له عينيه اللتين تسوءان يوما بعد يوم . فان هو امسى فاقد النظر ، فمـــاذا يتبقى له سوى التسول في الطرقات ؟ وهل يكون ذلك من العـــدل في شيء ؟ هو الذي يفني قوته كلها في أعمال ذلك الجد . . . ولكن ، هـــل يساعده الجد أن فقد النظـــر ؟ . . آه يا الهي ، يا الهي العزيز !

ثم تظل صامتة برهة طويلة ، وقد احنت رأسهـــا ، وارخت ذراعيهـــا وكأنها غرقت في النوم ، او تصلبت اطرافها وتجمدت . . . وتقـــول اخيرا ، وهي ترف بجفنيهـــا :

ـــ وماذا ايضا ؟ كن رحوما بكل الاتقياء ! وسامحنـــي ، أنـــا الحمقـــاء الملعونة ! انت تعرف جيدا انني اذا ارتكبت الخطيئة فعن حماقة ، وليس عن خبث وتعمد للشر .

ثم تند عنها تنهدة عميقة ، وتقول بقناعة لطيفة :

ــ ولكن ، ليس هناك شيء يخفي عليك ، يا الهي العزيز ! فانت تعرف كل شيء ، ايها الاب المجـــد !

كنت مولعا جدا باله جدتي ، هذا الذي يبدو قريبا وعزيـــزا لديها ... وكنت اقو لـلهـــا :

ــ حدثيني عن اللـــه ...

كانت لها طريقة خاصة في التحدث عنه ، فتجلس ، وتغلق عينيهـــا ، وتتحدث بصوت مخفوض ، وهي تتفوه بكلماتها بغرابة فائقـــة . وما زلت اذكر ، حتى الان ، كيف كانت تستعد لذلك ، فتقتعد السرير ، وترمي بمنديل على راسها ، وتأخذ بنسج قصتها الخيالية حتى ابخبخ في النوم :

ــ ان الله يجلس هناك فوق هضبة عالية ، محوطا بجنان الفردوس.. انه يقعد على عرش من الياقوت تحت أشجار الصفصاف الفضية ، اشجار تظل مزهرة طوال السنة ، لانه ليس في الفردوس شتـــاء ، ولا خريف ، بل تبقى الورود مبرعمة دوما على مر السنين ، تجلب الغبطة لاتقياء السماء . وحول الرب يطير حشد من الملائكة ــ يحومون كقطع كثيفة مـــن الثلج ، أو كجماعات من النحل ــ بل قل انهـــا اسراب من الحمـــام الابيض تطـــير من السماء الى الارض ، ثم تعود من الارض الى السماء لتحدث الله عنا ، نحن المخلوقات التي تعيش في العالم الاسفل .. ان لكل منا ملاكه الخاص ــ فلك ملاكك ، ولي ملاكي ، ولجدك ملاكه ــ لان اللـــه سواء بالنسبة الى جميـــع مخلوقاته ... يأتي ملاكك مثلا الى الرب ، ويقول لـــه :

« ان الكسي أخرج لسانه لجده .

« وعندئذ يصدر الرب أوامره :

« ــ فليجلده الرجل الشيخ اذن !

« وهذا ما يحصل لكل فرد ولكل شيء دون تفريق .. كل ينال حسب ما يستحق ــ التعاسة للبعض ، والفرح للاخرين . وكل هـــذا يحدث بشكل رائع بحيث تأخذ الملائكة تصفق باجنحتها بسرور ، وهي ترتل دوما :

« المجد لك يا الله ، المجد لك في العـــلا !

« بينما يتطلع الله حوله ، وهو يبتسم ، وكانه يقول :

« ــ حسنا ، تابعي انشادك ايتها الملائكة الجميلة ما دام ذلك يسرك!».

وتبتسم جدتي ، وهي تهز راسها ...

ــ ارايت هذا كلــه ؟

فتجيب مؤكدة :

ــ كلا ، انا لم اره . ولكنني اعرفه ...

كانت ، كلما تحدثت عن الله والفردوس والملائكة ، تغدو صغيرة انيسة، يفقد وجهها آثار الشيخوخة ، وتلتمع عيناها النديتان بنــور دافيء خاص ، فاتناول ضفائرها الثقيلة والف بها عنقي ، وانــا اجلس دون حراك ، يرقص قلبي طربا لتلك الاقاصيص التي لا اشبع منها ابدا .

ــ لقد حرم على الفانين رؤية وجه الله ــ كيلا يصابوا بالعمى ... والقديسون وحدهم يستطيعون ان يروا اليه بعيون مفتوحة . ولكنني رأيت الملائكة ، فهم يظهرون للانسان الطاهر القلب . لقد كنت في الكنيسة احضر خدمة الصباح ، فرايت اثنين من الملائكة في الهيكل ــ كانا يشبهان الضباب ــ تستطيع ان ترى كل شيء من خلالهما ، يلمعان كالبرق ، واجنحتهما تبلــغ الارض ، كلها دنتلة وحرير . وراحا يــدوران حول المذبــح يساعدان الاب العجوز ايليا ، فاذا اراد رفع ساعديه المتعبين للصلاةاسرعا لمعونته وسندا مرفقيه . كان شيخا ضريرا ، حتى ليتعثر بكل شيء ، ثم مات بعد ذلك بزمن قصير . ولقد اغتبطت كثيرا برؤيتي لهما حتى صعقت مــن الفرح ، وآلمني قلبي كثيرا ، وتخلصت عيناي بالدموع ... آه ، كم كان ذلك رائعا ! لكم هو جميل ايضا كل شيء هنا على الارض !

ــ حتى هنا ، في بيتنا هذا ؟

فاجابت جدتي ، وهي ترسم اشارة الصليب :

ــ نعم ، في كل مكان ! المجد للعذراء البتول !

حيرني ذلك الجواب ، وادهشني ، وصعب علــي جدا ان افهم كيــف يسير كل شيء على ما يرام في بيتنا ، حيث تزداد العلاقــات سوءا وتوترا يوما بعد يــوم .

وانا اذكر انني مررت بالقرب من باب غرفــة خالي ميخائيل ، وكــان مفتوحا ، فرايت الخالة ناتاليا ، مجللة بالبياض ، تدور في الغرفة وقد ضمت

يديها بقوة الى صدرها ، وهي تهتف بصوت مخفوض ينبعث على الخوف والرهبة :

أواه يا الهي خلصني من هنا خذني اليـك

ولقد فهمت ما تريد بصلاتها ، كما أفهم جريجوري عندما يغمغم :

ـ سأمضي واتسول عندما اصبح اعمى . وسأكون عندئذ أفضل منى هنـا !

كنت أود أن يصبح أعمى في أقرب وقت حتى أضحي دليله ، فنذهب معا لنجوب العالم ، نتسول لنعيش ونحيا . ولقد أفضيت له ذات يوم بأمنيتـي هذه ، فضحك في لحيته وقـال :

ـ حسنا ، سنذهب معا . وسأصرخ في الشوارع بحيث يسمعني جميع الناس : هذا هو حفيد فاسيلي كاشرين ، صاحب معامل الصباغ ! وسيكون ذلك مضحكا ، ايـه ؟

وكثيرا ما لاحظت تورما في شفتي العمة ناتاليا ، وعلامة سوداء وزرقاء تعلو وجهها الاصفر اللون . فسألت جدتي مـرة :

ـ ترى أيضربها خالـي ؟

فأجابت ، وهـي تتنهـد :

ـ انه يفعل ذلك خفية ، لعنة الله عليه ! لقد منعه جدك عن ذلك ، ولذا فهو يضربها ليلا . انه شرير ، وهي جبانة .

ثم تتابع الحديث ، متحمسة لقصتها :

ـ ولكنهم لا يضربون في هذه الايام كما اعتادوا ان يفعلوا في الماضي . لقد غدا الناس اليوم اقل منهم وحشية بالامس ! نعم ، انهم يضربون في بعض الاحيان على الاسنان ، او الاذان ، او الرأس ، مـدة دقيقة او دقيقتـين ، وهذا كل شيء . . . ولكنهم كانوا قليلا يعذبون ضحيتهـم طوال ساعـات كاملة ! لقد ضربني جدك مرة ، في اليوم الاول من الفصح ، منذ صلاة الصباح الباكرة حتى غروب الشمس ـ كان يضربني ، ويأخذ قسطا من الراحة ، ثم يعود الى الضرب ثانية . . وكان يضربني بلجام الفرس ، او بالحبال ، او بأي شيء اخر يقع في متناول يده .

ــ ولــم ذلــك ؟

ــ لا استطيع أن أتذكر الان . لقد ضربني مرة حتى أمسيت نصف ميتة، ثم حرمني من الطعام خمسة أيام ــ وبأعجوبة نجوت من الموت في تلك المرة. ومرة اخــرى ...

اذهلتني هذه الوقائع ، فان جدتي تكبر زوجهــا مرتين حجما ، ولــم استطع ان أتصور كيف يتغلب عليها ... سألت :

ــ اهو اقوى منك كثيرا ؟

ــ كلا ، ليس اقوى ! بل اكبر سنا ! والى جانب ذلك فهو زوجــي ! وقد اراده الله ان يتكفل بي ، واراداني على تحمل ذلك .

كنت احب ان اراقبها تمسح الغبــار عن الايقونات وتنظــف ثناياها . كانت أيقوناتنا متقنة الصنع ، غالية ، مزخرفة باللالىء والاحجار الكريمة ، ومرصــعة بالفضة . وكانت جدتي تقبض عليها بأصابع ماهرة ، وتغمغم وهي ترسم اشارة الصليب وتقبل الصور :

ــ يا لها من وجوه حلوة ! كيف يمكن للغبار والاتربة ان تغطيها ؟ يا أم الاله الكثيرة الحنان ، الفائقة البركات المجيدة ، يا منبع الغبطة التي لا توصف! انظر هنا فقط ، لكم هو جميل هذا الرسم ، يا اليوشـا ، يا حمامتي الحبيبة ! انها وجوه لطيفة ، ولكل ميزاته الخاصة ... فهذا يدعى « العــيد الاثني عشرى » ، وهذه « فيودورفسكيا » تقف في الوسـط ــ انها سيــدة لطيفة وهذه « لا تبكي يا اماه بالقرب من قبري ! » .

كان يخيل الي ، في كثير من الاحايين ، انها تلعــب بالايقونــات بجــد وسذاجة ، تماما كما كانت تفعــل ابنة خالــي الصغيرة كاترينــا بدمياتهــا الناعمــة ..

وكثيرا ما كانت ترى بعض الشياطين ، أن افرادا أو جماعات ...

ــ حدث ذلك في احدى الامسيات اثناء الصيــام الكبير ، وانا اقطــع الدرب قرب منزل آل رودولف ــ كان كل شيء يلمع في ضوء القمر .. وعلى

حين غرة ، بصرت بشيطان يتسلق السطح بالقرب من المدخنة . كان كبيرا خشنا ، وقد دلى قرنيه داخل المدخنة ، وهو يتنشق وينفخ بمنخريه ، ويضرب بذيله على السطح ، ويحاول ان يخفي أذنيه الكبيرتين ، فرسمت اشارة الصليب ، وقلت : « سينهض المسيح ثانية ليميت أعداءه جميعا ! » فصرخ فجأة بصوت عال ، ثم تدحرج حتى الساحة ، لقدقتله ذكر المسيح ! ومما لا ريب فيه ان عائلة رودولف لم تلتزم الصيام ذلك النهار ، فكان الشيطـــان يستنشق رائحة الطعام المطبوخ مغتبطـــا ...

راقت لي صورة الشيطان يتشقلب حتى الساحة فانفجـــرت ضاحكا ... وضحكت جدتي بدورها ، وتابعت :

ــ وانهم ليحبون ، مع ذلك ، اللهو واللعب ، فهم اشبه بالاطفال الصغار تماما ، خبثا ، يتعشقون المداعبة . وقد حدث ذات ليلـــة ، وانا اغسل في حمام المنزل ، والساعة تقارب منتصف الليل ، أن فتح بـــاب الموقد بغتـــة وخرجت الشياطين منه ــ صغارا اقزاما ــ بعضهم أحمر اللون ، وبعضهم خضر ، وبعضهم اسود كالصراصير ... فركضت أبغي البـــاب ، ولكنهم لم يتركوني اجتازه ، فقد سدوا الطريق علي ! وهكذا أصبحت حبيسة مع اولئك الشياطين ، وكانوا يعدون بالملايين ، يملأون غرفة الحمام ــ متراكمين تحت قدمي ، وفوق ساقي ، يقرصونني ، يعضونني ، ويلدغونني ، حتى لم اعد استطيع ان ارسم اشارة الصليب لارغمهم على الهرب . لقـــد كانوا ناعمين دافئين ، يغطيهم وبر طويل ، يشبهون في ذلك القطط الصغيرة ، يقفزون دوما على ارجلهم الخلفية ، يـــدورون ويتقلبـــون على الارض ، ويكشرون عـــن اسنانهم الشبيهة بأسنان الفيران ، تومض اعينهم الصغـــيرة الخضر ، وهم يموجون رؤوسهم حيث برزت قرونهم ، ويهزون اذنابهم الصغيرة الشبيهـــة بأذناب الخنازير ... يا الهي ، اية ساعـــة قضيتها يومـــذاك ! لقد فقـــدت نعم فقدت شعوري ! وعندما استعدت صوابي كانت الشمعة قـــد احترقت كلها تقريبا ، والمياه قد بردت ، والثياب المغسولة ملقاة على الارض . فقلت في نفسي : « تفو ! .. اخذك الطاعون ، ايتها الشياطين اللعينة ! » .

واغمضت عيني ، فاستطعـــت ان ارى الى باب الموقـــد ذي الحجـــارة

الرمادية اللون ينفتح ، ويتدحرج منه سيل من الشياطين يتقلبون على الارض ويملأون غرفة الحمام ، ينفخون على الشمعـة ، ويمـدون السنتهم الحمراء الوسخة . كان ذلك مسليا ومرعبا في وقت واحد .

حكت جدتي راسها ، وظلت صامتة برهة ، حتى استولت عيلها حمى جديدة من الخيال :

— ولقد شاهدت ايضا بعض الذين حلت عليهم اللعنة . كان ذلك في ليلة شتائية شديدة الاعصار ، وانا اجتاز خندق عائلة دوكوف ، حيث أراد خالاك ميخائيل وياكوف ، كما اخبرتك مرة ، ان يرميا والدك الى الماء من فوهة في الجليد ، كنت ، اذن ، ذاهبة الى هناك ، وانا اقطع الممر المفضي الى قاع الخندق ، فاذا بي اسمع فجأة صوت صفير وصراخ حاد ! فتطلعـت ، فلقيت عربة صغيرة تجرها عدة جيـاد سوداء تعـدو في اتجاهي ، وقـف سائقها — وهو شيطان صغير مدور الجسم يلبس قبعة حمراء — على كرسيه مادا ذراعيه ، وراح يسوق الخيول التي يربط لجامها بعـدة سلاسل صغيرة بدلا من العنان . ولما لم تستطع الخيول ان تمر عبر الخندق ، اخـذت طريق البحيرة مثيرة سحابة من الثلج وراءهـا ... وكـان ركاب العربـة مـن الشياطين ايضا ، يصفرون ، ويصيحون ، ويلوحون بقبعاتهم .. وقد مرت بالقرب مني سبع عربات تسرع كالقطار ، وخيولها سوداءَ ماجمة كالليل ، وجميع الذين تحملهم قوم ملعونون من ابائهم وامهاتهـم ! ان هؤلاء القـوم غنيمة باردة للشيطان ، فتش عنهم ، واركبهم تلك المربـات ، وسار بهـم اثناء الليل ليشركهم في احتفالاته ... اظن اني شاهدت عرسا للشياطين في ذلك المساء ...

كانت جدتي تتحدث ببساطة واقتناع بحيث يستحيل عدم تصديقها ... ولكنها كانت تتجلى خاصة في القصائد التي تحفظها عن العذراء الطاهرة ، والتي تروي كيف سارت ام الاله فوق الطريق الشائكة في هذا العالم لتحذر « الاميرة اللصة » ، نيجاليشفا وتردعها عن السرقة وقتل الروسيين . وكانت تنشد ايضا شعرا عن « الكسي رجل الله » وعن « ايفان المحارب » ، وتروي قصصا عن « الحكيمة فاسيليا » ، وعن « الكاهـن تيس الماعز » ، وعـن « ربيب الله » ، وخرافات مخوفة عـن « مارفا بوسادنيتـري » ، وعـن

« بابا اسطه » زعيم اللصوص ، وعن « مريم » الخاطئة المصريــة ، وعن حزن والدة اللص » ! . لقد كانت مؤونتها من القصص والخرافات والشعر لا تنضب البتة ولا ينقطع لها اوار ...

لم تكن تخاف من الناس ، بما فيهم جدي ، او الشياطين ، او اي سحر اسود آخر ... لكنها كانت تخاف الصراصير الى حد غريب ، تتجنب وجودها حتى عن بعد بعيد .. وكانت تبعثني من النوم ، في اغلب الاحيان ، في منتصف الليل ، وتهمس في اذني :

ــ يا عزيزي اليوشا ،هناك صرصار يسرح ! اقتله ، حبا بالمسيح !

فكنت اشعل الشمعة ، وانا نصف مستيقظ ، وادب على الارض ، على اربع ، افتش عن ذلك العدو اللدود . ولكن محاولاتي لم تكن تنجح دوما ، فاقول لهــا :

ــ لم اجد شيئــا !

فتروح تلك حيث تضطجع دون حراك ، ثم تغمر راسها باللحاف :

ــ اوه ، نعم انه موجود ! تابع صيدك ، ارجوك ! انه هناك ، انــا اعرف ذلــك ؟...

كانت على حق دائما ، اذ اقع على احد الصراصــير تجول بعيدا عن السريــر :

ــ اقتله ! اقتله ؟ آه ، شكرا لله !، وشكرا لك ، يا غرامي !

كانت تقول ذلك ، وترمي اللحاف عن راسها ، وهــي تبتسم ابتسامة السعادة والغبطة . اما اذا اخفقت في العثور على الصرصار ، فهي لا تذوق اذن طعما للنوم على الاطلاق .

كنت احس جسدها يرتعش بوضوح في سكون الليل وهدأته ، واسمع الى همسها وهي تتنفس بضعف ووهن :

ــ انه هنالك ، قرب الباب ... هو الان تحت الصندوق ...

ـــ لم تخافين من الصراصير ؟

فتقول ، في جوابها ما يكفي من الاقتناع :

ـــ واية فائدة لها ؟ انها تهيم هنا وهناك في الغرفة . هــذه الشياطين السّود ، وهذا كل شيء ! لقد اعطى الله ، حتى لادنى مخلوقاته ، هدفا في الحياة . فالخنفساء تدل على ان في البيت رطوبة ، والبق يبرهن على وساخة الجدران ، واذا ما عثرت على قملة فيطيات ثيابك فهذا يعنــي انك ستقع مريضا . كل هذا واضح ، اما هي ـــ فمن يستطيع ان يخبرني ما هي فائدتها، واي حق لها في الحياة ؟

• • •

حدث ذات ليلة ، بينما جدتي جاثية على ركبتيها ، مشتركة مع الله في حديث حماسي ، ان دفع جدي الباب علىمصراعيه ، وصاح بصوت اجش :

ـــ هيا يا اماه ، انه افتقاد من الله ! هيا ! . . . اننا نحترق !!

فصاحت ، وهي تناضل للوقوف على قدميهــا :

ـــ مـــاذا ؟

واندفعت وجدي يصخبان في ظلمة الرواق الفسيح . . .

شرعت تصدر اوامرها بصوت مال رزين :

ـــ انزلي الايقونات ، يا يفجينيا ! وانت يا ناتاليــا ، البسي الاطفــال ثيابهــم !

وبكى جدي ، وطفق ينوح :

ـــ آه ـــ ه ـــ ه ! . . .

فركضت حتى المطبخ . . . كانت النوافذ المطلة علــى الساحة تلتمــع كالذهب ، وبقع صفر تتدحرج على الارض وتسيل ، والخــال ياكوف يدفــع بقدميه الحافيتين في حذائه ، ويقفز عاليا كأن تلك البقع تحرق نعليه . . صاح:

ـــ آه ، وان ميخائيل قد اضرم النار . لقد شغلنا بها وهرب . . .
فدفعته جدتي خارج الباب حتى كاد يسقط على الارض ، وقالت :
ـــ صه ، ايها الوغـــد ؟
كنت استطيع ان ارى ، من خلال الجليد الذي يغطي زجاج النوافذ ، الى المعمل وهو يحترق ، والى السنة النيران تنطلق من خلال الباب المفتوح على المصراعين . وهذه شهب حمر من النار تلتمع ، وهـــي تبعث دخانهـــا الاسود في ذلك الليل الساكن فيتجمع غيوما تعلو وتعلو في الفضاء ، دون ان تعكر آثار « درب التبان » الفضي . وهذا الثلج يتورد بانعكاس الشعاعات الارجوانية عليه ، وجدران المنزل تهتز وتترنح فكأنها تسعى مبتهجة الى زاوية الساحة حيث تلعب النار ، فتضيء بالحمرة الشقـــوق العريضة القائمة في جدران المعمل ، وتدفع بالسنتها اللامعة الملتوية من خلالها . وهـــذه شرائط حمر ذهبية تنزلق بسرعة فوق اخشاب السقف الجافة ، تضيع بينها المدخنة الضيقة المصنوعة من الصلصال وهي تصب في الجو ينبوعا رفيعا من الدخان، وطقطقة ناعمة لطيفة ، اشبه باحتكاك الحرير ، تند عن زجاج النافذة . وقد شرعت النار تشتد ، وراح رونقها يضيف على المعمـــل جمالا يجعلـــه اشبه بالايقونسطاس في الكنائس ، فيجذبني اليه بقوة لم استطع مقاومة لاغرائها وفتونهـــا .
رميت معطفا سميكا من جلد الماعز فـــوق راسي ، ولبست اول حـــذاء وقعت عليه ، ثم اسرعت في الممر حتى عتبة الباب حيث وقفـــت مذهولا ـــ وقد غشي بصري لهيب النيران ، وصم سمعي صوت تأججهـــا ، وصيحات جدي ، وخالي ، وجريجوري . . . وارتعت من تصرف جدتي ، اذ القت بكيس فارغ على راسها ، ولفت نفسها بحـــرام سميك نكسو بـــه الخيـــل عادة ، واندفعت داخل المعمل المتأرث وهي تصيح وتزعق :
ـــ حامض الكبريت ، ايها الحمقى ! ان حامض الكبريت سيلتهب !
وصاح جـــدي :
ـــ اوقفوها ، يا جريجوري ! اوه ، لقد قضي عليها ! . .
ولكن جدتي رجعت سريعا ، والدخان ينعقد فوق راسهـــا ، وقد انحنت تحت ثقل اناء حامض الكبريت الكبير . وصاحت بصوت اجش ، وهي تسعل:
ـــ اخرجوا الحصان ، يا ابتاه ! واسحبوا هذا الشيء عنـــي ـــ الا ترون انني احترق ؟

، فانتزع جريجوري حرام الحصان المحترق عن كتفيها ، ثم اختطف معولا راح ينهش الكمية الضخمة من الجليد المتراكمة على باب المعمل ، ويلقي بها في جوف النار ، وخالي يقفز حواليه وفي يديه فأس كبيرة . وانطلق جدي في اعقاب جدتي يرميها بالثلج ، وهي تدفن اناء حامض الكبريت في كومة من الجليد . وعندما انتهت ، اسرعت تفتح بوابة الساحة ... وصاحت هناك ، وهي تنحني للناس الذين قدموا اليها يركضون :

ــ انقذوا مخزن الغلال ، ايها الجيرة ! ان النار ستمتد حتى مخزن الغلال ومخزن العشب المجفف ــ ان ما بنيناه سيحترق عن آخره . وسيجيء دوركم بعدنا . انزعوا السقف وارموا الاعشاب داخل الحديقة ! وانت يا جريجوري ، انثر الثلج عاليا ــ فاي نفع فيه على الارض ؟ وانت ياياكوف ، كفاك ركضا ، اعط القوم معاول وفؤوسا ! ايها القوم الطيبون ، ساعدونا ، وليكن الله معكم !

كانت جدتي وقد اضاءتها شعلات اللهب التي تلوح امامها ، تتجول كخيال اسود في الساحة ، فهي في كل مكان في تلاحظ كل شيء وتصدراوامرها للجميع على حد سواء .

وركض شاراب داخل الساحة ، ثم شب على قائمتيه الخلفيتين ، فطرح جدي بقدميه على الارض ، كانت عيناه المدورتان تشعان حمرة بانعكاس لهيب النيران فيهما . وراح يقفز ، وهو ينفخ بمنخريه ، ويحرن ، ويشب في عنف حتى افلت له جدي اللجام وابتعد عنه هاربا ، وهو يصيح :

ــ امسكيه ، يا امـــاه !

فرمت جدتي بنفسها تحت قوائم ذلك الحصان الجامح ووقفت دون حراك ، وقد فتحت له ذراعيها . فصهل الحصان متألما وهدأ ، وهو يرنو بنظرات مسترقة الى النار الداخنة . قالت جدتي في صوت عميق ، وهي تربت على رقبته وتأخذ اللجام بكلتا يديها :

ــ لا تخف ! اتخلى عنك في مثل هذه اللحظة الرهيبة ؟ انت ، ايها الفأر الصغير الطائش ؟

فراح ذلك الفأر الذي يكبرها بثلاث مرات يتبعها بلطف وخنوع حتى

البوابة ، وهو يصهل كلما تطلع الى وجهها المتورد .

وخرجت المربية يفجينيا مع الاطفال من المنزل ... كانـوا ، جميعا ، مدثرين بالاحرمة يدمدمون باشياء غير مفهومة ... صاحت :

ــ اني لم استطع العثور على الكسي ، يا فاسيلي فاسيليفيتش !

فأختبأت تحت درجات الباب حتى لا تحملني بعيدا مع الاخرين ، في حين صاح جدي بهـا :

ــ دعينا ، دعينـا !

وانهار سقف المعمل مخلفا مكانه عاصفة من الدخـان استمـرت زمنا طويلا تنطلق باستقامة نحو السماء . وجاءنا من داخل البناء انفجار من النار احمر اللون ، تبعه آخر اخضر ، وثمة اخر ازرق ، اندلعـت جميعا مـن الساحة في اتجاه جمهرة القوم الذين يحاولون اطفاء ذلك اللهب الهائل بنثرهم الثلج عليه . وشرعت الاحواض تغلي ثائرة وتفور ، وهي تبعث بسحب من الدخان والابخرة فتملأ الساحة برائحة غريبة ، وتجعل الدموع تترقرق في العيـون .

خرجت من حيث اختبأت وارتميت بالقرب من قدمي جدتي ، فصاحت :

ــ امض من هنا ! والا دهسوك ! ابتعـد ...

ودلف الى الساحة خيال يلبس خوذة معدنية واسعة ، يعلو الزبد ثم حصانه الاشقر ، وطفق بلوح بسوطه ويزعق متوعداً :

ــ افسحوا الطريـق !

وارتفع رنين اجراس صغيرة عديدة تدق مبتهجة ... كـان كل شيء جميلا ومسليا كما في ايام الاعياد والافراح ... ودفعتنـي جدتي من قـرب الباب ، قائلـة :

ــ الم تسمعني ؟ قلت لك امض من هنا !

كان يستحيل ان اعصيها في مثل تلك اللحظة . رجعـت الى المطبخ ، وجلست الى النافذة مرة ثانية . ولكن تلك الجموع السود من الناس كانت تختفي احيانا ، واحيانا تخفي على مسرح النار فلا استطيع ان ارى الا لمعان الخوذ المعدنية وهي تنتقل بين تلك القبعات الشتائية السوداء .

اخمدت النيران سريعا بحصرها في منطقة واحدة وصب المـــاء عليها .

وفرقت الشرطة الجماهير المزدحمة . وعندما انتهى كل شيء رجعت جدتي ادراجها الى المطبخ ...

ـــ من هناك ؟ انت ؟ الم تنم ؟ هل انت خائف ؟ لا تخـــف ! لقد انتهى كل شيء الان !

جلست بجانبي تتأرجح الى الامام والخلف دون ان تنطق بحرف واحد . كنت سعيدا بان يستعيد الليل هدوءه وظلمته . ولكنني كنت ، في ذات الوقت، آسف على خسارتي مشهد النار ..

وظهر جدي على العتبـــة :

ـــ امـــاه ؟

ـــ مـــاذا ؟

ـــ هل احترقـــت ؟

ـــلاشيء يذكـــر ...

اشعل عود كبريت ، فاضاء لهبه الازرق وجهـــه السنجابـــي الملطـــخ بالدخان . واشعل الشمعة الموضوعة على الطاولة ، ثم قبـــع بالقرب من جدتـــي . قالـــت :

ـــ يجب ان تغتســـل !

كانت مغطاة هي الاخرى بطبقة كثيفة من الهباب ..

وتنهـــد جـــدي :

ـــ ما اعظم رحمة الله اذ وهبك كل هذا الذكاء !

ضربها بلطف على كتفها ، واضاف وقد انفرجت اسارير وجهه :

ـــ اعني انه يهبك اياه للحظات قصيرة ، وفي نوبات متباعدة . ولكنه يرسله على ايـــة حـــال ! ...

ضحكت جدتي بدورها وارادت ان تقول شيئا لكن جدي قطب وجهه ، وتابـــع :

ــ يجب ان نتخلص من جريجوري ، فكل ما حدث كان بسبب اهماله . ان هذا الموجيك لم يعد يصلح لشيء . اليك ياكوف الذي يبكي عند العتبة . يا له من احمق ! يحسن جدا ان تخرجي اليه . . .

فنهضت وخرجت . . . وقد رفعت يديها تنفخ على اصابعها ! . . .

سال جدي ، دون ان يتكلف التطلع الي :

ــ ارايت الحريق منذ بدايته ؟ حسنا ، ما رايك بجدتك هذه ؟ لا تنس انها امراة عجوز . . . محطمة . . . منهــارة . . . ان في هذا لدرسا لــك ، وللجميع ايضا ــ تفــو !

وانطوى على نفسه ، وظل صامتا بعض الوقــت . ثم نهض واقفا ، واطفأ لهيب الشمعة باصابعه ، وهو يسال :

ــ اخفــت ؟

ــ كــلا !

ــ حسنا ، فلم يكن هناك ما يستوجب الخوف .

ونزع عنه قميصه بحركة ساخطة ، ومضى الى المغسلة الموضوعة في زاوية المطبخ ، وضرب الارض بقدميه وصاح :

ــ الحريق ! تلك حماقة كبرى وربي ! والذي يحــدث حريق في بيتــه يجب ان يجلد في الساحة العامة كمجنون او لص ! هذا ما يجب ان يفعلوه مع مثل هؤلاء الناس ، وحينئذ يمتنع الحريق تماما ! . . . عد الى سريرك ، فما بقاؤك هنــا ؟

اطعت امره ، ولكن النوم هرب عن جفني في تلك الليلة . ولم اكد ازحف الى السرير حتى رددت الي الحياة بصراخ لا انساني . فركضت ، مرة ثانية ، عائدا الى المطبخ ، حيث وجدته واقفا في وسطه وقد خلع قميصه ، وحمــل شمعة مرتجفه الشعلة ، وهو ينقل قدميه دون ان يتحرك من مكانه قيد انملة .

قــال لاهثــا :

ــ اماه . ياكوف ، ما هذا ؟ ماذا جرى ؟

فقفزت فوق الموقد ، وتكورت في زاويته . ومرة ثانية عاد كل شيء الى ما كان عليه من بلبلة واضطراب اثناء اشتعال النار . وكان العويل يصطدم

باموراج منتظمة على الجدران والسقف ، وهو يزداد ارتفاعـــا ولجاجة . . .
وراح جدي وخالي يركضان هنا وهناك كالمجانـــين ، وجدتي تطردهما خارج
المطبخ وجزيجوري يحدث ضجة صاخبة بالاخشاب التي يلقيها في الموقد . ثم
راح يملأ بعض الغلايات بالماء وهو يهز راسه كاحد جمال استراخان .

امرت جدتـــي :

ــ اشعل النار اولا !

فتسلق جريجوري الموقد بلطف ، فوقع بصره على قدمي ، فاذا به يصيح
مرتاعـــا :

ــ من هناك ؟ تنو ، لقد ملأتني رعبا ! انت تنطرح دائما حيث لا حاجة
اليك على الاطلاق .

ــ ماذا هنـــاك ؟

فاجاب بهدوء ، وهو يرجع الى الارض :

ــ ان الخالة ناتاليا تلـــد !

فتذكرت ان والدتي لم تصرخ هكذا يوم وضعت . وحين رفع جريجوري
الغلايات على الموقد ، تسلقه حتى صاقبني ، ثم اخرج من جيبه غليونا من
الخزف . قال ، وهو يريني الغليـــون :

ــ لقد بدات ادخن لان في ذلك شفاء لعيني ، وجدتـــك تنصحنـــي ان
استعمل السعوط ، ولكني اعتقد ان التدخين احسن وافضل . . .

جلس ، وقدماه مدليتان فوق حافة الموقد ، يشخص الى ضوء الشمعة
الخافت ، وقد تلوثت اذناه وخداه بالدخان الاسود ، وتمزق قميصه ، بحيث
رايت الى اضلاعه وهي تبرز وتغور ، وتشققت احـــدى زجاجتي نظارتـــه
السوداء وسقطت منها قطعة كبيرة ، فتركت فرجة يستطيع المرء ان يرى منها
الى عينه الحمراء التي تبدو كجرح مفتوح يدمي .

وملأ غليونه بورق التبغ ، وراح يستمع الى انين تلك المراة الماخض ،
وهو يتمتم لنفسه كما لو كان ثمـــلا :

ــ يبدو ان النـــار نالت جدتك على اية حال . ترى ، كيف ستدبر امـــر
توليد خالتك ؟ قل لي ، هل سمعت كيف قضت خالتك نهارها ؟ لقد نسوهـــا

تماما لقد شرعت في الانين منذ بدء الحريق ، وقد اوجعها الخـوف كثيرا ... انظر فقط كم يصعب حمل مخلوق جديد الى هذا العالم ! ومـع ذلك ، فان احدا لم يلق بالا الى تلك المراة . ان المراة يجب ان تحترم ، فهي أم ، وهذه هي الحقيقة ، فلا تنسها أبدا .

غفوت برهة من الزمن ايقظني بعدها صرير الباب ، وصيحـات الخال ميخائيل السكران المتخ ، ثم صوت جلبة عامة شاملة ... وتناهـت الى سمعي كلمات غريبة منهـا :

ـ يجب ان تفتح الابواب الملوكية في الكنيسة ...

ـ اعطها بعض زيت الايقونة والروم ، واخلطهما بالهباب : نصف قدح من الزيت ، ونصف قدح من الروم ، وملعقة من الهباب ...

وتابع الخال ميخائيل صيحاتـه :

ـ أريد ان القي عليها نظـرة ...

كان جالسا على الارض بيصق أمامه وقد مد رجليه المنفرجتين ، وراح يضربهما بكلتا يديه . واصبحت الحرارة لا تطاق على الموقـد ، فأسرعـت بالهبوط عنه . ولكنى لم اكد اقترب من خالي حتى لبطني بقدمـه فأوقعني على الارض ، واصطدم راسي بها ... صرخت :

ـ احمـق !

فوثب على قدميه ، واختطفني ، ثم أرجعني في الهواء وهو يغمغم :

ـ ساحطمك على الموقد !

وعندما استعدت صوابي كنت مضطجعا على ركبتي جدي في الصالون الكبير . كان تابعا في زاوية الايقونات ، يهدهدني الى الامام والخلف ، وعيناه مثبتتان في السقف ، وهو يجمجم :

ـ لن ينال أحدا منا المغفرة ، ولا واحدا أبدا ...

كان لهيب الايقونات يحترق بقوة فوق راسه ، وفي وسط الغرفة ، على الطاولة ، شمعة مضاءة .. وهناك صباح شتائـي مكفهـر يطل علينا من النافـذة .

سألني جدي ، وهو يحنو علي :

ـــ ماذا يؤلمـــك ؟

كان كل شيء في يؤلمني ، فراشي مبلـــول ، وجسدي يشبه الرصاص وزنا . ولكنى لم ارغب في التحدث عن ذلك . كان كـــل ما يحيط بي غريبـــا غير معهود . فهناك جمهور من الناس غير المألوفين لدي يشغلون عدة مقاعد في الغرفة ـــ وهذا كاهن في حلة ارجوانية اللـــون ، وهنـــاك شيخ اشهـــب الشعر يضع نظارة ويلبس بزة عسكرية ، وهناك عدة اشخاص اخرين يجلسون بدون حراك ، وقد جمدهم البرد ، فهم اشبه بتماثيل من الخشب ، يسمعون في سكون الى غليان الماء في مكان ما عن قرب ... وكان خالي ياكوف يقف منتصبا قرب الباب ، وقد وضع يديه خلف ظهره .

قال جـــدي :

ـــ تعال احمله الى سريره ، يا ياكوف .

فأومأ خالي الي ، فمضينا على رؤوس اصابعنا حتى وصلنا غرفة جدتي .. همس الخال في اذني ، عندما تكورت على السرير :

ـــ لقد توفيت خالتك ناتاليا ...

فلم يدهشني ذلك ـــ لانها ظلت مدة طويلة لا تظهر في أرجاء البيت ـــ ولا تدخل المطبخ ، بل لا تقترب الطاولة لتناول الطعام .

ـــ أين هي جدتـــي ؟

فأجاب ، وهو يحرك يـــده :

ـــ هناك ، تحـــت !

ثم رجع مثلما جاء ، يسير على رؤوس أصابعه الحافية ...

اضطجعت على السرير اتطلع حولي قلقا . وراحت تتراءى لي ، على زجاج النافذة ، عدة وجوه شائبة الشعر . كان ثوب جدتي معلقا في الزاوية فوق الصندوق ـــ كنت أعرف هذا ، ولكن الثوب بدا لي وكأنـــه مخلوق حي يتربص هناك بين الظلال ، فخبأت رأسي تحت المخـــدة ، واحتفظـــت باحدى عيني مثبتة في الباب . كنت أود أن اقفز من السريـــر وأهرب ... كانـــت الغرفة حارة ، وقد عج المنزل برائحة غريبة تذكرني كيف لاقـــى تسبجانوك

حتفه ، والدم يتدفق منه على أرض المطبخ . وخيل الي ان راسي ، بل قلبي، ينتفخ ... وان كل شيء اشاهده في ذلك البيـت يمـرق في جسدي مثـل مركبة جلدية تسرع في درب ثلجي ، وهي تشدد الخنـاق علي ، ثم تمحوني من الوجود تمامـا .

وسمعت الباب ينفتح ببطء ، ومنه دلفت جدتي ... ثم دفعـت الباب بكتفيها ، فأغلقته ، وظلت مستندة اليه وقـد مدت ذراعيها ناحية اللهـب الازرق الذي يبعثه قنديل الايقونات .

وهمست في نغمة صبيانية شاكية :
يا ليدي المسكينتين !.. كيف احترقتـا !..



٥

حصل تقسيم الاملاك في مطلع الربيع ، فتخلف ياكوف في المدينة ، اما ميخائيل فعبر النهر الى كوناقينو . واقتنى جدي لنفسه منـــزلا جديدا رائعا حجري البناء في شارع بوليفوي ، في الطابق الارضي منـــه خمارة واسعة ، وعلى السطح غرفة انيقة صغيرة ، ويلحق بهذا المنزل حديقة تشرف على واد يعج بأشجار الصفصاف المعراة .

غمزني جدي بعينه مبتهجا ، وقال يخاطبني ونحـــن نطوي المـــرات الطرية الناعمة نجوب ارجاء الحديقة ونتفحصهـــا :

ـــ ما اكثر القضبان ههنا ! في وقت قريـــب سابدأ بتعليمـــك القـــراءة والكتابة ، وعندئذ سأكون في امس الحاجة الى هذه القضبان !

كان المنزل يفيض بالمستأجرين ، فاختص جدي نفسه بغرفة واسعة في الطابق العلوي أعدوها لاستقبال الضيوف ايضا . وكان نصيبنـــا ، جدتي وانا ، غرفة السطح التي تطل نوافذها على الطريق ، فاذا ما جلست اليها استطعت ان اشاهد السكارى الخارجين من الخمـــارة في الامسيات وايـــام الاعياد ، يترنحون وهم يعبرون الشارع ، يستنـــدون الى مزاريـــب الميـــاه ويزمجرون ... وغالبا ما كانوا يرمون من الخمارة وكأنهم اكياس فارغة من الطحين ، فيعودون الى الباب يدفعونه، ويهاجمونه بأيديهم ، او يضربون عليه بدقاقته المتعفنة ، وهم يسبون ويشتمون . وكان الباب يخضع لهم احيانا ، فتنشب عندئذ معركة لا ادري نتائجها ... كان ذلك كله في الحقيقـــة مثيرا للاهتمام حتى الدرجة القصوى . وكان جـــدي يمضي كل صباح الى معملـــي ولديه ليساعدهما في تنظيم أمورهما . ثم يعود مساء غاضبا ، متعب الجسم، كئيب القلب ، حاد الطبـــاع .

اما جدتي فكانت تقوم بتدبير المنزل ، وتهيء الطعام ، وتنبش الحديقة ، وهي تكردح هنا وهناك النهار بطوله كخذروف كبير ، وكانما يسيرها سوط خفي غير منظور . وكانت تستنشق سعوطها ، ثم تعطس باشتهاء ، وهي تراقب كل شيء وتجفف وجهها المتصبب عرقا :

ــ شكرا للقديسين والملائكة حتى اخر الدهور ! لقد انتقلنا اخيرا الى حياة هادئة ، يا اليوشا ، يا طيري العزيز ! ان كل شيء جميل ورائع بالنسبة الينا ، فشكرا للعذراء الطاهرة !

ولكنني لم اجد شيئا من الهدوء في حياتنا ... فقد كان المستاجرون يخبون منذ الصباح حتى المساء في الساحة وداخل المنزل ، والجيران يأتوننا وهم في عجلة من امرهم دوما ، ودوما متاخرون يسعون وراء شيء ما ، ودوما يتاهبون لعمل ما من الاعمال . وكانوا ينادون جدتي :

ــ اكولينا ايفانوفنا !

فتوزع اكولينا ايفانوفنا ابتساماتها العذبة عليهم بلطف جم على عادتها ؛ وتصغي اليهم بانتباه زائد ، وهي تدفع السعوط داخل منخريها ، ثم تمسح انفها واصبعها باتقان في منديل احمر اللون .

كانت تقول :

ــ تريدون ان تتخلصوا من القمل ؟ يجب عليكم اذن ، يا اعزائي ، حين تريدون التخلص من القمل ان تغتسلوا في الحمام في فترات متتالية ، وافضل على ذلك ان تعرضوا انفسكم لابخرة زيت النعناع . ولكن ! اذا كان القمل تحت الجلد فيجب ان تتناولوا ملعقة من شحم الوز ، من انقى انواعه ، وملعقة قهوة من السليماني وثلاث قطرات من الزئبق ، وامزجوها جميعا سبع مرات في هاون صيني ، ثم ادلكوا جسدكم بها . اياكم ابدا واستعمال ملاعق الخشب والعاج والا فسد الزئبق ، واياكم ومسه بالنحاس او الفضة لان ذلك يكون عظيم الضرر اذن .

وكانت تشير احيانا ، بعد تبصر وامعان دقيقين :

ــ الافضل ان تذهبي الى الناسك آزاف في صومعته ، يا سيدتي الطيبة . ان سؤالك صعب لا استطيع له تفسيرا او جوابا .

وكانت تعمل قابلة ، وحكما في المشاجرات البيتية ، وتداوي المرضى من

الاطفال الصغار ، ونروي قصة « حلم العذراء » عن ظهر قلب لتتعلمها النسوة فينلن السعادة والغبطة ، ثم تعطي نصائحها في شؤون البيت وقضاياه :

ــ أن الخبار نفسه يعرف الزمن الذي يجب ان يكبس فيه ، وذلك مباشرة عندما تزول منه رائحة الارض وسواها ، فيصبح عندئذ قابلا للتمليح ... وللحصول على كفاس (١) طيب يجب ان يكون حار المذاق ، لان مشروبا كالكفاس لا يتفق ابدا مع اي شيء حلو المذاق . ولكن ، لا مانع من أن تضيفوا اليه شيئا من الزبيب ، او قليلا جدا من السكر ــ ملعقة واحدة لكل دلو منه . وان هناك طعما مختلفا للقشطة حسب طريقة صنعها، فهناك أسلوب أهل الدانوب في ذلك ، وكذلك الطريقة الاسبانية ، ومن ثم الطريقة القوقازية .

اما انا فكنت اخب في اعقابها وادب النهار بطوله ، متعلقا باثوابها ان في الساحة او في الحديقة او عند الجيران . حيث كانت تجلس لبضعة ساعات تحتسي الشاي وتعيد سرد ما لديها من قصص وأخبار ... وكنت أبدو ، وقتذاك ، وكأني قطعة منها . وانا لا اذكر احدا خلال تلك الفترة من حياتي ، اللهم الا هذه العجوز الكدود اللطيفة .

وغالبا ما كانت امي تظهر بيننا في فترات قصيرات . كانت ما تزال متكبرة ، عابسة الوجه ، تراقب كل شيء بعينين باردتين مظلمتين كاشعة شمس الشتاء .. ولا تقيم بيننا طويلا ، بل ما أسرع ان تختفي دون أن تخلف وراءها اثرا يذكرنا بها .

سألت جدتي ذات يوم :

ــ أأنت ساحرة ؟

فضحكت :

ــ حقا ؟ من اين اخترعت هذا ؟

(١) شراب شبيه بالبيرة .

وسرعان ما ارتسمت على محياها علائم الجد ، واضافت :

ــ ومن انا لاكون ساحرة ؟ ان السحر فن صعب ، وانا لا أكاد افقه الالف من الباء ! أنظر الى جدك ! يا له من رجل متعلم ! ولكن العذراء الطاهرة لم تعطني ، انا ، الكثير من الحكمة والمعرفة .

وحينذاك ائتمنتني على جزء اخر من حياتها :

ــ لقد شببت يتيمة انا الاخرى . فقد كانت أمي فلاحة معدمة ، ومقعدة بالاضافة الى ذلك . وقد اخافها مرة سيد نبيل وهي لما تزل بنتا بعد ... ولذا فقد القت بنفسها ، ذات ليلة ، من احدى النوافذ ، فكسرت خاصرتها وكتفها ، بحيث وهن ذراعها عن الحركة ، ذراعها الايمن ، ذراعها الجوهري في العمل ، اذ كانت عاملة تطريز ماهرة . وقد حررها النبيل بعد ذلك بزمن قصير لعدم انتفاعهم منها ، وكأنهم قالوا لها : عيشي كما تهوين وتبغين . ولكن ، كيف يمكنها ذلك بيد واحدة ؟ وهكذا امست مستعطية في الطرقات . وكان سكان بالاخنا ، في ذلك الحين ، أكثر غنى واطيب قلبا ــ كانوا نجارين شجعانا ، وعاملات تطريز ماهرات ، قلوبهم من ذهب ، وكل منهم افضل من الاخر . فلم نغادر المدينة ، بل رحنا ــ امي وانا ــ نستجدي الناس طوال الخريف والشتاء . ولكننا نزحنا عن بلدتنا عندما رفع رئيس الملائكة جبرائيل سيفه فأزاح الجليد عن الاراضي ، فاذا الربيع يتخطر على وجه البسيطة بأبهى حلله ــ نزحنا حيث قادتنا اقدامنا ، فمضينا الى موروم ، ومنها الى يوريفست ، ثم سرنا على طول الفولجا ونهر اوكا الهادىء . لكم كان مسيرنا جميلا رائعا ! الارض تفوح برائحة الربيع والخريف ، والتراب ناعم الملمس ، والعشب يشبه المخمل في طراوته ، والعذراء قد نثرت الزهور في كل مكان بحيث يغمر السرور قلبك ، ويمتد الفضاء العريض الواسع امام عينيك الطافحتين بهجة وغبطة ... وعندئذ ، كانت والدتي تغلق عينيها الزرقاوين نصف اغلاقة ، فاذا بغنائها يرتفع نحو السماء مسبحا ... كان صوتها حنونا حلوا ، يخيل اليك معه ان كل ما يحيط بنا قد ركن الى الهدوء والسكون ، فكأنه يرمي بسمعه اليها . لكم كان التسول حسنا في ذلك الزمان ! غير ان والدتي رفضت ، يوم بلغت العاشرة من عمري ، ان اصحبها للتسول . كانت تجد ذلك مخجلا ، بل فضيحة شائنة ... وهكذا استقرت في بالاخنا ، وهناك كانت تطرق الابواب ايام الاسبوع طلبا للخز ، وتقف أيام الاحاد على

باب الكنيسة تستعطي الناس والمصلين . اما انا فكنت أتخلف في البيت أتعلم التطريز . ولم استطع ان اتعلم ذلك بسرعة . وان كنت تواقة جدا الى مساعدة أمي المسكينة . ولطالما بكيت وتساقطت الدموع من عيني بغزارة عندما يكون صعبا فلا انجح في تحقيقه !... ولكن سرعان ما تعلمت في سنتين — تأمل ! — تلك المهنة الصعبة ، وذاعت شهرتي في البلدة وضواحيها. وكان القوم يأتوننا ، عندما يريدون عملا ممتازا ، ويقولون : « حسنا يا اكوليا ، هلا لعبت بأصابعك وابرك ؟ » . وكنت سعيدة بذلك ، وان كنت لا استحق في الحقيقة ذلك الصيت الذي كانت امي أجدر به مني ، لانها هي وحدها التي علمتني . ورغم عجزها عن العمل بيد واحدة ، فقد كانت تستطيع ان تعلمني ، والمعلم الطيب افضل من عشرة عمال . ولكنني كنت متكبرة جدا ، فقلت لها : « انك تستطيعين الان ، يا أماه ، ان تكفي عن التسول ، فأنا اقدر ان اطعمك من عمل يدي ! » . ولكنها قالت : « صه ! الا تعلمين ان هذا المال يجب ان يكون مهرا لك ؟ » . وما اسرع ان ظهر جدك بعد ذلك — رجل يافع ملحوظ ، في الثانية والعشرين من العمر ، ومع ذلك يكسب كمية لا بأس بها من المال .. وتفحصتني امه جيدا ، ورأت ما انا عليه من الفقر — وانني ابنة امرأة مستعطية فاستنتجت من ذلك انني سأكون زوجة مطيعة . مطيعة .. سمعت !.. وكانت ، بدورها ، بائعة للحلوى والكعك ، ذات نفس خبيثة شريرة ... ولكن ، سامحني الله ، لم نتحدث بالسوء عن الاموات ؟ وما فائدة ذكر القوم الاشرار ، ان الله يراهم ، والشيطان يحبهم ...

واطلقت ضحكتها الصادرة عن القلب ، فاهتز انفها بشكل يبعث على السخرية ، وشملتني عيناها بعطف حنون يفصح عن مراده أكثر مما تفصح الكلمات ...

• • •

وانا اذكر ليلة هادئة كنت اشرب فيها الشاي وجدتي في غرفة جدي . كان مريضا يقبع في سريره وقد خلع عنه قميصه ، وغطى كتفيه بمنشفة طويلة يمسح بها ، بين الفينة والفينة ، العرق المتحدر على جبينه وكان تنفسه سريعا أجش الجرس ، وعيناه الخضراوان تغشيهما سحابة داكنة ،

ووجهه محمرا منتفخا ، وأذناه المدببتان الصغيرتان متوردتـــين ، ويده ترتجف ــ كلما حاول ان يتناول قدح الشاي ــ بشكل يثير الشفقة حقـــا . كان رقيقا ، في ذلك اليوم ، على غير عادته ...

وراح يشتكي لجدتي بنغمة طفل مدلل :

ــ لم لم تضعي لي بعض السكر ؟

فاجابت بلطف ، في شيء من العزم ايضا :

ــ لان العسل اصلح لـــك .

فجرع قدح الشاي متململا باكيا ... قـــال :

ــ احذري ان اموت .

ــ لا تقلق ، فأنا ساهرة غير غافيـــة .

ــ حسنا ! انا لو مت الان لاشبهت من لم يعش على الاطلاق ــ أو من عاش من اجل لا شيء ...

ــ اضطجع ، وكفاك ثرثرة .

ظل مضطجعا مدة قصيرة ، دون حراك ، مغمض العينين ، وهو يتلمظ بشفتيه الزرقاوين . ثم تنفز فجأة ، وكأن احدهم قرصه :

ــ يجب ان تزوجي ياكوف وميخائيل باقصى ما تستطيعين من سرعة . فلربما جعلهما ذلك أكثر الفة وهدوءا . ما قولك ؟

وشرع يستعرض فتيات البلدة اللائقات ان يتزوج ولداه منهن ، بينمـــا راحت جدتي تشتف الكاس من الشاي تلو الاخـــرى ، دون ان يبدو عليهـــا ادنى اهتمام بالموضوع .

كنت ممنوعا ، عقابا على بعض ذنوب ارتكبتهـــا ، من النـــزول الى الحديقة ... فجلست الى النافذة اراقب غروب الشمس ينعكس بريقه على نوافذ المنازل ، وامتع الانظار بالقيلولة المشتعلة فوق المدينة . كانت جموع من الخنافس تدوي في الحديقة تحت شجر البتولا ، واحد العمـــال يضرب

بالمطرقة برميلا في الساحة المجاورة ، وشخص ما يشحذ السكاكين في مكان قريب مني . وكانت ترد من الوادي ، خلف الحديقة ، صيحات أطفال يلعبون بين الاشجار الكثيفة ، فاشتاق يائسا ، وقد اثقلت كآبة الغسق على قلبي، أن اكون بينهم اشاركهم لعبهم .

وأخرج جدي ، على حين بغتة ، كتابا انيقا للغاية ، لطمه براحة يده . وناداني بصوت أنيس :

ـ انت ، أيها السنونو الصغير ! انت ، يا صاحب الاذنين الملفوفتين ! انت ، تعال هنا ! اجلس ، أيها المتري الوجه ! اترى هذه الاشارة ؟ انها « الف » في أب ، « ب » في باب ، « ت » في توت . ما هذه ؟

ـ « ب » في بـاب .

ـ مضبوط ، وهـذه ؟

ـ « ت » في تـوت .

ـ غلط ! « الف » في اب . انظر هنا ... « د » في دار ، « ج » في جار ، « ف » في فار ... ما هذه ؟

ـ « ج » في جـار .

ـ صحيح ، وهـذه ؟

ـ « د » في دار .

ـ رائع ، وهـذه ؟

ـ « الـف » في أب .

فقاطعتنا جدتي :

ـ يحسن بك ان تضطجع بهدوء ، يا أبتـاه !

ـ أطبق شفتيك ! ان هذا يروح عني ويبعد المتاعب عن ذهني ، تابع ، يا الكسي ! ...

ولف ساعده الحار الرطب حول رقبتي ، وأشار الى الحروف ، بينما أمسك في اليد الاخرى بالكتاب تحت أنفي مباشرة .

كان يفوح منه مزيج من رائحة الخل ، والعـــرق ، والبصل المشـوي ، نكاد ان تخنقنـــي ...

واهتاج فجاة ، بشكل غريب ، وصاح في أذنـــي :

ــ « م » في مطبخ ... « س » في سيدة ..

كانت تلك الكلمات والاصوات مألوفة لدي ، وكذلك الامــور التي نعبر عنها ، ولكن الحروف السلافيـــة لم يكن لهـــا أدنى شبه بها على الاطـــلاق ، فالسـين تبدو أكثر شبها بالدودة منها بالسيدة ، والميم بجريجـــوري الاحدب منها بالمطبخ ، أما الجيم المنتفخة فتذكرني بجدتي ، بينما كان في جدي شيء يجعله يشبه سائر الحروف كل الشبه . واستمـــر طويلا يعلمنـــي حـــروف الهجاء ، يسألني عنها بانتظام مرة ، وحسب هواه مرة اخرى . واصابنـــي بعدوى ثورته ، فرحت اتصبب عرقا بدوري ، وأصيح بأعلى صوتي ، الامر الذي راق له كثيرا فأغرق في الضحك حتى اصابتـــه نوبـــات متتابعة مـــن السعـــال .

كان يتنهد ، وهو يضرب بيده على صدره والكتاب معا :

ــ انظري كيف تحمس لذلك ، يا اماه ! تفو ! تفـــو ، أيها الطاعـــون الاستراخاني ، ما بالك تصيح بهذا العنف ؟

ــ انك انت الذي يصيـــح ...

ورحت ارنو اليه مبتهجا ، وقـــد جلست جدتـــي الينا ومرفقاهـــا على الطاولة ، واصابعها على خديها ، تضحك بهدوء وهي تراقبنا ... قالت :

ــ كفاكما صياحا يذهب بعقليكما !

والتفت جدي الي ، وهو يفسر لي بالفـــة :

ــ اني اصيح لاني مريض . ولكن ، لم تصيح انت ؟

ثم حك رأسه الناضح عرقا ، وقال مخاطبا جدتي :

ــ لقد كانت المرحومة ناتاليا مخطئة عندما قالت ان ذاكرته رديئة . انها اشبه بذاكرة الحصان ! تابع ، أيها الافطس الانف !

ثم جذبني ، فيما بعد ، ناحية السرير مازحا :

ـــ ذلك يكفي ! احتفظ بالكتاب . سأسألك في الغداة عن كامل الابجدية، فاياك ان تخطىء في تلاوتها . وسأعطيك خمسة كوبيكات لقاء ذلك .

وعندما اقتربت لاستلم الكتاب ، ضمني اليه ، وقال بأسى :

ـــ ما الذي دفع امك الى الذهاب واهمالك هنا ، يا بني !

فتدخلت جدتي :

ـــ ما معنى الحديث عن ذلك الان ، يا ابتاه ؟

ـــ ان الحزن يدفعني الى ذلك ... آه ، يا لها فتاة من المؤسف ان تضل !

ودفعني عنه بحركة عنيفة :

ـــ امض من هنا والعب ! ولكنني امنعك من الخروج الى الشارع ، ابق في الساحة او في الحديقة . اتسمع ؟

كانت الحديقة هي بغيتي بالضبط ، اذ لا اكاد اظهر فيها حتى يشرع الاطفال الذين يلهون في الوادي يرمونني بالحجارة ، فلا ارغب الا في ان اكيل لهم الصاع صاعين .

كانوا يصيحون ، عندما يبصرون بي :

ـــ ها هي ذي البقة !

ـــ اضربوه !

لم اكن املك اية فكرة عن ماهية البقة ، وهذا يعني انه لا يمكنني اعتبار اقوال الاولاد اهانة موجهة الي .وكنت اغتبط اذ اجد نفسي خصما لكل تلك الجمهرة ، وارى اليهم يتراكضون عندما اصليهم بنار من الحجارة حامية لا تخطىء الهدف هنا وهناك ، ويختبئون وراء الادغال الكثيفة . وكانت امثال تلك المعارك لا تحمل حقدا ولا تترك شعورا بالاذية والضرر ، بل تنتهي دائما على خير وجه .

تعلمت القراءة بسرعة ، واظن ذلك ما جعل جدي يوجه الي المزيد من العناية والاهتمام ، ويقلل من مرات جلدي ، مع انني كنت ، في رأيي ، أستاهل من الضرب والجلد اكثر مني قبلا بما لا يقاس . ولما كنت ازداد سنا

واقوى جسدا ، فقد شرعت اخالف أوامره كثيرا ، فيكتفي بتعنيفـــي او بهز اصـابعه في وجهـــي .

صور لي ، وقتئذ ، انه غالبا ما كان يجلدنـــي في صغري دونما أدنـــى فائدة أو سبب معقول ، واخبرته برأيي هذا ذات يوم ، فنقر نقرة خفيفة تحت دقني ، وحملق في عيني ، وقال وهو يتشدق بكلامـه :

ــ مـــا . . . ذا ؟

ثم اضاف ، وهو يقهقـــه :

ــ انت ، ايها الهرطوقي الصغير ! من انت حتى تقرر عدد المرات التي استأهلت الجلد فيها ؟.. أنا الوحيد الذي يعرف ذلك ! افهمت ؟

وامسك بي من كتفي ، بينما كنت استدير عنه ، ومرة ثانية راح يحملق في عينـــي :

انت خبيث ام ابلـــه ؟

ــ لســـت ادري .

ــ لست تدري ، ما ؟ ساخبرك اذن ــ انت خبيث ، وهذا أفضل من ان تكون ابله ! ان الخراف بلهاء ، أفهمت ، والان ، أمض والعب . . .

وسرعان ما ابتدات اتهجا كتاب المزامير . وجدي يدرسني ، غالبا ، بعد تناول الشـاي مساء ، حيث اقرأ في كل مرة مزمورا كاملا .

ــ س ، ع ، ي ، د . . . سـعيـد . . أ ، ل ، ر ، ج ل . . . رجـل . . . الرجل . . . سعيد الرجل . . .

كنت اتهجى ذلك ، واصبعي الوسطى تنتقل على طول السطر . وكان الضجر يغمرني ، فاطرح عدة اسئلة مختلفة :

ــ من هو السعيد ؟ أهو الخال ياكوف ؟

ــ سأضربك على نقرتك فتعرف وقتئذ من هو السعيد .

كان جدي يهتف بهذه الكلمات وهو يلهث غاضبا . ولكننـــي اشعر ان غضبه ليس صحيحا ، بل من تأثير العادة فقط ، ولحفظ النظام ليس غير .

لم أكن لاخطىء قط ، اذ لا يلبث ، بعد لحظة ، أن يهمهم ناسيا وجودي:

ــ أف . عندما يأخذ باللعب والغناء يشبه الملك داوود كــل الشبه ؛ ولكنه يشبه ابشالوم الخبيث في أعماله . قوي ، غشاش ، مهــرج ــ تفو ! يرقص ويمررح فوق المشب ! حسنا : ولكــن الى اي حــد سيذهب بــك رقصك ؟ أعتقد انه لن يطــول !

فاتوقف عن القراءة لاستمع اليه ، واتطلع الى وجهه الانيس المضطرب. كانت عيناه الضيقتان ترنوان من فوق راسي إلى ما ورائي ، مليئتــين بحزن عنيف يذوب قساوته المعتادة ؛ وحاجباه الذهبيان يرتعشان ، واظافر أصابعه الملوثة بالصباغ تلتمع وهو ينقر على الطاولة بعصبية .

ــ مــاذا ؟

ــ قص علي قصــة . . .

فيدمدم ، وهو يفرك عينيه كما لو استيقظ لساعته من النوم :

ــ هيا ! تابع قراءتك ، أيهــا الكسول ! انــت تفضل ان تستمع الــى الخرافات اكثر منك الى المزامير !

كنت واثقا انه يفضل القصص الخرافية على المزامير التي يحفظها عن ظهر قلب . وقد نذر الا ينام قبل ان يقرأ جزءا منها كل ليلة بصوت مرتفع ، فيرتلها كشماس الكنيسة عندما يرتل في كتاب الصلوات .

والح عليه حتى يرق قلبه اخيرا ، فيروي لي احدى قصصه قائلا :

ــ أوه ، حسنا ، انت ستحتفظ بالمزامير معك طوال حياتك ، أما انا فسامضي قريبا لاقابل خالقي أمام كرسي الدينونة .

ويلقي برأسه الى الوراء ، وهو يستنــد الى حافــة الكرسي العتيــق الحادة ، ويثبت عينيه في السقف ، ويغرق في ذكريات ايامه الخالية . ثم يأخذ بالحديث عن ابيه والزمان الغابر . لقد حدث ، ذات مــرة ، أن عصبة من اللصوص اغارت على بالاخنا مستهدفة دكان التاجر زاييــف ، فركض والد جدي الى قبة الكنيسة لينبه الناس ، ولكن اللصوص ادركــوه ، ومزقــوه بسيوفهم ، ورموا بقطعه من فوق البرج .

ــ كنت طفلا صغيرا بعد فلم اشهد تلك الحادثة ، بل لم اعــد اذكرها أيضا . فذكرياتي الاولى تعود الى مجيء الفرنسيين عــام ١٨١٢ ــ وسني

حينذاك لا تتجاوز الثانية عشرة — حين ساقوا ثلاثين اسيرا الى بالاخنا ، وهم جميعا صغار البنية ، برزت عظامهم ، وتهلهلت ثيابهم حتى انتهت اسمال المتسولين — كانوا ، على اية حال ، اسوأ من هؤلاء منظرا — يرتعشون ويرتجفون ، وقد تجمدت اطراف بعضهم بردا فاضحوا عاجزين لا يستطيعون النهوض على اقدامهم . واراد الفلاحون قتلهم جميعا . ولكن الحراس حامية المدينة منعوهم عن ذلك ، وردوهم طرا الى اكواخهم . ثم سار كل شيء على ما يرام ، واعتاد الطرفان بعضهما بعضا ، فاذا الفرنسيين اذكياء القلب ، ثاقبوا الفكر ، خفيفو الحركة ، يتغنون بأغانيهم حيثما طاب لهم . وراح نبلاؤنا ينحدرون من نيجنسي نوفجورود في العربات للتفرج عليهم ، وفريق منهم يلعن الفرنسيين ويهز قبضته في وجوههم ، بل يضربهم في بعض الاحيان . . . بينما يحدثهم الفريق الاخر بلطف بلغتهم الفرنسية ، ويقدم اليهم المال والثياب العتيقة ليفرح قلوبهم بها . وانا اذكر شيخا منهم ، كان من كبار النبلاء ، أخفى وجهه بيديه ، مرة وطفق يبكي ويصيح : « هلا رأيتم الى ما جناه ذلك الشيطان نابليون بحق هؤلاء الفرنسيين ؟ » . تمعن في ذلك — روسي نبيل ذو قلب طيب — تأخذه الشفقة بمثل هذا الشكل على اولئك الغرباء الاجانب .

ويصمت جدي برهة ، ويغمض عينيه ، ويحني رأسه ، ويصفف بيده شعره الطويل . . . ومن ثم يتابع الحديث بعناية ، منقبا في مهامه ذكرياته القديمة :

وجاء ذلك الشتاء ، باعصاره الثائر المريع ، وريحه الباردة تزمجر بقسوة وعناد فوق الاكواخ ، فكان الفرنسيون يتراكضون احيانا حتى نوافذنا بنادون والدتي — وكانت تصنع كعكا للبيع — يقرعون الزجاج عليها ، يثبون عن الارض ويطلبون الكعك الساخن منها . ولم تكن أمي تسمح لهم بالدخول الى الكوخ ، بل تناولهم ما يطلبون من خلال النافذة ، فيتخاطفونه حارا يتصاعد البخار منه ، بعد خروجه من الفرن مباشرة ، ثم يخبئونه في طيات قمصانهم ، ويضمونه الى اجسادهم المتجمدة بردا فوق القلب تماما . ولم اكن افهم كيف بمكنهم تحمل تلك الحرارة الشديدة ! ولقد مات اكثرهم من البرد ، لان سكان البلاد الحارة لا يتحملون مثل ذلك الجليد . وقد أقام اثنان منهم

عندنا ، احدهما ضابط والاخر تابع له يدعى ميرون ، فاسكناهما غرفة الحمام في اقصى الحديقة . وكان ذلك الضابط فارع الطول ، نحيل الجسم ، لا يزيد عن حزمة من العظام والجلد ، يتجول في معطف نسائي يصل حتى ركبتيه . وكان لطيفا ، ذا نفس طيبة علته الوحيدة ادمانــه على الشراب . ولما كانت امي تصنع الجعة وتبيعها خفية ، فقد كان يشتري مقادير كبــيرة منها ... فاذا اصبح ثملا راح ينشد اغنياته التي لا تنتهي . ولقد تعلم شيئا من لغتنا، فكان يردد احيانا : « ان بلادكم غير بيضاء ، انها سوداء جافة ... » . وكان حديثه متقطع الالفاظ ، ولكنك تفهم ما يقصده . والحقيقة التي لا مراء فيهــا ان المنطقة الشمالية جافة فظة . ولكنك اذا ما انحدرت مع الفولجا أصبحت الاراضي دافئة ناعمة ، لا بل يقال انك اذا ما تخطيت بحر قزوين لم تر للثلج اثرا ... ولربما كان في ذلك شيء من الصحة ، فانظر كيف يخلو الانجيل ، وكتاب اعمال الرسل ، وسفر المزامير ، من ذكر الثلوج او الشتاء ، والسيد المسيح ولد وعاش في تلك البلاد .. عندما سننتهي من قراءة المزامير سأشرح واياك قراءة الاناجيل .

وبعود الى الصمت ، فيخيل الي انه يغفو ... ثــم يشخص من خلال النافذة ، وقد ركز انتباهه في امر ما ، وضيق فرجة عينيه ، واتخذت ملامحه مظهر الحدة ... فاهمس بهـــدوء :

ـــ هلا تابعـــت ؟

فيجيب ، وهو ينتفض :

ـــ آه ، حسنا ! عما كنت اتحدث ؟ عن الفرنسيين ؟ حسنا ! لقد كانوا، بدورهم ، مخلوقات بشرية ليست اردا منا نحن الخطاة ... وكانوا يتراكضون خلف والدتي وهم يصيحون : « مدام ، مدام ! » ويعنون بذلك « يا سيدتي » . ولكن تلك « السيدة » تخب نحو المنزل تحمل كيسا من الطحــين يزيد وزنـــا عن المائة كيلو غراما ، فقد كانت تفوق الثور قوة وبأسا ، ظلت تفعل بي ما تشاء حتى جاوزت العشرين من العمر . وانا لم اكن ابدا ، في ذلك الوقت ، ضعيف البنية او جبانا . اما ذلك التابع ميرون فكان مولعا بالخيل كثيرا ، ينتقل بين الاسطبـــلات ، ويسال الناس بالاشارات السمـــاح له بالعنايــة بالخيل . ولكن القوم خافوا منه بادىء الامر ـــ فهو عدو ليس ما يمنعه من الحاق الاذى بها . ولكن لم تمض فترة من الزمن حتى أصبح الفلاحون ، بعد

ان جربوه ، يأتون اليه من تلقاء أنفسهم : « هي ، انت ، ميــرون ، هــلا اتيــت ؟ » . فيضحك ويهز رأسه كالثور ، ويعدو نحوهم ركضا . كان شعره أحمر اللون كالجزرة ، له أنف كبير ، وشفتان عريضتان ، وهو سائس خيل عظيم ، له خبرة واسعة عن كيفية العناية بالخيول مهما كان مرضها .. وقد اضحى ، بعد ذلك ، سائسا في فيجني نوفجورود ، لكنه فقد عقله فيما بعد . وفي ذات يوم ، انهال رجال المطافىء عليه ضربا حتى مات . . . اما الضابط فراح يذبل ويذبل مع قدوم الربيع ، ثم مات دون أدنى صوت او ضجة ، في عيد القديس نيقولا . كان يجلس الى النافذة في مسكنه غارقا في بحر من الاحلام فتوفي هكذا ، وهو يتطلع الى العالم ، وشعرت بالاسف من اجله ، وذرفت عليه بعض الدموع خفية ، فقد كان انسانا لطيفا ، اعتــاد ان يمسك بأذني ليسكب فيها كلاما ناعما بلغته الخاصة . ولم أكن افهم مما يقــول شيئا ، لكن وقع تلك الكلمات في نفسي كان رائعا للغاية . ان العالم لا يحوي عددا كبيرا من ذوي القلوب الطيبة ، ومثل هذه الصداقات لا تبــاع في السوق . ولقد شرع ، مرة يعلمني طريقة الحديث بلغته الاصلية ، ولكــن أمي منعته عن ذلك ، وقادتني الى الكاهن الذي امرها بجلدي ، ثم رفع شكوى ضد ذلك الضابط . لقد كان الناس شديدي البأس في تلك الايام ، يا صغيري ! وانت لن تذوق ما قاسيناه في زماننا ــ فان اناسا اخرين تحملوا ذلك عنك ، وهذا ما يجب الا تنساه ابدا ! خذني مثلا ــ لو انك تعلم فقط مبلغ ما عانيت !

واحلولكت الظلمة ، وكان جدي يتمدد في ذلك الجو القاتم بشكل غريب ، وعيناه تشعان وتبرقان كعيني القط . وهو يتحدث عادة بهدوء ، واحتراس ، وتأمل . . . ولكنه امسى ، اذ راح يتحدث عن نفسه ، اكثر حمية وتفاخرا : ولم يكن ذلك منه يروق لي ؛ ولا كنت احب ايضا عظاته المستمرة :

ــ « تذكر ذلك ! » . . . « اياك ان تنساه ! » .

لقد أطلعني على اشياء عديدة أتوق بكل نفسي الى نسيانهــا جميعا ، ولكنها تتشبث بذاكرتي مثل شوكة مؤلمة يستحيل انتزاعها . . . لم يكن يروي لي شيئا من اقاصيص الجن ــ بل كانت سائر حكاياتــه مستمدة من واقــع الحياة ، ومن ماضيه بصورة خاصة . ولقد اكتشفت ان كثرة الاسئلة تزعجه كثيرا ، ولذا كنت اغتنم كل فرصة لالقي عليه اكبر عدد منها :

ـ قل لي أيهما افضل ـ الروسي أم الفرنسي ؟

فيجيب مغتاظـا :

ـ ومن يستطيع الاجابة على ذلك ؟ انا لـم ار الفرنسيين في وطنهـم الاصلـي .

ـ ان الفأر نفسه افاضل في حجره الخاص .

ـ وهل الروسيون طيبـون ؟

ـ بعضهم ذلك وبعضهم لا ! كانوا اكثر طيبة أيام كانـوا عبيدا تقيدهم السلاسل . اما الان ، وقد اصبحوا احرارا ، فقد نسوا العادات القديمة . ولا ريب ان الاسياد قساة القلوب نوعا ما ، ولكنهم اعقل من الموجيك . لا اقول هذا عنهم جميعا ، ولكن النبيل اذا كان طيب القلب مرة ، كـان فاضلا جـدا .. وبعضهم حمقى تماما ، يتقبلون ، كالاكياس ، كل ما تضعه فيهم . حقا ، ان بيننا لكثيرا من القشور ، ومن الصدف الفارغ ، يبـدون للوهلة الاولى كالكائنات البشرية ، فاذا اقتربت منهم وتمعنت فيهم رأيتهـم قشورا لالب فيها . ان ما نحتاج اليه هو شيء من الثقافة ، ان ما يلزمنا هـو ان نشحذ عقولنا . ولكن ، لا يوجد هناك ما نشحذها به ..

ـ هل الروسيون اقويـاء ؟

ـ بعضهم اقوياء ، ولكن القيمة ليست في القوة ، بل في المهارة ! فانت مهما بلغت من القوة يظل الحصان متفوقا عليك في هذا المضمار .

ـ لماذا حاربنا الفرنسيـون ؟

ـ حسنا ! الحروب مهمة الحكومات والقيصـر ـ وليس لنا ، نحـن الناس البسطاء ، ان نفهم هذه الامور ...

ولكنني لن انسى ، ما حييت ، ما اجابني به جـدي يوم سألته عـن بونابرت من يكون ... قال :

ـ لقد كان رجلا شجاعا اراد ان يستولي على العالم اجمع حتى ستطيع جميع الناس ان يعيشوا في مساواة عادلة . فلا نبلاء ، ولا موظفـون ، بل الجميع في مستوى واحد ، وستختلـف الاسمـاء لكن الحقـوق ستتساوى للجميع ... ولن يكون هناك ايضا الا ايمان واحد للجميع ، وتلك فكرة بلهاء

بالطبع لا معنى لها ... فليس الا سرطانات الماء تشبه بعضهــا بعضا ... خذ الاسماك مثلا ، حتى هي تختلف عن بعضها : فحوت سليمــان لا يشبه السمك الابيض ابدا ، والسمك النهري لا يداني السمك البحري ... ولقد كان لنا ، بدورنا ، بونابرتاتنا ـــ فهناك مثلا رازيـــن ستيفان تيموفييـــف ، وبوكاتش ايميليان ايفنوف ـــ ولكني سأخبرك عنهما في وقت اخر ...

وقد كان ، في اغلب الاحيان ، يرنو الي بعينيه المتسعتين مدة طويلة ، وكأنه يراني للمرة الاولى ، وكان هذا يزعجني كثيرا .

ولكنه لم يحدثني ، ابدا ، عن والدي او عن والدتي ...

* * *

كانت جدتي تدلف احيانا الى الغرفة اثناء هذه الاحاديث .. فتقتعد ، في هدوء جم ، كرسيا في زاوية الغرفة ، وتعتصم بالصمت مــدة حتى تسأل على حين فجاة بصوتها اللطيف :

ـــ اتذكر ، يا ابتاه ، كم كانت جميلة تلك الايام التي حججنا فيهــا الى ميرون نزور العذراء الطاهرة ؟ في اي عام حدث ذلك ؟

ـــ لست اذكر بالضبط ، لكن ذلك كان قبل الكولبرا ، في السنة التي طهروا فيها الغابات من الاولنخاريين .

ـــ صحيح ! انا اذكر كم كنا نخافهم !

ـــ نعم ، نعــم !

فسألت من يكون هؤلاء الاولنخاريون ، وما دفعهــم الى الاختباء فــي الغابات . فاجاب جدي باشمئزاز :

ـــ لم يكونوا الا فلاحين ارقاء ، هربوا من العمل في المصانع والحقول .

ـــ وكيف قبضوا عليهــم ؟

ـــ هل لك ان تحزر ؟ كان ذلك اشبه بالاطفال وهم يلعبون ... البعض يركضون ويختبئون ، والاخرون يمسكون بهم . وعندما تم القبض عليهم جلدوا بالسياط ، وضربوا بالعصي ، ثم جدعت انوفهم ، وكويت جباههــم بالنار كي يتضح للملأ العقاب الذي انزل بهم .

ــ ولم ذلــك ؟

ــ من يدري ؟ ان ذلك امرا مبهما غامض الاسرار ، ومن الصعب ان تميز المخطىء فيهم ــ اهو الذي فر ، أم الذي قبض على النار ؟

وقالت جدتي ثانيــة :

ــ أتذكر ، يا ابتاه ، ما الذي حدث بعد النار العظيمة ؟

فاستفسر جدي ، وقد قطب وجهه بدقة :

ــ اية نار عظيمــة ؟

وغرقا في ذكرياتهما ، وكانا دوما ينسيان وجودي في مثل هذه الحال ، فتتعالى كلماتها بهدوء ، موزونة ، حتى يخيل الي انهما ينشدان اغنية شجية، لكنها اغنية حزينة في الوقت ذاته ، موضوعها النار ، والامراض ، والمصائب التي تنزل بساح المخلوقات البشرية ، والموت المفاجىء ، واللصوص الاذكياء، والدراويش ، والنبلاء النزقون المنحدرون من الطبقات الراقية ، والمتسولون المتعددون . . .

وتمتم جــدي :

ــ ما اكثر ما شاهدنا ! ما اكثر ما عشنــا !

فسألت جدتــي :

ــ وهل كانت حياة سيئة ؟ هلا ذكرت روعة ذلك الربيع الذي ولدت فيه فارفــارا ؟

ــ كان ذلك سنة ١٨٤٨ ، سنة الحملة على المجر ، ولقد ساقوا معهم عرابها تيخون بعد يوم واحد من عمادها فحسب .

فتنهدت جدتي ، وقالت :

ــ وهو لم يرجع منذ ذلك الحين !

نعم ، لم يرجع ! ومنذ ذلك اليوم حتى الان ورحمة الله تنزلق بعيــدا عنا ، كالماء اذ يسيل على سطح مشحم . . . آه ، ان فارفارا . . .

ــ كفى ، يا ابتــاه . . .

فاجاب غاضبـــا :

لماذا كفى ؟ هؤلاء اولادنا ينقلبون ارذالا رغم كل العناية التي بذلت لهم، لقد ذهبت سائر جهودنا هباء منثورا ! كنا نظــن ، انت وانـــا ، اننا نضــع اشياءنا في حرز امين ، ولكن الله اراد ان يضيع كل شيء من بين ايدينا ...

وكمن وسم بالنار ، اخذ يقفز بين زوايا الغرفة ، يئن ، ويهاجم اولاده، ويهز قبضته المتعظمة الصغيرة في وجه جدتي ، وهو يصيح :

ــ وانت دافعت دوما عن هؤلاء اللصوص ، وافسدتهم بتدليلك لهم ، انت ، ايتها الساحرة ! انت ، ايتها الساحرة !

والقى به غضبه العنيف في زاوية الايقونات ، حيث شرع يضرب صدره النحيل بكلتا قبضتيه ، وينوح بصورة مؤثرة :

ــ لم ذلك ، يا ربي ؟ هل انا اكثر خطيئة من سواي مــن الناس حتى استحق هذا العقاب القاسي ؟

وراحت عيناه النديتان تلمعان سخطا والما ، وجسده يرتجف كالورقــة الجافة في مهب الريــح ...

كانت جدتي تظل قابعة في الظلمة ، وهي ترسم اشارة الصليــب ، ثم تنهض ، وتمشي اليه بحذر ، وتقول معزية :

ــ لم تعذب نفسك هكذا ؟ ان الله بكل ما تصنع يداه عليــم ! فليس هناك كثرة من الاولاد افضل من ابنائك . ان الامر متشابه في كل مكان ، يا ابتـــاه .. خصومات ، ونزاعات ، وضوضاء ... ان جميع الامهات والآباء يغسلون خطاياهم بدموعهم الخاصة ، ولست الوحيد الذي ...

كانت كلماتها ، احيانا ، ترد اليه الهدوء ، فينزلــق في فراشه متعبـــا بينما ننطلق ، جدتي وانا ، الى جناحنا الخاص . ولكنه ، اذ اقتربــت منه ذات مرة ، تخاطبه بكلماتها اللطيفة ، استدار حول نفسه ولطمهـــا بقبضته لطمة رنانة على وجهها . فترنحت جدتي ، وقد شدت يدهـــا على شفتيها ، حتى اذا استردت هدوءها ، قالت في صوت هادىء لطيف :

ــ يا لك من احمــق !

ثم بصقت الدم عند قدميه . فرفع ذراعيه فوق راسه ، وزعق مرتين :

ـــ اذهبي من وجهي قبل ان اقتلــك !

فرددت جدتي ، وهي تتجه صوب الباب :

ـــ احمــق !

فالقى بنفسه خلفها ، ولكنها اجتازت العتبــة دون تسرع ، وصفقــت الباب في وجهه ... فصرخ الشيخ ، أحمر اللون كالفحم المتأجج ، وقد أمسك بقبضة الباب يضرب عليه بأظافــره :

ـــ يا للفاجرة العجــوز !

كنت جالسا على ظهر الموقد ميتا اكثر مني حيا ، عاجزا عن تصديق عيني. لقد كانت المرة الاولى التي تضرب فيها جدتي في حضوري ، ولقد تألمت مــن شناعة ذلك ، وكشفت فعلته تلك عن صفة جديدة فيه لا يمكــن ان يبررها شيء على الاطلاق ، راحت تثقل علي بنير لا يطاق ... ظل واقفا هناك متعلقا بقبضة الباب ، وقد أربد وجهه فكأن الرماد ذر عليه . وفجــأة ، خطا الى منتصف الغرفة ، وسقط على ركبتيه ، وارتمــى الى الامــام مستندا على ذراعه . ثم نهض واقفا ، وضرب صدره بكلتا يديه ، وهو يصيح :

ـــ يا الله ! يا اللــه !

فتدحرجت على قرميد الدكة الحار الــذي بدا لــي وكأنه مصنوع من الجليد ، ثم أطلقت ساقي هاربا ...

كانت جدتي في الطابق العلوي تغدو وتروح ، وهي تتغرغر كميــة من الماء في فمهــا .

هل تتألمــين ؟

فمضت الى زاوية الغرفة ، وبصقت الماء في المغسلة ...

أجابت برزانــة :

ـــ لا ، أبدا ! ان اسنانــي لم تصب بسوء ـــ لقد جرحــت في شفتــي فقــط ...

ـــ لماذا فعل ذلــك ؟

فأجابت ، وهي تشخص الى النافذة :

ـ لقد فقد صوابه ! كم يصعب عليه ، هو الرجل الشيخ ، ان يتحمل هذه المصائب كلها !... اذهب انت الى فراشك ، وانس ما جرى ..

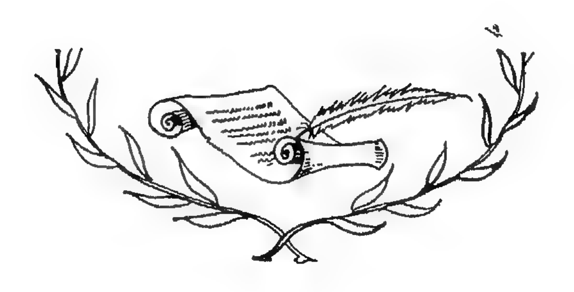
فسألتها عن شيء اخر ، ولكنها صاحت بشدة غـير مقصودة ، وغير معتـــادة :

ـ الم تسمعني ؟ اذهب الى فراشك ! يا لك من ولد عاق !

جلست قرب النافذة تمص شفتها وتبصق ، من حين لاخر ، في منديلها. ظللت انظر اليها طول الوقت ، وأنا اخلع ثيابي ، وفوق رأسها تلتمع كوكبة من النجوم في غسق الليل . كان كل شيء هادئـــا في الخارج ، وكـــل شيء في الداخل مظلما . وعندما التحفت الغطاء تقدمت مني ، وداعبـــت جبينـــي بلطـــف :

ـ نم في سلام . اني سانزل اليه الان ... فلا تأسف من اجلي ، أيها العصفور الصغير ! ان لاخطائي نصيبا كبيرا في ذلك . هيا ، الى النوم !

قبلتني وخرجت ، وخلفتني غارقا فيبحر من الحزن والالـــم . فقفزت خارج السرير الدافيء الطري ، ومضيت الى النافذة حيث رحت أحملق فـــي الطريق الخالي ، وأنا أرزح تحت عبء عذاب لا يطاق ...



٦

مرة اخرى ، امست الحياة كابوسا لا يحتمل ! ففي ذات مساء ، وقد انتهينا من تناول الشاي ولجأنا ، جدي وانا ، الى قراءة المزامير ، بينما راحت جدتي تغسل الصحون والاواني ، اندفع الخال ياكوف كالريح العاصفة داخل الغرفة . . . كان اشعث الشعر كعادته ، يشبه الى حد بعيد مكنسة بالية مهترئة . ورمى بقبعته في احدى زوايا الحجرة وراح يتكلم بسرعة دون ان يلقي سلاما او تحية ، وهو يقوم اثناء ذلك بحركات جنونية همجية غريبة :

— ان ميخائيل مغتاظ ، يا ابتاه ! لقد تناول الغداء عندنا ، وشرب حتى الثمالة ، وامسى كالمجنون ! فكسر الصحون ، ومزق ثوبا من الصوف يخص أحد العملاء ، وحطم النافذة ، وشتمني وجريجوري ، وهو الان في طريقه الى هنا ، وقد أقسم ان ينال منك ! كان يعوي : « سأنتف الشعر عن لحية والدي ! » ، ثم يصيح: « وسأقتله !. . . » . يحسن بك ان تنتبه لنفسك. . .

وانحنى جدي على الطاولة ، ونهض على قدميه بصعوبة ، وقد تشنج وجهه وتجمع عند انفه حتى اشبه بلطة صغيرة ، وزعق قائلا :

— اتسمعين ذلك ، يا اماه ؟ ما قولك ، ايه ؟ انه يريدان يقتل والده! هذا هو ، من لحمي ودمي ! حسنا ، لقد حان الوقت ! لقد حان الوقت ! يا شباب . . .

واصلح من وضع كتفيه ، وراح يتخطر في الغرفة غدوة ورواحا ، ثم مضى الى الباب واترسه بمزلاجه الثقيل . قال :

— انكما تتسابقان وراء مهر فارغارا دوما ! انا اعرف ذلك ! ولكن اليك ما ستنالـــه . . .

واستدار نحو ياكوف ؛ وانحنى ساخرا تحت انفه مباشرة . . .

وتراجع هذا الاخير ، وقال بصوت مغتاظ :

— وما ذنبي انا ، يا أبتـــاه ؟

— انت ؟ اني اعرفك انت ايضا !

لم تقل جدتي شيئا البتة . بل راحت تضع الفناجين بسرعة في الخزانة — بكل بساطة — ثم تغلق عليهـــا .

— لقد جئت احميـــك !

فضحك جدي بخبـــث :

— ها ! ذلك جميل اعرفه ! اشكرك ، يا بنـــي ! اسمعي ، يا أمـــاه ! أعطي هذا الثعلب شيئا يشتغل به، تضييب النار ، او المكواة ، وانت يا ياكوف نسيليفيتش ، في اللحظة التي يتوصل اخوك فيها الى الدخول فاعطه اياهـــا — على راسي . . .

فدفع خالي يديه في جيبه ، وانتحى بعيدا احدى الزوايا :

— حسنا ، ما دمت لا تريد ان تصدقني .

فصاح الجد ، وهو يضرب الارض بقدمه :

— اصدقك ؟ انت ؟ افضل ان اصدق قطا ، او جرذا ، او خنزيرا ، اما انت فلا ! فانت الذي سقيته المسكر واثرته . . . انا اعرف ذلك ! حسنا . . . والان ، عليك ان تتخلص من احد الاثنين . هيا ، واختر . . . اقتل احدنا : هـــو او انـــا !

واستدارت جدتي الي ، وهمست :

— اسرع الى الطابق العلوي ، وارقب خالك ميخائيل من خلال النافذة، واخبرنا سريعا عندما تلمحه ! هيا الى فوق ، اركض !

فصعدت السلم نهبا ، وارتفقت النافذة ...

كنت خائفا نوعا ما لمجرد تفكيري بما سيفعله خالي الحانق عندما يبلغ المنزل ، لكن مزهوا بالمسؤولية الخطيرة التي عهد بها الي . كان الشارع عريضا ، غطته سحابة كثيفة من الغبار تبدو من خلالها حوانيت الحذائين ، وهو يذهب بعيدا ناحيه الشمال ويتجاوز المنحدر ، ويفضي الى ساحة اوسترو جنايا ، حيث ترتفع ابنية السجن القديمة الشهباء اللون بابراجها الاربعه المنتصبة برسوخ في التربة الطينية . وكان في ذلك البناء جمال كئيب مثير للشعور . والى اليمين ، لم يكن الا ثمة ثلاثة منازل تفصل دارنا عن ساحة سينايا التي يحدها من الجهة المقابلة معسكرات الاسرى الصفراء ، وبرج المراقبة الذي يدور الحارس فيه ككلب تقيده سلسلته ... اما الساحة فكانت مليئة بالخنادق والحفر التي طاف ملء احداها بوحل مخضر ... وعن يمين ذلك ، كانت بحيرة دوكوف حيث حفر خالاي مرة ، كما روت لي جدتي فيما بعد ، ثغرة في الجليد يريدان القاء والدي فيها ... وثمة درب ضيق جانبي ينفتح مقابل نافذتي تماما ، تحف به منازل صغيرة كثيرة الالوان تنتهي عند كنيسة الاقمار الثلاثة ، وهي بناء ضخم يجثم على الارض بثقل وارهاق . كنت اذا نظرت من نافذتي باستقامة بدت لي السقوف اشبه بقوارب متلونة مقلوبة تسبح فوق امواج الحدائق الخضراء وتعوم .

وكانت دور شارعنا الغبراء التي جرد لونها بفعل رياح فصول الشتاء الطويلة ، والتي طالما اغتسلت بأمطار الخريف اللامنتهية ، تتراكم متراصة الى بعضها كجماعة من المتسولين عند بوابة الكنيسة ، تسترق النظر بنوافذها الناتئة وكأنها مثلي تنتظر شيئا ما ، والناس القلائل الذين وقع بصري عليهم يقطعون الطريق مبطئين ، وكأنهم تلك الصراصير الناعسة تتسلق جدران الموقد لتأوي الى الظل مرتاحة اليه .. وشرعت حرارة خانقة تهب على نافذتي ، تحمل في طياتها رائحة غريبة كريهة في مزيج من فجل الربيع وجزره. وما زلت اذكر ، حتى هذه الايام الحاضرة ، ان تلك الرائحة لم تكن تطاق ، وانها بعثت في نفسي مقدارا عظيما من كآبة لا مبرر لها ولا سبب .

كان المنظر مملا ، مملا حتى ليصعب احتماله ، فاذا بصدري يزدحم بشيء أشبه بالرصاص السائل ثقلا ، راح يضغط على أضلاعي حتى صور لي انني سأنفجر مثل اناء مليء بالبخار ، تضيق تلك الغرفة الصغيرة الشبيهة بالنعش عن استيعابه .

وفجأة ، لمحت خالي ميخائيل يبرز من وراء أحد المنازل الشهباء في زاوية الدرب الجانبي ، وقد غاص رأسه في قبعته حتى الاذنين . كان يرتدي معطفا قصيرا ، وحذائين يبلغان ركبتيه غطاهما الغبار تماما ، وقد اختفت احدى يديه في جيب سرواله ، بينما أمسكت الاخرى بلحيته تشد عليها بحنق وغيظ . ولم استطع ان أميز ملامح وجهه ، ولكن مظهره كان يوحي بانه يستعد لان يقفز حلال الشارع ، ويغمد مخالبه السوداء المليئة بالشعر في منزل جدي . وكان يجب علي أن أهبط الدرج بسرعة لاخبرهم بمجيئه ، ولكني لم استطع سبيلا الى انتزاع نفسي بعيدا عن النافذة ، بل رحت أراقبه يتقدم بحذر شديد ، يعبر الشارع وكأنه يخاف على حذائيه الرماديين ان يتسخا ، ومن ثم بلغ سمعي قرقعة الزجاج وصرير المفصلات وهو يفتح باب الحانة وينسل الى داخلها .

هبطت الدرج اربعا اربعا ، وطرقت باب غرفة جدي ، فصاح العجوز بخشونة دون ان يفتح الباب :

— من هناك ؟ انت ؟ حسنا ؟ ادخل الى الحانة ؟ ماذا تقول ؟ لا بأس ! عد من حيث أتيت ...

— انـي خائف !...

— لا حيلة لي في ذلك .

فرجعت ادراجي الى النافذة ...كانت الظلمة قد ابتدأت تنتشر ، فازداد غبار الطريق كثافة وسوادا . وتدحرجت من النوافذ أضواء مصفرة راحت تنتشر كبقع زيتية متزايدة الاتساع ، وتصاعد من المنزل المقابل ضجيج موسيقى بعضها جميل مفرح ، وبعضها الاخر كئيب محزن .. وكان أحدهم يغني في الحانة ، وكلما فتح الباب تناهى الى سمعي صوت منكسر متعب اعرف فيه صوت المتسول نيكيتوشكا الاعور ، وهو شيخ ملتح اغمضت عينه اليسرى ، بينما اشبهت اليمنى فحمة حمراء تنفث لهبا . وكان اصطفاق يطغى على غنائه ، فنصمت الاغنية وكأنها قطعت بضربة فأس قطعا مباغتا ...

كانت جدتي تحسد ذلك المتسول ، وحيثما كانت تسمع اليه يغني تتنهد وتقول :

ــ ما أسعده في هذه النغمة، اذ يعرف جميع هذه الاغاني الرائعة !

وكانت تدعوه الى ساحتنا أحيانا ، فيجلس على عتبة الباب مستندا الى عصاه ، يغني منظومات من الشعر ، بينما تقبع جدتي بالقــرب منه تقاطعه بأسئلتهـــا المتعددة :

ــ اتعني انك تود أن تقول ان العذراء الطاهرة ظهرت في ريازان ؟

فكان يجيب واثقــا :

وزحفت على طول الشارع موجة من ضنى ناعس غير مشعور بها ضيقت الخناق على قلبي ، وراحت تعمل على اغلاق عيني . لو ان جدتي تاتي فقط! او حتى جدي ايضا ! اي رجل كان ابي حتى يبغضه خالاي وجـــدي هكذا ، في حين تتحدث جدتي وجريجوري والمربية يفجينيا عنـــه بكل ما هو جميـــل ولطيف ؟ واين هي والدتـــي ؟

اضحيت ، في المدة الاخيرة ، افكر فيها أكثـــر فاكثر ، أتصورها بطلـــة سائر قصص جدتي وأساطيرها . وكان صدوف أمي عـــن العيش مع عائلتها يكفي وحده ليرفع من قدرها في عيني ، ويضاعف من احترامي لها ، فاتخيل انها تحيا مع عصابة من قطاع الطرق في أحد الحانـــات ، يسرقون الاغنيـــاء ويوزعون ما نهبوه على الفقراء من الناس ، او لعلها تعيش في كهف في الغابة، مع عصابة من اللصوص طيبي القلوب طبعا ، تطبخ لهم طعامهـــم وتحرس ذهبهم المسروق ، او اني اراها هائمة على وجه الارض ، تضرب في أرجائها وتعدد كنوزها مثل ينجاليتشيفا « الاميرة اللصة » ، تصحبها العذراء المقدسة التي تهمس لها باستمرار ، كما كانت تفعل للاميرة اللصة :

« أنا لم أجرد أرضنا عبثـــا ،

مما حواه كنزهـــا الذهبي ..

يا من سرقت المـــال لاهية ،

قومي ، واخفي العار ، وانتحبي ! »

فتجيبها والدتي بكلمات الاميرة اللصة :

« اغفري لي ، أم الاله ، طموحـــي ،

وارحمي نفسي ، واصفحي عن ذنوبي !

فأنا لم اسرقه من اجل روحـــي ،

انما كـــان لابنـــي المحبوب ! »

وعندئذ تسامحها العذراء المقدسة . وهي التي تحمـل قلبا نقيا طيبا كقلب جدتي ، وتقول لهـــا :

« دعي الكهف ، فارفارتي ، واخجلي ،

وهيـــا اتركـــي الان اولئكـــا !

ولا تسرقي مـــال جـــارك الا

اذا كنت محتاجـــة ذلكـــا !

واياك ان تلعنـــي أبـــدا ! ...

واياك ان تظلمـــي احدا ! ... »

وغرقت في ذكريات هذه الاساطير كما يغرق المرء في حلم لذيذ عذب . ولكن زعاقا ، وضجيجا ، وهتافات واردة من الحانة والساحـــة في الاسفـــل بعثتني من غفوتي ، فانحنيت على حافة النافذة لارى جدي ، والخال ياكوف، وشخصا اخر من مستخدمي الحانـــة تبعث هيئتـــه على الضحك ، يدفعون الخال ميخائيل الثمل خلال البوابة الى الطريق . كان يشق طريقه متعثرا ؛ فيركلونه ، ويلطمونه على الذراعين ، والقفا ، والكتفـــين ، حتى ذهب اخيرا يتدحرج في غبار الطريق ... واغلقت البوابة وارتجت بالمزلاج والمتراس ، والقي بقبعة الخال السكران من فوق الحاجز . ثم اضحى كل شيء هادئا صامتـــا .

وبعد ان اضطجع خالي ميخائيل المنهول المهلهل ساكنا فترة من الزمن. عاد فانتصب على قدميه ، وتناول حجرا من الارض تقذف البوابـــة به محدثا بذلك دويا أشبه بصوت برميل فارغ على الارض ، فاندفع من الحانة اناس سود الوجوه ، يتزاحمون ويشرئبون باعناقهم وهـــم يحركون أذرعتهم فـــي الفضاء ، كما اطلت بعض الرؤوس من نوافذ المنازل ، واصبح الشـارع يعج بالصياح والضحك . كان كل ذلك ساحرا حلوا كاحدى اساطـــير الجنيات ، لكن مزعجا في الوقت ذاته ، ومخوفا ايضا ...

وعلى حين غرة انتهى كل شيء ، وانصرف الجميع ، وخيم السكون .

... وهذه جدتي متكورة على صندوق للثيـاب ، محدودبـة الظهر ، عديمة الحركة ، تكاد لا تتنفس ، وانا اقف قبالتها اربسـت على خديها الناعمين الدافئين النديين ، دون ان تلقي فيما يبدو الى ذلك بالا ، وهي تتمتم بائسة باشياء كثـيرة :

ـــ رباه العزيز . الم يكن لديك ما يكفي من العقل لتوزعه علينا ، انا واولادي ؟ رباه ، كن رحوما بنـا ...

. . .

احسب ان جدي لم يعش في منزل بوليفوى اكثر من سنة واحدة ـــ من الربيع الى الربيع فقط . ولكن الدار اكتسبت ، في تلك المدة القصيرة ، شهرة سيئة للغاية . فكان الصبية يأتون بوابتنا متراكضين متزاحمين ، في كل احد تقريبا ، فيتجمهرون ويأخذون بالهتاف مبتهجين فرحين :

ـــ هناك معركة جديدة في دار آل كاشرين !

وكان الخال ميخائيل يأتي ، بصورة عامة ، في كل مساء تقريبا ويبقى طوال الليل ، جاعلا من المنزل هدفا لحصاره ، ومن سكانـه فريسة للقلق الدائـم ...

وغالبا ما يصطحب معه مساعدين او ثلاثـة ، وهـم فتيان بائسون يستخدمهم في معمل كونافينو ، فيتسلقون السور سويـة ، ويهبطون الـى الحديقة حيث يطلقون العنان لما يمليه عليهم خالي الثمل ، فيقتلـون جذور الفريز ، والاغصان الخضراء ، وكل ما يقع في مـتـاول ايديهـم . وفي ذات مساء ، انقضوا على غرفة الغسيل يحطمون كل ما ايمكن تحطيمه فيها ، من الرفوف حتى المقاعد والقدور . واخذوا معهم الموقد بعد ان اقتلعـوا بلاط الارض ، وخلعوا الباب واخشاب النوافذ .

وكان جدي يقف الى النافذة ، صامتا ، مكفهر الوجه ، يصغي اليهم وهم يدمرون ممتلكاته ، اما جدتي فتركض عبر الساحة ، حيث تغيـب في الظلمة فلا يبلغنا منها سوى صوتها المتوسل .

ــ ميخائيل ! فكر فيما تفعل ، يا ميخائيل !

فتتلقى الجواب سلسلة من الاوساخ والشتائـــم الروسية البلهاء التي يتجاوز معناها ، من دون ادنى ريب ، افهام ومشاعر تلـــك الحيوانات التي تقسيء بهـــا .

لم يتبادر الى ذهني ابدا ان الحق بجدتي في مثل تلـــك اللحظات : كان ذلك مستحيلا ، ولكن البقاء دونها امر مرعب حقا ، فامضي الى غرفة جدي ، ولكنه يزعق في وجهي بقسوة :

ــ اخرج من هنا ، ايها الملعـــون !

فاسرع الى الطابق العلوي ، اتفرس في ظلمة الحديقة ، مثبتا بصري في جدتي ، ساعيا الا تضيعها عيناي ، وانا اصيح واناديها خوفا من ان يفتكوا بها . ولكنها تأبى الرجوع ، بينما يطلق خالي الثمل على امي ، لدى سماعه صوتي ، كل ما في جعبته العامرة من الشتائم الدنسة والسباب البذيء .

وحدث ان مرض جدي ذات مساء ، فتمدد في فراشه وراح يعول بشكل يقطع نياط القلب ، وهو يؤرجح رأسه الى الامام والخلف فوق الوسادة :

ــ اهذا ما عشت له ، واخطأت من اجله ، وادخرت المال في سبيله ؟ لولا الخوف من العار لاستدعيت الشرطة ، وسقتهم امام المحكمة . . . يـــا للفضيحة ! من ذا الذي سمع ابوين يسلمان اولادهما للشرطة ؟ لم يبق امامك اذن ، ايها العجوز ، الا ان تتحمل كل شيء او تظـــل مضطجعا هنـــا دون حـــراك ! . . .

وفجاة رمى قدميه عن حافة السرير ، ومضى يخـــب الى النافـــذة . فصاحت جدتي ، وقد امسكت به من ذراعه :

ــ قف ، الى اين انت ذاهب ؟

فأمرها ، وهو يكاد يختنـــق :

ــ اعطني قنديـــلا !

فاشعلت جدتي شمعة قدمتها اليه ، فامسك بها كالجنـــدي اذ يمسك

بندقيته ، وصاح هازئا من خلال النافذة :

ـــ تفو ، مبشكا ! يا سارق الليل ! ايها المجنون ! ايها الكلب المستكلب !

فاذا بلوح من زجاج النافذة يتهشم في اللحظة نفسها ، وتقع نصف آجرة على المائدة قرب جدتي . فهتف جدي في حالة لم ادر على الضبط ان كانت بكاء أم ضحكــا :

ـــ لقد اخطأت الهـــدف !

فالتقطته جدتي بين ذراعيها كما تفعل بي ، واحتملته الى السرير ، وهي تغمغم بصوت مرنجـــف :

ـــ ماذا تفعل بحق المسيح ؟ لو حدث شيء لكانـــت سيبيريا تنتظـــره ! اتظنه يدرك ماذا تعني سيبيريا عندما يكون في مثل هذه الحال ؟

واضطجع الجد ، ترتجف ساقاه ، وهو يبكي بصوت خشن :

ـــ فليقتلنـــي ...

ودفدف من الخارج صوت زمجرة وغضب وصخب ... فاختطفت قطعة الاجر عن الطاولة ، وركضت الى النافذة ... ولكن جدتي امسكـــت بي ، ودفعتنى الى الزاوية ، وهي تفـــح :

ـــ ايها الابله الصغـــير !

وفي مرة ثانية تسلق خالى الباب الخلفي ، وشرع يضرب عليـــه بهراوة غليظة ، ووقف جدي في الصالة ينتظره ، يعضده اثنان من الجيرة ، يحمل كل منهم هراوة في احدى يديه . وكانت هنـــاك ايضا زوج صاحـــب الحـــان البدينة ، تحمل حبلا طويـــلا مدورا . اما جدتـــي فقد وقفت خلـــف الجميع تتوســـل :

ـــ دعونى اصل اليه ... دعوني اقل له كلمة واحدة ...

ورفع جدي هراوته متهيئا لكل طارىء ، وقـــد مد قدما الى الامـــام ، فاضحى بذلك شبيها بالفلاح حامل الرمح في لوحة « صياد الدببة » . وعندما

مضت جدتي اليه دفعها عنه ، بصمت ، بقدمه ومرفقه ... كانوا ، أربعتهم ، يقفون في وضع وعيد ، وتهديد ، وارتقاب ... وكان قنديل مثبت في الحائط فوق رؤوسهم يضيء وجوههم بشعاعاته الملونة . اما انا فوقفت أراقب ذلك من الطابق العلوي ، تفعمني الرغبة في ان اخطف جدتي الى جانبي ، بعيدا عن ذلك المكان المرعب .

ظل خالي يضرب الباب ثائرا ، حتى تحطمت مفصلته السفلية وانهارت فتركته معلقا بالمفصلة العلوية وحدها ، وهي الاخرى تهدد بالانهيار بين لحظة واخرى . واتجه جدي الى معاضديه ، وقال لهم بذات الصوت المتكسر:

ــ اضربوه على يديه وساقيه ، وحذار من اصابته في راسه . انتبهوا !

كان بالقرب من الباب نافذة صغيرة لا تسمح لاكثر من الراس بالمرور من خلالها ، فكسر خالي زجاجها ، وتركها فاغرة فاها في الظلمة ، مزركشة بشظايا الزجاج المكسور كمين مقلوعة . فركضت جدتي الى هذه النافذة ودفعت يديها خلالها ، ولوحت بهما لميخائيل وهي تقول :

ــ ميشا ، بحق المسيح ، أرجع من حيث اتيت ! سيعطلون احد أعضائك ان بقيت ! ارجع !...

ولكنه ضربها بهراوته ... واستطعت ان ارى شيئا ثقيلا يومض قرب النافذة يصيب ذراعها ، فاذا بها تسقط على الارض ، وهي تصيح مرة ثانية:

ــ ميشا ، اهرب ...

ثم تكومت على نفسها ، وصمتت ...

وصرخ جدي ، في صوت مخوف :

ــ آه ... اماه !

وفتح الباب ، واندفع خالي ميخائيل منه الى الداخل ؛ ولكنه سرعان ما ترنح وسقط على العتبة ككتلة من طين .

وحملت زوج صاحب الحان البدينة جدتي الى غرفة جدي حيث تبعها بعد قليل ...
سأل مغتما ، وقد انحنى عليها :
ــ هل كسر العظم ؟

فأجابت ، دون ان تفتح عينيهــــا :

ــ يبدو كذلك ! ولكن ، ماذا فعلتم به ــ ماذا فعلتم به ؟

فصاح الجد غضبــــا :

ــ استردي عقلك ، يا امراة ! اتظنين انني وحش مفترس ؟ لقد قيدناه، وهو يضطجع الان في الخارج ، في الاسطبل . لقد صببت سطلا من الماء على وجهه ... يا لذلك الشيطان الذي انجبته ! ترى من أين جئت به ؟

فتأوهــت جدتي ...

وقال جدي ، وهو يجلس الى جانبها على السرير :

ــ لقد ارسلت في طلب المجبرة ، حاولي ان تتحملي ذلك بعض الوقت. انهما سيحملان الموت الينا ، يا اماه ! انهما سيؤديان بنا الى المقبرة قبل ان يحين اجلنـــا !

ــ اعطهما كل شيء .

ــ وفارفــــارا ؟

استمرا في الحوار مدة طويلة ، جدتـــي بصوتها الهادىء الحزيـــن ، وجدي بصوته النزق الغاضب .

وأخيرا ، ظهرت امراة صغيرة حدباء ، يمتد فمها من الاذن الى الاذن ، مفتوحا أبدا كفم السمكة فوق فكها الاسفل الذي يرتجـــف دون انقطـــاع ، يشطر منخر حاد بارز شفتيها العليا حتى ليخيل الى الناظر اليه انه يسعى الى الارتماء في احضان الجوف الفاغر فاه . أما عيناها فصغيرتان غائرتان ، تستحيل رؤيتهما . ولم تكن تمشي ، بل تزحف بالاحـــرى على الارض متكئة على عكازين ، وهي تحمل في احدى يديها حزمة صغـــيرة يصدر عنها رنـــين غريـــب ...

ظننت انها الموت يزحف نحو جدتي ، فاندفعت اليهـــا اصيح بكل ما في مـــن قـــوة :

ــ اخرجي من هنـــا !

لكن جدي اختطفني ، وحملني بين ذراعيه ، وصعـــد بي الى الطابـــق العلـــوي .

٧

ادركت في وقت مبكر جدا أن اله جدي يختلف كل الاختلاف عن اله جدتي . فقد كانت هذه الجدة ، بعد ان تستيقظ صباحا ، تظل في السرير مدة طويلة تمشط شعرها المدهش ، فيهتز راسها ، وتصر اسنانها ، وهي تسرح خصله الحريرية السود الطويلة ، وتلعنها بصوت خفيض خشية ايقاظي :

فليصبك الجدري ... فليصبك الطاعون ... فلتحل اللعنة عليك ..

وكانت تصدف احيانا عن تصفيفه فتجمعه ، دون عناية ، في جديلة واحدة ، وتعجل بالاغتسال ، وجمجمة غضب تند عنها طوال الوقت ، ثم تجثو تجاه الايقونات دون ان يمحي عن وجهها العريض ما ارتسم عليه من آثار الغيظ والنوم . وعندئذ يبدأ اغتسالها الحقيقي الصباحي الذي ينعشها تماما ، ويرد عليها ، بصورة مفاجئة ، حيويتها كاملة غير منقوصة ... واذا بها تقوم عمودها الفقري ، وتشمخ براسها الى العلاء ، وترمي به الى الخلف، قليلا ، وترنو بحنان الى وجه عذراء قازان المدور ، ومن ثم ترسم اشارة الصليب بحماسة زائدة وهي تهمس :

— أيتها العذراء المباركة ، يا أم الاله المجيدة ، امنحينا بركاتك في هذا اليوم الجديد ...

ثم تنحنى حتى تلامس جبهتها الارض ، ومن ثم تنهض ببطء ، وتعود تهمس في حمية عظيمة ، وحنان متزايد ابدا :

— يا ينبوع السعادة والفرح ، ايها الجمال الطاهر ، يا شجرة تفاح في اوج ازدهارها ...

كانت تجد في كل صباح كلمات جديدة من المديح والعبادة ، مما يجعلني

اعني بصلواتها ، فأعيرها اذني بانتباه زائد :

ــ أيها القلب العزيز الفائق الطهارة والالوهية ... يا ضياء نفسي ، يا حارسة مأواي ، يا شمس السماء البهية الذهبية ، يا أم الحبيبة ، انقذينا من تجارب الشيطان الماكر ، واحميني من أن أهين أحداً ، أو أتلقى الاهانة من اي انسان دون ضرورة او فائدة ....

وتبرق ابتسامة لطيفة في عينيها السوداوين ، فيخيل الي انها تستعيد صباها وشبابها ، ثم ترسم اشارة الصليب بحركة رزينة من يدها الثقيلة ، وتستطــرد :

ــ يا يسوع الحبيب ، يا ابن الله ، ارحمني انا الخاطئــة بشفاعــة والدتك الطاهرة ...

كانت صلواتها ، دوما ، ذبائح من التمجيد والثناء ، تصدر عن قلب نقي ساذج طاهر ... ولم تكن تطيل صلاة الصباح كثيرا ، اذ لا بــد من القيام الى أعمال البيت ، وفي المحل الاول تهيئة السماور ما دام جــدي قد استغنى عن معونة الخدم ، فاذا حدث ان تأخرشاي الصباح عــن الموعد المحــدد كافأها جدي بسيل من اللوم والتقريع لا ينتهي .

كان يستيقظ ، في كثير من الاحايين ، قبل جدتي ، فيصعد اليها فــي الطابق العلوي حيث يجدها غارقة في صلواتها ، فيرهف السمع بعض الوقت في سكون ، وقد تراقصت على شفتيه الضيقتين ابتسامة احتقار ، ثم يخاطبها ــ فيما بعد ــ ونحن نتناول طعام الافطار :

ــ كم مرة علمتك الصلاة ، أيتها الغبية المجــوز ؟ ومع ذلك فانــت تصرين ، في عناد ، على تلاوة سخافات من ابتكارك كما يفعل الهراطقة تماما! كيف يستطيع الله ان يرضى بذلك ؟ هذا ما يفوق ادراكي !

فتجيب جدتي في ثقــة :

ــ اما هو فيفهم ... فالمرء يستطيع ان يقول له كل ما يشاء ، وهو يفهمه بكل تأكيد ...

ــ انك لمجنونة ، تلك هي حقيقتك ! تفــو !

كان الهها يصحبها طوال اليوم ، حتى انها تحدث الحيوانــات عنه .

وكنت اشعر ان سائر المخلوقات ، من بشر ، وكـــلاب ، وطيور ، ونحـــل ، وحتى النباتات ايضا ؛ تخضع لذلك الاله القادر على كل شيء في غير عسر او صعوبة ، اذ كان لطيفا لكل حي على الارض ، وعزيزا عليه بالتالي .

وحدث ، ذات يوم ، ان قط زوجة صاحب الخان المدلل — وهو حيوان شرير ، سيء الطباع ، رمادي اللون ، ذهبي العينين ، يحبه الجميع بالرغم من انه خبيث متملق ، ولص اكول جشع بالاضافـــة — حدث ان هذا القط اصطاد احد الزرازير ، فانتزعت منه جدتي الطائر المسكين ، واتجهت اليه غاضبة توبخه بقولهـــا :

افلست تخاف الله ، ايها الحيوان الشنيع ؟ تلك هي مصيبتك ، ايهـــا البائـــس !

فضحك البواب وزوج صاحب الخان البدينة من جدتي لهذه الكلمات ، ولكنها صاحت فيهما بنـــزق :

— اتظنان ان الحيوانات لا تعرف الله ؟ ان اقلهـــا قيمـــة يعرفه كمـــا تعرفانه ، انتما ايها المخلوقان الفظان !

وعندما كانت تسرج الحصان « ساراب » السمين ، لم تكن تتأخر عن التحدث اليـــه :

— لم انت حزين هكذا ؟ لم انت حزين هكذا ، يا خادم الله ؟ لقد هرمت على ما اعتقـــد ؟ . . .

فيزفر الحصان ويهز راسه . . .

ولكن اسم المولى ، بالرغم من ذلك كله ، لم يكن يتـــردد على شفتيها بمقدار ما كان جدي ينطق به . ولقد اصبحت افهم اله جدتـــي ، فلم يعـــد يخيفني البتة ، ومع ذلك كنت لا استطيع الكذب في حضرته : تلك تكون فضيحة اذن ! واتقاء لهذا العار لم اكذب على جدتي ابدا . ولقد كان يستحيل تماما ، بالاضافة ، اخفاء اي شيء عن ذلك الاله اللطيف ، وفي ذكرياتي انني لم اشعر قط بميل الى ذلـــك .

وحدث مرة ان تخاصم جدي وزوج صاحب الخان ، فشملت هذه جدتي البريئة في قدحها وذمها ، لا بل بلغ الامر بها ان ضربتها بجزرة كبيـــرة ، فلم تفعل جدتي اكثر من ان قالت لهـــا :

ـــ انك حمقاء ، يا سيدتي العظيمة !

ولكني استأت كثيرا من تصرف تلك المرأة تجاه جدتي ، وقررت ان اثأر لها ... فظللت ، مدة طويلة ، افتش عن احسن طريقة أنال بها من تلك المرأة البدينة ، الحمراء الراس ، المزدوجة الذقن ، والتـي كان يستحيـل على الانسان ان يرى عينيها الغارقتين في كتل الشحم الكثيفة .

كنت اعرف ، من مراقبتي لسائر مراحل الحروب المهلكـة التي تنشب بين الجيران ، ان الثار يكـون عادة اما بقطع اذناب القطط ، او تسميـم الكلاب ، او قتل الفراخ الصغيرة ، او التسلل الى اقبية العدو ليـلا وصب الكاز في براميل مخال الخيار والملفوف واواني المؤونـة ، او نزع السدادات عن براميل الكفاس الصغيرة . ولكن هذه الطرق لم ترق لي : كان لا بد من اختراع شيء جديد اكثر تأثيرا ، واشد هولا .

واخيرا قر رايي على التدبير التالي : انتظرت مـرة زوج صاحب الحان البدينة حتى سعت الى القبو طلبا لحاجة ما ، فاغلقت الباب خلفها واقفلته ، وقمت برقصة الثأر عنده ، ثم القيت بالمفتاح على السقف . ومن ثم اندفعت باقصى سرعة الى المطبخ حيث كانت جدتي تهيء الطعام . ولم تفهم بادىء الامر سببا لحماستي ، حتى اذا اكتشفـت ذلك صفعتنـي عدة مـرات على الاماكن المعينة لهذا الغرض ، ثم جرتني الى الساحة وارسلتني الى السطح طلبا المفتاح . فجئت به صامتا ، مذهولا من هذه الخاتمة غير المنتظرة ، ثم هربت الى احدى زوايا الساحة ، حيث رحت اراقب جدتي تطلق سراح الاسيرة التي جاءت الي برفقتها ، وكلتاهمـا تضحكـان برقة ، فكأنهمـا صديقتـان حميمتـان .

وهددتني زوج صاحب الحان البدينة ، وهي تهز قبضتها الغليظة فـي وجهي ، وان ظل وجهها الابله يبتسم بلطف وحنان ووداعة :

ـــ سوف انتقم منك يوما ما ، ايها العفريت الصغير !

وجرتني جدتي من عنقي ، وقادتني حتى المطبخ ، وسألت :

ـــ لم فعلت ذلـك ؟

ـــ الم تضربك بجزرة ؟

ـ آها ... لقد فعلت ذلك من اجلي اذن ، اليس كذلـك ؟ ساحفظ ذلك لك ، ايها الصغير ، فارميك تحت الموقد بصحبة الفيران ، وعندئذ تسترد بعض الاحساس ! لقد جعلت من نفسك فارسا اذن ! تعالوا يا قوم وانظروا هذه المفقاعة قبل ان تفجر ! ... ولو اخبـرت جدك بذلك ، افلن يسلـخ الجلد عن قفاك ؟ هيا ، اسرع الى الطابق العلوي الان والـق نظرة على كتبـــك ...

لم تحدثني ابدا بقية ذلك النهار ، لكنها جلست مساء ، قبل ان تجثو للصلاة ، على حافة سريري ،وقالت هذه الكلمات التي لن انساها :

ـ اصغ ، ايها الطير الصغير ، وتذكر دوما ما ساقول لك : لا تتدخل ابدا في امور الكبار ، فالكبار جماعة شريـرة مفسودة امتحنتهـا المعتبـات والتجارب ، أما انت فضعيـف بعد ، وعليـك اذن ان تعيش حسب سنك الصغيرة ومعلوماتك الحاضرة ، وتتصرف حسب ما يمليه عليك قلبك الطاهر حتى يجد الرب من الموافق ان يلمس قلبك ، ويبين لك واجبك ، ويقودك الى الدرب التي يجب ان تسير عليها ... افاهم أنت ؟ فالله يحكـم ويقتص ، وذلك شأنه وليس شأننا ! اما من يستحق اللوم على هذا الامر او ذاك فليس من شأنك ابـدا !

والتجأت الى الصمت لحظة استنشقت خلالها بعض السعـوط ، ثم ضيقت عينها اليمنى ، واضافت :

ـ واؤكد لـكان الله نفسه يصعب عليه ، في اغلب الاحيان ، ان يميز البريء من المذنـب ...

فسألت مذهولا :

ـ لم ، الا يعرف الله كل شيء ؟

فاجابت بكآبـة :

ـ انه لو كان يعرف كل شيء ، اذن لامتنع الناس عن ارتكاب العديد من الامور . انه يجلس هناك في السماء ، يراقبنا نحن الخطاه على الارض، وكثيرا ما يذرف بعض الدموع ، وهو يتأوه ويقول : آه ، يا ابنائي ، يا ابنائي الاحباء المساكين.! لكم يتألم من اجلكم قلبي !

وبكت بدورها ، ثم مضت ، دون ان تجفف عينيها ، الى زاوية الايقونات وشرعت بالصلاة ...

ومنذ ذلك الحين ، امسى الهها عزيزا على قلبي وغاليا اكثر من ذي قبل ، واقرب الى ادراكي وفهمي ايضا ...

• • •

كان جدي يعلمني في دروسه ان الله يعرف كل شيء ، ويرى كل شيء ويوجد في كل مكان ، وهو على استعداد لمساعدة الناس في سائر مشاكلهم الطارئة . ولكنه كان يصلي باسلوب يختلف كثيرا عن اسلوب صلاة زوجه ... فهو ، قبل ان يتلو صلاته صباحا ، يغتسل بعناية ويرتدي ثيابه ، ويصفف شعر راسه ولحيته الحمراء بتأنق فائق ، ولا يتجه نحو زاوية الايقونات — الامر الذي يفعله خلسة دوما فيما يصور لي — الا بعد ان يصلح من وضع قميصه امام المرآة ، ويعقد ربطة عنقه السوداء فوق صدريته الناصعة البياض وكان يقف ، على الدوام ، في ذات البقعة من الارض الخشبية حيث تركت اقدامه اثرا يشبه عين الحصان الى حد بعيد ، فيسمر ذراعيه الى جانبيه كالجندي ، ويظل فترة من الوقت غارقا في بحر من الصمت عميق ، خاشع الراس ، منتصب القامة ، نحيل الجسد ، اشبه ما يكون بمسمار كبير ، ثم يتمتم بتأثر :

— باسم الاب والابن والروح القدس !

وكان يخيل الي ان سكونا خاصا يرين على الغرفة بعد تلك الكلمات — حتى ان الذباب نفسه يروح يوز بهدوء اعظم ! ...

ويرمي براسه الى الخلف حتى توازي لحيته الذهبية الارض ، ويعقد ما بين حاجبيه ، ويأخذ بتلاوة صلواته بصوت رزين وكانه يستعيد امثولة عليه ان يحفظها عن ظهر قلب ، وهو يشدد على الكلمات كمن يضن بها :

— وسيجيء يوم الحساب ، على غير انتظار ، وعندها تنكشف اعمال البشر ...

ويشرع يضرب صدره بلطف ، ثم يلتمس قائلا :

ـ قدام وجهك ، قدام وجهك وحدك اخطأت ... فاصرف وجهك عن خطايـــاي ...

واذ يتلو « دستور الايمان » تنطلق الكلمات من فيـــه باندفاع وعـــزم وتأخذ ساقه اليمنى بالارتجاف زمنا طويلا ، ويميـــل جسده كله في اتجـــاه الايقونات ، ويبدو كما لو كان يكبر ، وينحل ، ويقسو ...

ـ انت ، يا من ولدت المخلص العظيم ، طهري قلبي من جميع الخطايا واصغي الى انين نفسي ، واغفري لي يا ام الاله الطاهرة !

ثم يبكي بهدوء ، وتلتمع الدموع في عينيه الخضراوين :

ـ يا الهي ، دع ايماني ينب عن اعمالي ، وامح كل مآثمي ...

ومن بعد يرسم شارة الصليب عدة مرات ، بسرعة وارتعاش ، ويحني راسه مثل تيس يناطح . ويتحدث بصوت باك كئيب ... وعندمـــا سنحت لي الفرصة ، فيما بعد ، لزيارة مجامع اليهود ، ادركت ان جدي لا يختلف في صلاته عن احد الاسرائيليين ...

كان السماور يغلي منذ زمن بعيد على الطاولة ، وقد امتلأت الغرفة برائحة كعك الجاودار الحار والقشطة الطازجـــة . ان معدتي لتعوي من الجوع ... وقد وقفت جدتي مستندة الى الباب تتثـــاءب وتكشر ، ترنو الى الارض لا تحيد بنظراتها عنها ، والشمس تطل جذلانـــة فرحانة من خـــلال النافذة ، والندى يتضوأ كاللؤلؤ على الاشجار ، ونسيم الصباح العليل يحمل رائحة طرية من نبات الشمار ، والزبيب ، والتفاح الناضج .

ولكن جدي يتابع عويله ونواحه ، وهو يتلو صلواته :

ـ اطفىء نار اهوائي لانني بائس ملعون !

كنت احفظ صلاة السحر التي يتلوها ، وكذلك صلاة الغروب عن ظهر قلب ، ولذا كنت اتأثره بانتباه مركزا املا في ان يخطىء مـــرة او ينقص منها شيئا ، ولو كلمة واحدة فقط .وكانت تلك الفرص نادرة جدا ، ولكنها توقظ في دوما احساسا خبيثا بالنصر .

وعندما ينتهي جدي من صلاته ، يلتفت الينا ، ويلقي السلام :

ـ انعمتما صباحـــا !

. فننحني ، ثم نتخذ اماكننا من المائدة . . .

قلت مرة ، وقد استدرت ناحيته :

ــ لقد اسقطت اليوم كلمة « يكفيني » من صلاتك .

فسال مرتابــا :

ــ بحقا ؟ اواثق انك لا تكذب ؟

ــ نعم ! كان يجب ان تقول : « ولكن ايماني بكفيني فاستغني ب
كل شيء . . . » . ولكنك اسقطت كلمة يكفيني .

فقال ، وهو يطرف شزرا :

ــ هــم ! .

كنت ادفع غاليا ثمن ملاحظاتي هذه ، ولكنني اشعر بالظفر وال
طالما اجده متضايقا مرتبكا .

وذات يوم ، قالت جدتي مازحــة :

ــ لا ريب ان الاستماع الى صلواتك امر يبعث على الملل بالنسب
الله ، يا ابناه ! فانت تردد دوما الاشياء نفسها .

فتشدق بكلامه متوعــدا :

ــ م . . . ا . . . ذا ؟ بماذا تهذرين ؟

ــ اقول اني لم اسمعك ، منذ معرفتي بك حتى اليوم ، تخاطب
بكلمة واحدة من عندك صادرة عن قلبك

فاحمر وجهه ، واخذ يرتجف فوق مقعده ويرقص ، ثم يقفز على
ورماها باحد الصحون الصغيرة ، وطفق يزعق كمنشار يقطع زجاجا :

ــ اخرجي من هنا ، ايتها الساحرة العجوز !

كان كلما حدثني عن قوة الله التي لا تقهــر ، يشدد في الدرجة
على قسوته وهول غضبه . مثلا ، ان الناس قد اخطأوا مرة فاغرقهم
في الطوفان ، واخطأوا مرة ثانية فاحرق الله مدنهم ودمرها ، وفي مرة ث
عوقبوا بالمجاعة والطاعون فوق رؤوس الاشرار .

كان يحذرني ، وهو يقرع الطاولة باصبعه المنعظمة :

ـــ ان كل من يخرق قوانين الله لا بد ان تكون عاقبتـــه سيئة . فيحل الشقاء والخراب في داره .

وكان الايمان بقسوة الله يصعب علي جدا ، فارتاب في أن جدي يختلق تلك الاحاديث ليبعث في ليس مخافة الله ، بل مخافته هو ...

سألته بصراحة ذات يـــوم :

ـــ اتخبرني بهذه الامور لتجعلني أطيعك وحدك ؟

فأجاب بصراحة مماثلـــة :

ـــ بالطبع ! ان شيئا عظيما سيحدث ان لم تطع ...

ـــ ولكن جدتـــي ...

فأجـــاب بحدة :

ـــ لا تلق بالا لتلك الحمقاء . لقد كانت طوال حياتها مجنونة ، جاهلة، عديمة الحس السليم ، امية ... وسأمنعهـــا من التحدث اليك بمثل هـــذه الاشياء الهامة . والان ، اجـــب على هذا السؤال : كـــم طبقة يوجد بـــين الملائكـــة ؟

فأجبت ، ثم سألـــت :

ـــ ماذا تعني هذه الكلمات : « فرد من الطبقة الراقية » ؟

فنفخ بمنخره ، اسبل جفنيه ، وعض شفته ، وصاح :

ـــ أيجب ان تلم بكل شيء ؟

ثم شرح لي ذلك ، بعد لحظة قصيرة ، بصوت متردد :

ـــ ان ذلك لا يتعلق بالله ، بل هو من خصائص البشر ـــ افراد مـــن الطبقة الراقية ـــ انهم امثال موظفي الحكومة . فالموظـــف هو احد الذيـــن يعيشون من القوانين ويلتهمونها ...

ـــ اية قوانين ؟ وما هو القانون ؟

فأجاب الشيخ ، وقد ومضت عيناه الحادتان النديتان باللذة :

ــ القانون ؟ انه ، على حد تعبيرهم ، الشيء الذي يتخذه الناس عادة. فالناس يعيشون سوية ، ويتفقون فيما بينهم على ان هذا الاسلوب او ذاك ، مثلا ، افضل ما يسيرون عليه في التعامل مع بعضهم البعض ، ولذلك يتخذون منه عادة ، ويجعلون منه قاعدة ، او قانونا كما يسمونه ، مثلهم في ذلك مثل جماعة من الصبيان يتجمهرون ليلعبوا لعبة ما ، ويقررون بين بعضهم كيف سيلعبون ، فهذا الذي يقررونه يسمونه القانون .

ــ والموظفون ؟

ــ انهم يشبهون الاولاد الشريرين الذين يخرقون القانون ، مع ان حراسته أوكلت اليهم .

ــ ولم ؟

فقال ، وهو يزمجر :

ــ ذلك ما لا تقدر ان تفهمه ! انك اصغر من ان تعرف هذه الامور ثم بعود الى متابعة الدرس :

ــ ان الله يراقب اعمال الجميع . وهم يريدون شيئا ، وهو يريد شيئا اخر . ولكن ارادة الانسان مزعزعة سريعة العطب ، ويكفي ان ينفخ الرب عليها حتى يتبدد كل شيء مع الريح فكانه الهباء المنثور .

كانت هناك عدة اسباب هامة تدفعني الى الاهتمام بالموظفين ، ولذا تشبثت بوجهة نظري ، وعدت الى الكر قائلا :

ــ ان هناك اغنية يرددها الخال ياكوف تقول : « الملائكة الابرار هم خدم الله ... وموظفو الحكومة هم عبيد الشيطان ! » .

فأغلق جدي عينيه ، ووضع لحيته في راحة يديه ثم دفعها في فمه . كنت استطيع ان الحظ ، من ارتجاف خديه ، انه يضحك في سره . قال :

ــ يجب أن توضع انت والخال ياكوف في كيس من الخيش ثم يلقى بكما في النهر . ما شأنه حتى يغني مثل هذه الاغنيات ، وما شأنك حتى تستمع

اليه ؟ انها دعايات وضعها الهراطقة والمنشقون عن الكنيسة — وهم جماعة من الماجنين الاشرار .

ثم حملق في لحظة ، واضاف وهو يتنهد :

— تفو ! يا لهم من قوم !

كان يضع الهه عاليافي السماء ، يشرف من هناك على سائر اعمال البشر ، ويشركه مع ذلك في سائر اعماله ، مع عدد لا يحصى من القديسين . وكذلك كانت تفعل جدتي بالهها الخاص ، وان كانت تجهل ، فيما يبدو ، القديسين جميعا ، اللهم الا نيقولاوس ، وجاورجيوس ، وفرولا ، ولعازر ، وهم جميعا لطفاء طيبون ، قضوا حياتهم في التنقل من قرية الى قرية ، ومن مدينة الى مدينة ، يساعدون الناس ويقاسمونهم مصائبهم فلا يختلفون عنهم في شيء ، ولا يتميزون بأي عمل متفوق . وبالمقابل ، كان سائر قديسي جدي من الشهداء الذين حطموا التماثيل ، وقاموا ضد القياصرة واباطرة روما ؛ ولذلك عذبوا او احرقوا على الخازوق ، أو سلخ جلدهم عنهم وهم احياء .

— لو يساعدني الله فابيع هذه الدار بربح خمسمائة روبلا ، اذن لاقمت قداسا احتفاليا للقديس نيقولاوس !

فتضحك جدتي ، وتهمس في اذني :

— يا لذلك الاحمق العجوز ! ايظن ان لا عمل لنيقولاوس الا أن يبيع المنازل له ويبتاعها ؟!

بقيت طويلا محتفظا بتقويم جدي الكنسي ، وقد كتب في حواشيه ملاحظات متباينة بخط يده . ففي الصفحة المقابلة لعيد يواكيم وحنة مثلا ، كتب بالحبر الاحمر : « لقد تخلصنا ، بفضلهما ، من بلية عظيمة » ... وانا اذكر حقيقة تلك « البلية » .. فقد اخذ جدي يتعامل بالربا خفية ليساعد ولديه اللذين اخذت اعمالهما تسوء يوما بعد يوم ، ويأخذ لقاء ذلك بعض الحاجيات الثمينة رهنا وضمانة ... فوشى به احدهم الى الشرطة التي هاجمت الدار ، ذات مساء ، وقامت بتفتيشها ... وكان هرج عظيم ، ولكن كل شيء انتهى على خير وجه من حسن الحظ . وظل جدي يصلي حتى بزغ

الفجر ، وفي الصباح ، قبل طعام الافطار ، كتب تلك الكلمات على النقود بحضوري .

. . .

كنا نقرأ معا ، قبل العشاء ، فصولا من المزامير ، او مقطوعات من كتاب الصلوات ، او صفحات من مجلد ضخم من تأليف يفريم سيرين . فاذا انتهينا من العشاء ، عاد يصلي ثانية ، فتنثال كلمات توبته المطردة النغم زمنا طويلا ، في سكون المساء ، على وتيرة واحدة :

ـ الرب وحده اعطى ، الرب وحده اخذ ... ايها الملك الممجد الذي يموت ... لا تدخلنا في التجربة .. نجنا من الشرير .. ولتحلني دموعي من خطيئتي ...

وكانت جدتي تقاطعه في اغلب الاحيان بقولها :

ـ اوه ، كم انا متعبة ! يبدو اني سأزحف الى الفراش دون ان اتم صلاتي هذه الليلة !

ومما لا ريب فيه انني لم احسن هنا التعبير عن ذلك التمييز الصبياني الذي اقمته بين الالهين ، بل اعطيت عنه بالاحرى صورة اقرب الى السخف والعبث . وعلى كل حال فان هذا التمييز سبب لي ، فيما بعد ، الشيء الكثير من النزاع الروحي . فأنا اخاف اله جدي واكرهه ، هذا الذي لا يحب احدا ، بل يسلط عينا حادة على سائر البشر ، وينصرف اهتمامه ، قبل كل شيء ، الى اكتشاف الشر والخطيئة والرذيلة في الانسان . وكنت اشعر بوضوح انه لا يؤمن بالناس او يثق بهم ابدا ، بل هو ينتظر منهم دوما التوبة ، ويبتهج كثيرا اذ ينزل عقابه الصارم بهم ...

وفي تلك الايام ، كان التفكير في الله يؤلف غذاء نفسي الرئيسي ، فهو الجمال الوحيد الذي لقيته في هذه الحياة ، بينما سائر الانطباعات الاخرى تصدمني ، او تؤلمني بما فيها من رذيلة ووحشية . ان الله ـ واعني به اله جدتي وصديق كل حي على الارض ـ لابهى وافضل من كل شيء اخر يحيط به .

والغريب حقا ، وهذا ما كنت اعجز عن فهمه ، ان يعمى جدي عن هذا الاله الطيب القلب ...

كان النزول الى الشارع محروفـا علي لفرط ما كان يثيرني ، لا بـل يسكرني ان صح هذا التعبير . وقد كنت فيه محور الفضائح التي منشؤها حميتي ، وميلي الى القتال ، وعصياني الدائب . ولذا لم ارب صداقات ابدا، بل كان سائر ابناء الجيران يناصبونني العداء . وعندما لاحظوا اني أكره ان ادعى كاشرين ، اصبحوا يتلذذون باغاظتي فينادونني بذلك الاسم كلما لمحوني من بعيد او قريـب :

ــ ها هو ذا حفيد كاشرين ، ذلك البخيل العجوز ، آت الينا ! انظروا !
ــ ارمـوه ارضـا !

وعندها تبدأ المعركة ...

كنت قويا بالنسبة الى عمري ، ومقاتلا جريئا ... حتى اعدائي كانوا يسلمون بذلك ، فلا يهاجمونني الا مجتمعين ، فيتغلبـون على على الدوام بكثرتهم ، وانال من لكماتهم الشيء الكثير ، واعود الى الدار بأنف نازف ، وشفتين مجروحتين ، ووجه مكلوم ، وثياب ممزقة ...

وفي البيت تستقبلني جدتي ، مرتجفة ، يفيض الحنان منها :

ــ ماذا ؟ أحاربت ثانية ، ايها الجرذ الصغير ؟ سأطعمك من الضرب ما لن تنساه ! فمن أين ابـدأ ؟

وتغسل وجهي ، ثم تضع قطعـة من العملـة النحاسيـة ، او بعض الاعشاب ، أو الاملاح الخاصة ، على جروحي وهي تدمدم طوال الوقت :

ــ ما الذي يدفعك الى القتال هكـذا ؟ انت في البيت طفل هـادىء ، ولكنك تنقلب عفريتا عندما تضع رجليك في الشارع . هلا تخجل ؟ سأخبر جدك فيحظر عليك بعد الان الخروج من البيت .

وكان جدي يلاحظ آثار الضرب والجروح فلا يغضب ، بـل يقول بكل بساطـة :

ــ هل ارتديت اوسمتك مرة ثانية ؟ يا للمحارب الشجاع ! لكن ، اياك ان تسمح لي بمفاجأتك في الشارع مرة أخرى ، اتسمع ؟

لـمتكن لي رغبة في الخروج الى الشارع حـين يخيم الهـدوء والسلام

عليه ، فاذا ما بلغتني صيحات الاطفال المرحة ترتفع فيه ، نسيت تهديد الجد ووعيده ، وافلت من ساحة الدار بأي ثمن كان . ولم اكن اعني بآثار الضرب والجروح ابدا ، بل اشمئز فقط واستاء من الوحشية التي تسيطر على العاب الاطفال ، وحشية اجدها تحت مختلف المظاهر ، فتثير غضبي ، ونقمتي ، وتسوقني الى ما يشبه الجنون . . . كنت اثور كلما رأيتهم يدفعون الديـوك والكلاب الى قتال بعضها بعضا ، أو يؤذون القطط ويعذبونها ، او يطاردون تطعان الماعز التي تخص اليهود ، أو يكايدون المتسولين الثملين ويسخـرون منهم ، وخاصة ذاك التقي ايجوشا الملقب بـ « حامل الموت في جيبه » .

كان ايجوشا هذا رجلا طويل القامة ، نحيل البنية ، عابس الوجه ، ذا لحيه خشنة تتمركز شعراتها خاصة في اسفل وجهه المتعظـم ، يرتدي في جميع الاوقات ، سترة من جلد الماعز تتأرجح بشكل غريب ، ويجتاز الشارع محدودب الظهر ، مثبت العينين في الارض بقوة وعناد ، فلا ينحني يمنة او يسرة قيد انملة . كان وجهه المظلم ، وهيئته المنكمشة ، وعيناه الحزينتان تبعث في الاحترام والهيبة نحوه ، فيخيل الي ان مشاغل خطـيرة تقلق بال هذا الرجل حتى لا يجوز ابدا ازعاجه وتأخيره عن تحقيق المهمات الملقاة على عاتقـه .

وكان الصبية يتراكضون خلفه يرمون ظهره الاحدب بالحجارة . اما هو فيظل فترة طويلة من الوقت لا يعيرهم ادنى انتباه ، فكأنه لا يحس ما يكيلون له من ضربات ، حتى اذا نفد صبره اخيرا وقف ، على حـين غرة ، ورفع راسه بقوة ، وتفحص قبعته الشعثاء في حركات مضطربة ، وتطلع حوله كمن نهض من النوم لتوه . ويصيح الاطفال بـه :

— ايجوشا ! يا حامل الموت في جيبك ! ايجوشا ! الى اين تدب ؟ انظر في جيبك فقط — واخبرنا هل الموت جاثم فيهـا ؟

فيمسك ايوشا بجيبه ، وينحني على الارض ليتناول حجـرا او قبضة من التراب ، ثم يلوح بذراعه الطويل في غير اتقان ولا خبـرة ، وهو يتمتم ببعض الشتائم . وكانت جعبته من السباب ثلاث كلمات سافلة لا يعرف ان يردد سواها — اما قاموس الاطفال فكان اغنى من ذلك بشكل يفوق التصور وكان يركض وراءهم ، احيانا ، وهو يعرج ، فيعترض معطفه الطويل طريقه ويرميه ارضا ، فيقع على ركبتيـه معتمـدا بنفسه على ذراعيه القذرتـين

الشبيهتين بعصاوين جافنين . وعند ذاك يغرقه الاطفال في سيل من الحجارة، بينما يركض اليه اشجعهم ويرمي بملء يده التـــراب على راسه ، ثم يفـــر هاربــا .

لكن أشد مناظر الشارع ابلاما ، بالنسبة الي ، كانت رؤيـــة رئيس عمالنا السابق جريجوري ايفانوفيتش الذي امسى فاقد البصر تماما ، يقضي ايامه متجولا خلال البلدة يستعطى أكف الناس . كان فارع العود ، مغلـــق الوجه ، جميل الطلعة ، تقوده امراة عجوز صغيرة الجسم شائبـــة الشعر تقف به تحت كل نافذة وتهتف في صوت يصرصر ، وهي تنظر ابدا الى جهـــة اخـــرى :

ــ ساعدوا المستعطي الضرير ، محبة بالمسيح !

اما جريجوري فيظل بالصمت معتصما ، نرنو نظارتاه السوداوان بثبات الى جدران المنازل ، او النوافذ ، او وجه اي انسان يصادفـــه في طريقه ، وتروح يده الملوثة ببقايا الصباغ تداعب لحيته العريضة ، بينما تظل شفتاه مطبقتين بأحكـــام .

كنت القاه كثيرا ، ولكنني لم اسمع قط كلمـــة واحدة تصدر عن هاتين الشفتين المغلقتين ابدا ، فاتالم واتضايق من ذلك الصمت الذي لا ينتهي اكثر من اي شيء اخر . ولم اكن امضي اليهـ بل لا اكاد المحـــه حتى اعـــود الى البيت راكضا اخبر جدتي :

ــ ان جريجوري في طريقه الينـــا !

فتقول ، وقد تملكها اضطراب مؤلم :

ــ آه ، حقا ! خذ ، اركض واعطه هذه !

فارفض بفظاظة ، وعندئذ تذهب جدتي بنفسها الى البوابة ، وتقـــف هناك تتحدث اليه زمنا طويلا . كان يضحك ، ويحك لحيته ، ولكن لا ينبس ابدا ببنت شفة . وكانت جدتي تدعوه ، في كثير من الاحايين ، الى المطبخ ، فتطعمه ثم تقدم اليه الشـــاي . وسالها مرة عنى ، فنادتني ، ولكني هربت واختبات بين اكوام الاخشـــاب . لم اكن استطيع له لقاء ، بل اشعر بالخجل في حضوره ، واعلم علم اليقين ان جدتي تشعـــر نفس شعوري أيضا . وقد

تحدثنا عنه ، جدتي وانا ، مرة واحدة فقط ، بعد ان رافقته حتى البوابـــة وعادت، متمهلة الى الساحة ، محنية الراس ، تذرف الدمـــوع ... فمضيت اليها ، وامسكت بيدها ، فسالتني بهدوء :

ــ لم تهرب منه دائما ؟ انه يحبك كثيرا ، وهو رجل طيب ...

لم لا يطعمه جـــدي ؟

ــ جـــدك ؟

توقفت عن السير ، وضمتنى اليها ، وهمست بنغمة تنبؤية :

ــ تذكر هذه الكلمات : ان اللـــه سيعاقبنـــا عقابا صارما من اجـــل تصرفنا مع هذا الرجل ! عقابا صارما جدا !

ولم تكن مخطئة فيما ذهبت اليه ، اذ لم تمض عشر سنوات على ذلك، وكانت جدتي قد رقدت الى الابد ، حتى كان جدي ، وقد اضحى شقيا مجنونا ــ يستجدي في طرقات المدينة ، تحت النوافذ ، شيئا يسد به رمقه :

ــ ايتها العشيرة الطيبة ، اعطيني بعض اللحـــم ــ قطعة صغـــيرة فحسب . تفو ! يا لهم من قوم ! ...

كانت كلماته القاسية الجافة : « تفو ! يا لهم من قوم ! ... » الشيء الوحيد الذي بقي له من ماضيه ...

وبالاضافة الى ايجوشا وجريجوري ايفانوفيتش ، كانـــت هناك امراة مستهترة تدعى فورونيكا ، تدفعني الى الفرار من الشارع كلما صادفتها فيه . كانت تظهر صباح كل احد ــ ضخمة الجثة ، شعثاء الشعـــر ، ثملة ، لهـــا مشية غريبة كأنها لا تحرك قدميها اوتمس بهما الارض ، بل تطير كسحابـــة من سحب العواصف تزمجر باغان فاسقة خليعة . وكـــان القوم يهربـــون بسرعة من امامها في الشوارع ، ويختفون في الدكاكين او في منعطفات الازقة حتى ليمكن أن يقال انها تكنس الدرب من كـــل ما فيها ... وكان وجههـــا ازرق اللون منتفخا كالبالون ، وعيناها الجاحظتان الرماديتان تدوران فـــي محجريهما بشكل مرعب وساخر في آن واحد . وكثيرا ما كانت تصيح ، دون ما سبب ظاهـــر :

ـــ أين انتم ، يا أولادي ، يا أولادي !

فسألت جدتي ماذا تعنيبذلك ، فأجابت :

ـــ ذلك لا يجوز لك معرفتـــه .

ولكنها اوضحت لي ذلك ، فيما بعد ، بكلمات قليلة ...

وخلاصة القصة ان تلـك السيدة تزوجت قديمـا من موظف يدعـى فورونوف . ولكنه باعها ، طمعا في الترقية الى رتبـة عالية ، لرئيسه الذي احتفظ بها ما يقارب السنتين ، عادت بعدهما الى زوجها الاول لتجد أن طفليها ـــ وهما صبي وبنت ـــ قد توفيا ! ... وشرع زوجها بعد ذلك يقامر بأموال الحكومة العامة حتى القي به في السجن ... فأخذت المراة تشرب بنت العنب لتغرق فيها حزنها . ومنذ ذلك الحين وهي تعيش حياة العهـر والفحش ، حتى ان الشرطة تلتقطها ، كل أحد ، من عرض الشوارع .

لم يكـن هناك مجال للشك في أن المنزل افضل من الشوارع . وكنت اعشق خاصة تلك السويعات التي تلي الغداء ، اذ يمضي جدي لزيارة الخال ياكوف ، وتقعد جدتي الى النافذة تروي لي قصصا خرافية رائعة ، او تحدثني عن والـدي ...

كانت قد قصت ، في كثير من الحذق ، جناح الزرزور الذي انقذته من القطة ، واستبدلت ساقه المقطوعة بعود خشبي صغير . وعندمـا تماثل الطير للشفاء ، أخذت تعلمه الحديث ، فتقف ساعات كاملة بالقرب من القفص الموضوع على حافة النافذة ، وهي تردد الكلمات التي تود تعليمه اياها :

ـــ تعال الان ، قل : اعطيني قليلا من البرغل !

ويطرف الطير بعينه المدورة ناحيتها كما يفعل ماجـن الاسطورة ، ثم يضرب بساقه الخشبية ارض القفص ، ويمد عنقه ، ويصفر مثـل الارغن مقلدا طير ابو زريق والوقواق ، محاولا ان يموء كالقط ، او ينبح كالكلب ، دون ان ينجح في تقليد الاصوات البشرية .

وتقول جدتي باهتمام ومرح :

ـــ كف عن هذه الخزعبلات ! حاول ذلك الان ، قل : اعطيني قليلاً من البرغـــل !

وعندما كان ذلك القرد الزاهي الريش يصيـــح بشيء يشبه كلمـــات جدتي ، كانت تضحك مغتبطة ، ثم تقدم له على أصابعها كمية من البرغل ، وتؤنبه في كثير من السخرية بقولهـــا :

ـــ آه ! انا اعرفك جيدا ، أيها الماجن الصغير ! انك تستطيع ان تقول كل ما تشاء لو اردت ذلك فقط .

وهكذا علمته ان يتكلم ، فلم يمض طويل زمـــن حتى راح يطلب البرغل بوضوح تام ، وكان يهتف ، اذا راى جدتي ، بشيء ما يـــرن شبيها بكلمـــة « مرحبـــا » !

كان قفصه معلقا بادىء الامر في غرفة جدي ، ولكنه سرعـــان ما نفاه الى غرفتنا بعد أن أخذ يقلده . وكان جدي يبتهل بصوت واضح ، فاذا ذلك الزرزور ، كلما سمعه يصلي ، يمد منقاره الاصفر كالشمع من خلال قضبان القفص ، ويصيـــح :

ـــ تر . ر. ر. و. تر. ر. ر

... او. او. او.

وكان هذا يضايق جدي كثيرا .. وفي ذات يوم قطع صلواته ، وضرب الارض بقدمه ، وصاح غاضبا حانقـــا :

ـــ اخرجي هذا الشيطان من الغرفة قبل أن اقتله !

كان في منزلنا امور كثيرة تثير الاهتمام ، واشياء أخرى عديدة يطرب لها القلب . لكن شعورا عنيفا بالحزن كان يطغى علي احيانـــا فكأنه حمل وازن يئيد علي ، فيصور لي اني اغوص في قاع حفرة سوداء مظلمة ، وقد زالت حواسي ، وفقدت البصر والسمع والشعور ، أهوي ، نصف حي نصف ميت ، في الهاوية التي لا قرار لهـــا !

٨

باع جدي منزلنا ، على غير انتظار ، الى صاحب الحان وابتاع منزلا اخر في شارع كاناتنايا . . كان هذا الشارع، نظيفا ، هادئا، غير معبد ، مغطى بالعشب ، يفضي في نهايته الى الحقول ، تحف به من الجانبين منازل صغيرة زاهيـــة الالوان .

كان المسكن الجديد اكثر بهجة وانسا من السابق ، فواجهتـــه مدهونة باللون الاحمر القاتم ، تنفصل عنها بجلاء مصاريع نوافـــذ الطابق السفلـــي الثلاثة الزرق ، وشعريات نوافذ الطابق العلوي التي تنتصب ببهاء وروعة . وعن اليسار ، كان السطـــح مزخرفـــا باغصان الدردار والليمـــون . اما الساحة والحديقة فمليئتان بعدد لا يحصى من الخلوات المريحة ، تبدو وكأنها جعلت خصيصا للعبة الطميمة . راقت لي الحديقـــة بصورة خاصة ، فهي ليست عظيمة الاتساع ، ولكنها مغطاة بشجرات صغيرة ، فاتنة ، كثيفة ، متعانقة ، تقوم غرفة الغسيل في احدى زواياها ، صغـــيرة اشبه بصندوق للدمى . . . وفي زاوية اخرى ، حفرة قليلة الغور ، مغطاة بالعشب البري ، تندفع منها كتل خشبية مسودة هي بقايا حريق لغرفة غسيل سابقة . . . اما عن اليمين ، فابنية صغيرة تابعة لال بيتلينـــغ . وكانت الحديقـــة تنتهي الى اليسار باسطبلات تخص الكولونيل اوفسيانيكـــوف ، بينما الجهة المقابلـــة للمنزل قد الحقت ببناء « صانعة الالبان بتروفنا » ، وهـــي مخلوقة سمينة ، حمراء الوجه ، مزعجة ، تشبه جرسا واسعا كبيرا . كان منزلها الصغير ، الاسود ، المتهدم ، يتربع براحة على الارض ، مغطى بالطحلب من كل جانب، تطل نافذتاه على الحقول الواسعة ، ممزقتين باخاديد عميقة ، ناظرتين الى ضباب الغابة البعيدة الازرق وكان عدد عديد من الجنود يتمرنـــون ، طوال

النهار ، في تلك الحقول ، فتلمع حراب بنادقهم كالبـــرق الابيض تحت أشعة شمس الخريف المحزنة .

كانت الدار تعج بجمع من الناس لم يقع عليهم بصري مـــن قبل قط ، فالجناح الامامي يشغله ضابط تتري المولد ترافقه زوجه الصغيرة المدورة ، وكانت هذه المراة لا تنقطع عن الضحك والصياح والعزف على قيثارة مزخرفة بشتى الالوان البهية الغريبة منذ الصباح حتى المساء . وكانت تغني بصوت حاد ، رنان ، وتردد بصورة خاصة اغنية ، هذه بعض كلماتها :

« اني ، يا صاح ، لاعجب لـــك
اتعيش وزوجتـــك لا تهـــواك ؟
فتعـــال نفتش عن أخـــرى ،
عن زوج تعـــرف ان ترعاك »

وكان زوجها ، المدور كالكرة ، يجلس طويلا الى النافذة تتورد وجنتاه الزرقاوان كلما نفخ في غليونه ، يجيل عينيه البنبتين الضاحكتين الصغيرتين هنا وهناك ، ويسعل بنباح غريـــب :

ــ احـ. حـ. حـ. م !. احـ. م ! .

وكان يعيش ، في جناح صغير مبني فوق المخزن والاسطبـــل ، رجلان مهنتهما سوق العربات . . كان احدهما رجلا صغيرا ، أشيب الشعر ، ينادونه بالعم بيوتر ، أما الاخر ، وهو ابـــن أخيه ويدعى ستيبـــا ، فكـــان اطرش أبكم ، لين الخلق ، هادىء الطبع ، ذا وجه يشبـــه صينية نحاسيـــة حمراء اللون . وكان يشاركهما المسكن تتري كالح الوجه ، مرتب الهندام ، يدعى فالي . كان هذا الجمع كله غريبا علي ، فبدا لي غنيا بالامانيات الجديدة التي سلبت لبي سلفا ، وراحت تمنيني بمغامرات لا تعد ولا تحصى .

بيد ان الشخص الذي اجتذبني وسحرني اكثر من سواه هو المستاجر المتطفل « هذا رائع ! » ، الذي يشغل غرفة تجاور المطبخ في اقصى الدار ، كانت غرفته هذه واسعة طويلة ذات نافذتين تطل احداهمـــا على الحديقة ، والثانية على الساحة .

كان ذلك المستاجر باسق الطول ، منحني الجسم ، ذا لحية متشعبـــة تضاعف شحوب وجهه ، وعينين لطيفتين تحميهما نظارتان كبيرتـــان ، هادئا

على العموم ، منطويا على نفسه ، سكوتا ، كلما دعي الى العشاء أو الشاي أجاب بقوله :

ــ هذا رائع !

وطفقت جدتي تدعو « هذا رائع ! » ان يحضر للشاي !

او كانت تقول :

ــ تناول شيئا اخر ، يا « هذا رائع ! » فأنت لم تأكل كفاية .

كانت غرفته مزدحمة بالصناديق والكتب الضخمة المطبوعة بأحرف لم انجح في حل طلاسمها المعضلة . وكنت تجد ، في كل مكان ، زجاجات مليئه بسوائل مختلفة الالوان ، وقطعا صغيرة من النحاس ، والحديد ، ومساطر من الرصاص لا عد لها . وكان صاحبنا يرتدي دائما معطفا بنيا من الجلد ، وقفازين رماديين ملطخين بالدهان ، تفوح منهما رائحة كريهة ، ويقضي اليوم بطوله في غرفته ، منذ الصباح حتى المساء ، يصهر الرصاص ، ويلحم النحاس ، ويزن قطعا صغيرة من المعدن في ميزانه الدقيق ، وهو يزمجر من وقت لاخر اذ يحرق اصابعه ، فينفخ عليها ، ومن ثم يروح يحنو على بعض الاشكال الهندسية المعلقة على الحائط ، ويأخذ ــ بعد ان يمسح نظارتيه ــ يفحصها عن قرب بحيث يكاد يشمها بأنفه الناصع البياض الشبيه بالحوار . وكان يقف ، احيانا ، ودون سابق انذار ، منتصبا في وسط الغرفة أو قرب النافذة ، ويظل هكذا زمنا طويلا جدا ، مغلق العينين ، خافض الرأس ، ساكنا ، لا حراك به ...

تسلقت مرة سطح المظلة الممتدة على طول الساحة ، ورحت أراقبه من خلال النافذة المفتوحة . كنت استطيع ان أرى الي اللهب الازرق المتصاعد من فتيل مصباح الكحول الذي يشتعل فوق الطاولة ، وقد انحنت قامة الرجل فوقه ، أو أراه يكتب أشياء عديدة على دفتر ملاحظات ممزق ، ونظارتاه تلمعان ببرود في ضوء اللهب الازرق كأنهما قطعتان من الجليد .

كان العناء الذي يتحمله ذلك الرجل يسمرني على السطح طوال ساعات عديدة ، وقد تملكني فضول عنيف يعذبني بشكل غريب ... وكان يقف ، في أحيان اخرى ، مستندا الى النافذة ، وقد وضع يديه خلف ظهره ، يشخص باستقامة الى السطح دون ان يراني او يعرفني ، الامر الذي كان

بعيداني جدا . ثم يقفز فجأة في اتجـاه طاولته ، وينحني عليهـا وهو ينقب باهتمام بين الاوراق والملفات المتراكمة فوقها .

ربما كنت اخافه لو كان أكثر ثراء ، وافضل لباسا ، ولكنه كان فقيرا معدما فياقة قميصه المجعدة الوسخـة تبرز من تحت معطفـه الجلدي ، وسرواله مرقع ملطخ ببقع كثيرة الالوان ، أما حذاؤه فاسوأ من ان يلبس تبرز من خلاله اصابع قدميه العاريتين . والفقراء لا يبعثون خوفا ولا يثيرون خطرا ، هذا ما اقنعتني به شيئا فشيئا شفقة جدتـي نحوهم ، وكراهيـه جدي لهـم .

كان جميع من في الدار يكرهون « هذا رائع ! » كثيرا ، ويتحدثون عنه بسخرية فائقة : فتدعوه زوج الضابط المرحة بـ «صاحب الانف الطبشوري»، والعم بيوتر بـ « الكيميائي الساحر » ، وجدي بـ « الصيدلي بائع السحر الاسـود » .

سألت جدتي مـرة :

ــ ماذا يفعل « هذا رائع ! » ؟

فأجابت بفظاظـة :

ذلك ليس من شأنك . اعرف متى تحتفظ بفمك مغلقا .

وجمعـت ، ذات يوم ، كل ما املـك من شجاعـة واسرعت الـى نافذتـه . . .

سألته ، وانا احاول بصعوبة اخفاء انفعالي :

ــ ماذا تفعـل ؟

فبغت ، ثم شخص الى طويلا من فوق نظارتيه ، ومد لي يده المحترقة المفروشة ندوبا وجروحا ، وقال :

ــ تعال ، تسلق الى هنـا !

والواقع ان سماحه لي بزيارته من خلال النافذة بـدلا من ان يدعوني اليه عن طريق الباب ، قد رفعه كثيرا في عيني ، وزاد من تقديري له .

وجلس على احد الصناديق المبعثرة ، واجلسني قبالته وهو يؤرجحني يمنة ويسرة ، ثم سألني :

ـــ من اين جئـــت ؟

كان السؤال غريبا جدا ، فأنا اجلس بالقرب منه الى المائدة في المطبخ اربع مرات يوميا ، اجبـــت :

ـــ انى للحفيـــد هنـــا .

ـــ آه ، نعـــم !

ثم غرق في سكون عميق ، وهو يتأمل احدى اصابعه . . .

رايت من الضروري ان اوضح له الامر ، فقلت :

ـــ ولكني لست من عائلة كاشرين ـــ انا من آل بشكـــوف . الكسي بشكـــوف .

فردد ، وهو يشد على النبرات :

ـــ بشكوف ! الكسي بشكوف ؟ هذا رائع !

ودفعني عنه ، ونهض ، ثم ركض الى الطاولة وهو يقول آمرا :

ـــ حسنا ! اجلس . اياك ان تحدث ضجة ما .

جلست هناك طويلا ، طويلا جدا ، اراقبه يبرد قطعة من النحاس امسك بها بين فكي كماشـة صغيرة ، وعندما انتهى من ذلك ، جمع التراب الذهبي المتساقط على لوحة من الورق المقوى وصبه في بوتقـــة كثيفة ، ثـــم اضاف اليها قليلا من مسحوق ابيض كالملح اخذه من احـــدى الزجاجات ، واخـــيرا سكب على الخليط شيئا من قنينة سوداء اللون ، فشرعـــت محتويات البوتقة تنفح ، وتدخن ، وتغلي ، وتطلق رائحة حادة جعلتني اسعل قسرا .

سأل الساحر بفخـــر :

ـــ نعـــم !

ـــ آها . . . هذا حسن يا اخي ، هذا حسن جدا !

حاولت ان اجد في ذلك مدعاة للفخر فلم افلح . . .

قلت بعنـــف :

ـــ ما دامت رائحته سيئة فيستحيل ان يكون حسنا اذن !

فصاح ، وهو يفرك عينيـــه :

ـــ أحقا ماتقول ؟ حسنا ، ليس ما تقول صحيحا دوما ، يا أخي ! اتحب اللعب بالكعـــاب ؟

ـــ نعـــم !

ـــ اتريد أن اصنع لك كعبا من الرصاص ؟ أن احدا لن يغلبك به !

ـــ بالطبع اريـــد !

ـــ اعطني كعبك اذن !

واتجه نحوي ثانية ، يحمل البوتقة الداخنة في يده ، ثم خاطبني وهو يرنو الى بعين واحدة :

ـــ اتعدنى ، اذا ما صهرت الكعب لك ، الا تعود الى هنا مرة ثانية ؟ أتفقنـــــا ؟

فساءني ذلك كثيرا ...

قلـــت :

ـــ لست بحاجة لذلك كي لا اعود الى هنا !

ثم مضيت الى الحديقة غضبان مكتئبا ...

وجدت جدي منهمكا في تسميد الارض حول جذوع اشجار التفاح ... كان الوقت خريفا ، واوراق الاشجار تتساقط منذ أمد بعيد ...

ناولني المقص ، وقـــال :

ـــ خذ ، قص ادغال توت العليق ...

فسألـــت :

ـــ ما هذا الذي يفعله « هذا رائع ! » ؟

فأجاب غاضبـــا :

ـــ انه يخبص ، فهو يتلف الغرفة ، ويحرق الارض ، ويلطخ الجدران ، حتى لقد مزق قسما كبيرا من الورق الملصق عليها ... سأنذره بضرورة اخلاء

الغرفة نهائيا في أقرب وقــت ...

فوافقته ، وانا اشذب أطراف توت العليق :

ــ انك تفعل حسنا اذن !

ولكنني كنت متسرعا في قولي هذا ...

• • •

كانت جدتي ، في الامسيات الماطرة ، عندما يخرج جــدي الى بعض اعماله ، تحيي في المطبخ حفلات رائعة ... فتدعو جميــع الجيرة ، دون استثناء ، بما فيهم السائقين ، والعسكري ، وزوجه المرحــة ، وبتروفنــا البدينة . اما « هذا رائع ! » فكنت تجده في زاوية قرب الموقد ، حيث يجلس صامتا لا يأتي بأدنى حركة ، بينما يلعب الابكم الاصم ستيبا بالورق مع التتري فالي الذي يلطمه ، بين الفينة والفينة ، على أنفه العريض ويصيح :

ــ انت ، ايها الشيطان الهرم !

كان العم بيوتر يحمل معه رغيفا من الحنطة البيضاء ، وقطعــة مليئة بمربى توت العليق ، فيشرح الخبز ، ويصب عليه المربــى بكرم ، ثم يقدم تلك الشرائح على راحتيه الممدودتين للضيوف قائلا ، وهو ينحنــي انحناءة خفيفــة :

ــ هلا تفضلتم وتناولتم من هذا شيئا ؟

وكلما تناول أحدهم قطعة ، يفحص العم بيوتر راحته السوداء ، فان شاهد عليها قطرات من المربى اسرع فلعقها بلسانه .

وكانت بتروفنا الحلوة تجلب معها قليلا من السوائل الروحية ، والجارة الصغيرة المرحة بعض الجوز وسكر النبات . وعندها تبدأ وليمــة حقيقيــة تشرف عليها جدتي والغبطة تغمر قلبها الفرح الضاحك .

اقامت جدتي احدى هذه الحفلات بعد فترة قصيرة من محاولة « هذا رائع ! » رشوتي كي ابتعد عن غرفته . كانت أمطار الخريف الكئيبة تنسح من اعالي الجو فتضرب الارض بعنف وقوة ، وريح عاتية تهــب ، والاشجار

تلتطم وتضرب جدران المنزل باغصانها . وكان جو المطبخ دائما لطيفا ، والقوم قد تجمهروا بعضهم قرب بعض هانئين مرحبين ، وجدتي تشرف في سرد اقاصيصها الرائعة اكثر من المعتاد .

كانت تجلس على حافة دكة الموقد ، وقدماها مستريحتان على احدى درجاته تنحني على القوم ، ووجهها يشرف بابتسامة خفيفة لطيفة في ضوء القنديل الملتهب . كانت تختار ذلك المكان على الدوام كلما كانت منتعشة النفس ، متحمسة لرواية الاقاصيص ، وتقول :

ـ اود أن اتحدث من هذا المكان العالي . ذلك اسهل ، وهو يترك في النفس اثرا اعمق ايضا .

جلست عند قدميها على الدرجة الاخيرة ، تماما فوق راس « هذا رائع ! » ، وهي تروي هذه المرة قصة « ايفان المحارب » و «الراهب ميران» الرائعة ، فتأتينا كلماتها متلاحقة موزونة متناسقة كأروع الشعر :

« كان يعيش في غابر الزمان قائد شرير يدعى جورديون ، روحه خبيثة آثمة ، وقلبه كالحجر الاصم ، يكره الصدق والصديقين ، ولا يعرف الحنان الى فؤاده سبيلا ، يعيش في الشر كالخلد في كهف عميق سحيق لا يرى النور . وكان ابغض الناس الى جورديون هذا راهب متدين اسمه ميرون ، يعيش ناسكا في الصحراء ، قلبه ينبض بالسلام والمحبة ، ويتدفق دون وجل بالخير والصدق . وفي ذات يوم ، استدعى جورديون المحارب ايفانوشكا الشجاع الى مجلسه ، وقال له :

ـ اذهب الان الى العجوز ميرون ، واذبح ذلك الشيخ المتكبر ، دق عنقه ولا تخف ، ارفعه عاليا من لحيته الكثيفة ، وجئني به وليمة فاخرة لكلاب صيدي . . .

فذهب ايفان ينفذ الاوامر بطاعة ، وقلبه يعتصره الالم ، يقول في نفسه : انا لا اسير بنفسي ، وانما الحاجة تسيرني . انها الضرورة تدفعني الى ذلك ، انه النصيب المقدر لي من قبل الله . واخفى سيفه القاطع تحت ثوبه ، وجاء الى الراهب ، وانحنى امامه باحترام ، وحياه قائلا :

ـ سلاما ، أيها الشيخ الجليل . . كيف حالك ؟ اما زال الله ينسبغ

عليك نعمه ، ويصونك بحمايته المقدسة ؟

فابتسم ذلك الذي يعرف كل شيء ، ابتسم ميرون العجوز ، وسقطت من شفتيه الحكيمتين هذه الكلمات :

ـــ لست ادري ، يا ايفان ، لماذا تكذب وتريد خداعي ! لكن الله الرب يعرف كل شيء . والخير والشر ملك يده . وهو ، من دون أدنى ارتياب ، على علم بغايتك الشريرة .

فامتلأ قلب ايفانوشكا خجلا ، ولكنه خاف انتقام جورديـــون . فاستل سيفه من غمده الجلدي ، ومر بشفرته الجارحة على ثيابه ، وقال :

ـــ لقد اردت ان اوفر عنك رؤية هذا السيف ، واقتلك وانـــت في جهل مبارك من غايتي . اما الان ، وقدعرفت كل شيء ، فهيا اركع أيها الشيـــخ العجوز على ركبتيك وصل للمرة الاخيرة ، وصل لينبوع الحيـــاة ، صل من اجلي ، ومن اجلك ، ومن اجل سائر البشر ايضا ، وعندئذ اقطع رأسك ...

فجثا الشيخ على ركبتيه ، جثا تحت شتلة سنديان مالت عليه بأغصانها الخضر حادبة ، ثم توجه الى محدثه يخاطبه وهو يبتسم :

ـــ ايفان ، ايفان ! ان انتظارك سيطول كثـــيرا لان الصلاة مـــن اجل خلاص الجنس البشري لا نهاية لها ، فالافضل اذن ان تقصم حبل حياتي دون تأخير من أن تتعب نفسك بالتردد . فهيا ، عجل بالخاتمة ، وعـــد من حيث جئت سريعـــا .

وهنا قطب ايفان وجهه بغضب ، واجاب الشيخ الجليل بحنق جم :

ـــ ابدا !. ان ما قيل قد قيل ، وهكـــذا يجب ان يكـــون ! صل اذن ، وسانتظرك ولو قرنا كامـــلا .

فشرع الراهب يصلي حتى خيم الظلام الدامس ، واستمـــر يصلي من هبوط الليل حتى شروق الفجر ، ومنذ الفجر حتى عودة الظلام ، ومنذ الصيف حتى قدوم الربيع ... وتتالت الاعوام والراهب الطيب ما يـــزال راكعا تحت السنديانة التي نمت الان وراحت تطاول السماء ، وانبثقت غابة من ثمراتها ، ودعاؤه ما يزال يتصاعد دوما نحو العلاء .

وحتى هذا اليوم ، ما يزال الراهـب ميرون يصلـي ، دون كلل ، في قلب الغابة ، يسأل المعونة لكل البشر ، ويرجو العذراء أن تحنو على جميع الناس . وبالقرب منه يقف ايفان المحارب ، وقد بلي سيفـه وغمده بفعـل الغبار ، وأكل الصدأ دروعه وحديدها ، واهترأت كل ثيابـه وتفتتت ! على طول الشتاء يقف عريانا ، أهلكته الحرارة ، ومع ذلك لم يهلـك ، التهمته الجائحات دون ان تجهز عليه ، تعرض الذئاب عنـه ، والدببة تحيد عـن طريقه ، توفره الاعاصير ، ولا يقتله الزمهرير ، وهو عاجز عن أن يتحرك من مكانه ، أو أن يرفع يدا أو يلفظ كلمة . . . وذلك كان عقابه لانه انحط حتى تلك الدرجة من الشر ، وأخضع ارادته لارادة سواه . أما صلوات الشيخ الجليل فما تزال ترتفع نحو الله من اجلنا نحن الخطاة ، متدفقة كالجـدول يسيل نحو مياه المحيط . . . »

وقد لاحظت ، منذ بداية القصة ، ان « هذا رائـع ! » قد تملكتـه ، لسبب ما ، اضطراب عظيم :فيداهترتعشان بصوره غريبـة ، وهو يضـع نظارتيه ثم يخلعهما ، ثم يعود فيهزهما بحركة موزونة متناسقة مع الكلمات الشادية ، يهز راسه ، ويضغط بأصابعـه على عينيـه ، ويمسح العـرق المتصبب على جبهته وخديه . وكان ، كلما تحرك احدهم أو سعل أو ضرب الارض بقدمه ، يصيح بنزق :

ـ هس ! . . .

عندما انتهـت جدتي من قصتها ، ومسحت بكمها العرق المتلألىء على جبهتها ، قفز « هذا رائع ! » بصخـب وضجيـج ، وراح يدور على أرض المطبخ بشكل حلزوني ، وقد بسط ذراعيه باضطراب ، وهو يهمهم :

ـ هذا رائع ! رائع جدا ! يجب ان يدون بأي ثمن كان ! انه صحيح تماما . . وروسي بكل معنى الكلمة ! . . .

لاحظ الجميع بوضوح انه كان يبكي : تمتلىء عيناه بالدمـوع ثم تنهمر كسيل صغير فوق وجنتيه . وكان من الغريب والمؤثر معا منظـر هذا الرجل الذي يركض في المطبخ بشكل مضحك ، يجرب ان يعلق نظارتيه خلف أذنيه دون ان ينجح في ذلك . وكان العم بيوتر يضحك ، ولكن الباقـين اعتصموا بالصمت وقد تملكتهم الدهشة .

قالت جدتي بسرعـــة :

ـــ حسنا ، امض ودونها ان شئت : فلا خطيئة في ذلك ! وانا اعرف من امثالهـــا كثـــيرا !

فصاح المستأجر منهيجـــا :

ـــ اوه ، كلا ! هذه فقط ! انها روسية ـــ روسية من الصميم !

وتوقف ، على حين فجأة ، في وسط المطبخ ، وطفق يتكلم بصوت عالي النبرات ، وهو يلوح بذراعه الايمن . ويحمل نظارتيه في اليد اليسرى المرتجفة ظل يتحدث طويلا بحمية ، تصدر عنه ، من وقت لاخر ، آهة عميقة ، وهو يضرب الارض بقدمه . ولاحظت انه ردد ، عدة مرات ، هذه الكلمات :

ـــ كلا ! كلا ! انها لجريمـــة لا تغتفـــر ان يعيش المرء حسب ضمـــير سواه !

وعلى حين غرة ، انقطع صوته ، والقى نظرة سريعة على المحتفين به، ثم دلف خارجا حانى الرأس . فنظر الجميـــع الى وجوه بعضهـــم البعض باستياء وقلق ، بينما انفردت جدتي في ظلمة الموقـــد حيث سمعتها تتنهـــد باسى ...

سألت بتروفنا ، وقد امسكت بيدها شفتها الحمراء الكثيفة :

ـــ كأنه غضب ؟

فأجاب العم بيوتـــر :

ـــ كلا ! بل تلك طريقته بكل بساطة !

وهبطت جدتي عن الموقد ، وشرعت تهيىء السماور ...

اضاف العم بيوتر بهـــدوء :

ـــ ان المثقفين والنبلاء هكذا دوما ـــ متقلبوا الاطوار !

واضاف فالـــي :

ـــ كل هذه الحماقات سببها الحياة الفردية ، حياة العزوبية .

فضحك الجميــع ...

وقال العم بيوتــر :

ـ ارايتم اليه حين بكى ؟ لقد ابكته قصتنا ... يظهر ان العزف أصاب منه وترا حساسا !

لم يعد جو المطبخ يطاق ، وقد طغى على قلبي حزن موحش . ادهشني « هذا رائع ! » كثيرا ، فاشفقــت عليــه . وحتـــى الان ، ما تزال عينــاه الدامعتان منحفرتين في ذاكرتي .

قضى ذلك الليل بعيدا عن الدار ، ورجع بعد الغداء في اليوم التالي . كان يبدو خائر القوى ، مرتبك البال ، مكتئب الخاطر ...

قال لجدتي بطريقة صبيانية خالصة :

ـ لقد ارتكبت حماقة مساء البارحة ، أغاضبة أنت ؟

ـ ولم أغضب ؟

ـ لانني قحمت نفسي فيما لا يعنيني ، وقلت حماقات كثيرة .

ـ انك لم تجــرح شعور احــد .

شعرت ان جدتي تخاف منه ، فهي لا تنظر اليــه ، ولا تخاطبــه كما اعتادت ان تفعــل .

اقترب منها ، وقال ببساطة فائقــة :

ـ انت ترين انني اعيش لوحدي ، وليس من يؤنسني في العالم كله... عندما يعيش الانسان طويلا ، وحيدا هكذا ، صامتا ابــدا ، فلا بد مــن ان تجيء لحظة يأخذ فيها كل ما تراكم في نفسه بالغليان ، فيطفح وينفجر ... انه ، في مثل تلك اللحظة ، يخاطب حتى الصخر ، والحجر ، والشجر ...

سالت جدتي ، وهي تبتعد عنه :

ـ لم لا تتزوج ؟

فصاح ، وهو يحرك يده :

ـ آه ! ...

ثم مضى انبس الوجـــه ...

راقبته جدتي ، مقطبة الجبين ، وهو يغادر المكان ، ثم تنشقت بعض السعوط ، والتفتت الي وقالــت :

ـ لا تدر حواليه كثيرا ، فالله وحده يدري ما يمكــن ان يفعل هــذا الانسان .

ولكن شيئا ما كان يجذبني اليه باستمرار ...

لاحظت التغير الذي طرا على وجهه وهو يقول : انني اعيش لوحدي. فقد كان في تلك الكلمات شيء افهمه جيدا لمس مني شغاف القلب ، فمضيت للاقاتـــه ...

تطلعت خلال نافذة غرفته ـ كانت خالية منه ، مليئـــة باشياء غريبة عديمة النفع ، عديمة الترتيب ، مثل صاحبها تمامـــا . فقصدت الى الحديقة حيث وجدته مقتعدا خشبة متفحمة في الحفرة حيـــث شب الحريق ، وقــد احدودب ظهره ، وارتكز مرفقاه على ركبتيه وتشابكت يداه خلف رقبته ... كانت الخشبة مغطاة بالاوساخ، تندفع احدى نهايتيها، في الهواء فوق الحشيش ونبات القريص والارقطبون . لم يكن مرتاحا في جلسته هناك ، مما جعلني اشعر بمزيد من الاسف والحزن ، اجتذبني اكثر فاكثر الى ذلك الرجل ...

ظل وقتا طويلا يرنو الي بعينيه المعبقتـــين الغائرتين ، لكــن دون ان يراني فيما يبدو ، ثم سأل فجأة في ضيق وملل :

ـ اجئت تطلبنـــي ؟

ـ كــلا !

ـ ماذا تريد اذن ؟

ـ لا شيء على التعيين !

فنزع نظارتيه ومسحهما بمنديله الملطخ ببقع سود وحمر . قال :

ـ تعالى الى هنـــا .

ضمني اليه ، عندما اخذت مكاني بالقرب منه ، وقال :

ـــ اجلس هنا ! اننا سنجلس فقط دون ان نتكلم . ما رأيك ؟ هكذا . . . انك حقا لفتى عنيـــد !

ـــ نعـــم !

ـــ هذا رائـــع !

وقبعنا هناك ، مدة طويلة ، دون ان نتفوه بكلمة واحدة . . . كانت الامسية لطيفة هادئة ، من تلـــك الامسيات الصيفية المضجرة الحزينة ، عندما تاخذ الزهور بالذبول والجفاف امام عينيك ، والارض المنهوكة مـــن رائحة الخريف الرطبة ترشح بالبرود والبلـــل ، والهـــواء يشف بشكل غريـــب ، والغربان تتواثب في السماء المحمرة تثير في الخواطر افكار حائرة قاتمة . كان كل شيء ساكنا ابكم ، حتى ان الاصوات الخفيفة ، من حفيف اجنحة الطيور الى صدى سقوط الاوراق ، ترن بصورة تدفعـــك الى الانتصاب والتلفـــت حوالبك قلقا مستفهما ، ثم يعود كل شيء فيغـــرق مرة اخرى في الســكـــون العميق الذي يجلل الارض بأسرهـــا .

كانت تلك اللحظات البهية تستدعي افكارا نقية صافيـــة ، لكنها هشة شفافة كنسيج العنكبوت ، تتحدى المرء ان يثبتها في كلمات . انهـــا تومض وتغيب كالنجوم المتساقطة . تملأ النفس حزنا ، او تملؤها غبطة ، او تقلقها ، او تجعلها تغلي لتتجمد في اشكال ثابتة ـــ في مثـــل تلك اللحظـــات نتكـــون الشخصية وتأخذ القالب الذي ستحتفظ به مدى الحياة .

رنوت وجليسي ، وقد ركنت الى جسده الدافـــيء ، ناحية التكتـــلات السود التي ترسمها فروع شجرة التفاح حيث راينا « زقيقية » تندفع نحـــو السماء الواسعة ، وراينا الحساسين تنقر نبات اللفـــت الجاف تفتش عن حبوب مبتلة ، ورأينا السحب الرمادية المتدافعة بتجمعاتها القاتمة تتراكض على طول الحقول ، ورأينا جموع الغربان تتناكـــب في اتجاه المقبرة حيـــث اعشاشها . كل ذلك كان جميلا ، وكأنه ارتدى حلة خاصة واضحة للابصار قريبة الى الافهـــام .

كان رفيقي يصعد تنهداته ، بين وقت واخر ، ويسأل :

ـــ هذا رائع ، اليس كذلك ؟ رائع ، يا اخي ! هم ، ولكن الطقس رطب، الست مصيبا ، الا تشعر بالبـــرد ؟

قال عندما اسودت السماء ، وغرق كل شيء في عتمة الليل :

ـ حسنا ، أعتقد ان ذلك يكفي . هيا بنا ...

وتوقف ، عندما بلغنا بوابة المنزل ، وقال :

ـ ان جدتك امراة رائعة . آه ، يا له من وجود !

ثم اغلق عينيه وابتسم ، وتابع بهدوء ووضوح :

ـ « وذلك كان عقابه ، لانه انحط حتى تلك الدرجة من الشر ، واخضع ارادته لارادة سواه» .

ثم وجه حديثه الي ، وهو يدفعني داخل البوابة :

ـ تذكر ذلك ، يا اخي ! اتعرف الكتابة ؟

ـ كـلا !

ـ تعلم . وعندما تتعلم اكتب قصص جدتك ، أن لذلك اهمية كبيرة .

اضحينا صديقين حميمين ... فاعتدت ، منذ ذلك اليوم ، زيارة « هذا رائع ! » كلما رغبت في ذلك ، فاجلس على صندوق مليء بالقماش اراقبه منشرح الصدر ، وهو يصهر الرصاص او يسخن النحاس ، فاذا بلغ درجة الاحمرار راح يطرقه صفائح رقيقة ، على سندان صغير ، بمطرقة خفيفة ذات مقبض جميل . وكان « هذا رائع ! » يستعمل أيضا مبردا ، ومناشر رفيعة بعضها رقيق كالشعرة ، ويزن كل شيء بميزان دقيق من النحاس ، ويمزج سوائل مختلفة في وعاء من الصيني الكثيف ، فيعج جو الغرفة برائحة خانقة ، ويكشر ، وهو ينظر في كتاب ضخم ، وبغمغم بشيء ما ، وهو يعض شفتيه الحمراوين ويتنهد بلطف ويدندن :

ـ آه ! يا زهرة شارون ...

ـ ماذا تفعل ؟

ـ شيئا هاما ، يا اخي .

ـ ما هو ؟

ـ ستري ، فأنا لا اعرف كيف اشرح لك ذلك الان لافهمك اياه ...

ـ جدي يقول انك تزور العملـــة .

ـ جدك ؟ هم ! ذلك هراء ! ان المال ، يا اخي ، لا يستأهل كل ذلـــك العنـــاء .

ـ اذن ، ماذا تدفع ثمن خبـــزك !

ـ هذا صحيح ، فنحن لا نستطيع شراء الخبز بدون المال .

ـ ارأيت ؟ واللحم كذلك ...

ـ واللحم كذلـــك !

وضحك بهدوء ضحكة لطيفة بعثت الغبطة في قلبي ، ثم فرك اذني مداعبا كما يفعل لقطة صغيرة ، واضاف :

ـ اني لا اقدر على مناقشتك يا اخي ، فانت تفحمني دوما وتضيـــق الخناق علي . فلنكف عن الحديث اذن .

كان يمتنع احيانا عن العمل ويجيء فيجلس الى النافذة قربي ، يراقب معي من خلالها اشجار التفاح تتعرى من اوراقهـــا ، او المطـــر ينهمر على السطح بعنف ويسيل في الساحة المغطاة بالعشب . وكان « هذا رائع ! » بخيلا في كلامه ، فاذا تحدث لم ينطق الا بالكلمات الضرورية التي تبدو لي ، دائما ، وكأنها الحقيقة بعينها ، واذا اراد ان يلفت انتباهـــي الى امر ما ، لكزني بمرفقه واشـــار الى الشيء بغمزة من عينه .

لم اكن ارى في ساحتنا شيئا يبعث على الاهتمام . ولكن تلك اللكزات، وما يرافقها من كلمات ، كانت تضفي على كل مـــا اراه معنى خاصا وتحفره عميقا في ذاكرتي . فهذه قطة تمرق في الساحة ، ثم تقف امام بركة من المياه المتجمعة تراقب فيها انعكاس صورتها ، وترفع مخالبها المرعبة كما لو كانت ستضرب بها الظل المنعكس ، فيقول « هذا رائع ! » بلطف :

ـ ان القطط المتكبرة متشككة !

ويطير الديك الاحمر الذهبي « ماماي » . ويحط على السور ، ثم يخفق بجناحيه ، وهو يكاد يفقد توازنه ، فيتضايق ، ويبدأ يصيـــح بغضب ، وهو يمد عنقه الى الامام ... ويقول :

ـ انه يتغطرس ، هذا الجنرال ، ولكنه اخرق عديم الشعور .

ويشق الاعرج فالي طريقه وسط الساحـة كحصان هرم ، وقد رفع راسه العريض المتورم يتطلع شزرا الى السماء ، فوقعت عليه خيوط شاحبة مـن اشعة شمس الخريـف جعلـت ازرار معطفـه النحاسيـة الكبـيرة تلتمع زاهية ، فتوقف التتري عن المسـير ، ولمس تلك الازرار بأصابعـه الملتوية متأثرا ، فقال صاحبـي :

ـ انه يتأمل الازرار وكأنها مداليات علقت على صدره !

وسرعان ما اكتشفت ان تعلقي بـ « هذا رائع ! » يزداد وثوقا وقوة. واصبحت لا استطيع له فراقا ، اتقاسم واياه جميع افراحي واحزاني . وبالرغم من ميله ، بطبيعته ، الى الصمت ، فهو لم يجـرب ابـدا ان يمنعني عـن التحدث ، في اي وقت كان ، عن كل ما يجول في خاطري من افكار . أما جدي فعلى نقيض ذلك ، ينهرني كلما انفرجت شفتاي بقوله :

ـ كف عن ثرثرتك ، يا طاحونة الشيطان !

لكن « هذا رائع ! » يصغي الي بانتباه ، وغالبا ما يقول وهو يبتسم :

ـ ولكن هذا غير صحيح ، يا اخي ! انك تختلق ذلك من مخيلتك ...

كانت ملاحظاته الوجيزة جديرة بالعناية ، تقع في حينها .... فيخيل الى انه يستطيع ان يستشف ما في قلبي وعقلي ، ويخمـن الاشياء المزورة المختلفة التي تجول في راسي قبـل ان تمر على شفتي ، فيذبحهـا ، عندما يراها ، ويخنق نقاشا لا فائدة منه قبل ان يولد بأربع كلمـات لطيفة يقولهـا بشغف وولـع :

ـ أنت تكذب !

ـ وكيف عرفـت ؟

ـ اوه ، انني اعرف ذلك تماما ؟

كانت جدتي تصحبني معها ، في كثير من الاحايـين ، لنستقي الماء من مضخة ساحة سينايا . فرأينا ، ذات يوم ، خمسة من اهل المدينة يضربون فلاحا مسكينا ، القوا به على الارض ثم هجموا عليـه كعصبة شرسة مـن الكلاب فتناولت جدتي الدلو مـن خشبتـه ، وهجمت على البورجوازيـين الخمسة ، وهي تصيح بـي :

ـــ اهرب من هنـــا !

كنت خائفا . فأسرعت وراءها ركضا ... وشرعـــت أرمي الاعـــداء بالحجارة ، بينما انهالت الجدة عليهم بالعصا بشجاعة فائقـــة ، تنال منهم الراس والكتفين معا . واشترك في المعركة بعض الناس ، ففر البورجوازيون بأقصى ما يستطيعون من سرعة ، وعندئذ التفتت جدتي الى الفريسة تغسل وجهه الذي اثخنته الجراح . وما زلت ارتعد فَرَقـــاً ، حتى اليوم ، كلمـــا تخيلت كيف ضغط ذلك الفلاح شفتيه المزرقتين بأصبعه المتسخة ، وسعل ونبح بصوت عال ، بينما الدماء تنصب غزيرة من بين اصابعـــه على وجـــه الجدة وصدرها . وطفقت تنوح بدورهـــا ، وترتجف مـــن ام رأسهـــا حتى اخمص قدميهـــا .

وانطلقت ، عندما بلغت الدار ، الى غرفة المستأجـــر اقص عليه مـــا حدث . فتوقـــف عن العمل ، ووقـــف امامي ، وهو يحمل مبـــردا طويـــلا كالسيف ، يصغي الى حديثي . ثم نظر الي بجفاء ورسوخ من تحت نظارتيه ، وقاطعني فجأة قائلا : وهو يشدد على كلماته بصورة غير معتادة :

ـــ رائع ! هذا ما حدث بالضبط !

كنت مضطربا بعد ، متأثرا بما رأيت ، فتابعت الحديث دون ان اعير اقواله انتباها . ولكنه احاطني بذراعه ، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يقاطعني من جديد ، ويقول في لهجة عتاب وتوبيـــخ :

ـــ يكفي ، يكفي ! لقد قلت كل ما يجب ان يقال !

فتوقفت عن سرد الحديث ... آلمني ذلك بادىء الامر ، ولكنني ، اذ تمعنت فيه جيدا ، ادركت في دهشة بالغة انه اوقفني في الوقت المناسب ... كنت ، في الواقع ، قد رويت كل شيء ...

قـــال :

ـــ اياك ان تشغل فكرك بسخافات كهذه . حاول ان تنسى ذلك !

كان ينطق ، احيانا ، باشياء هادئة جدا بحيث اظـــل لها ذاكرا طـــول الحياة . وقد حدثته مرة عن عدوي اللدود كوشنيكوف ، احـــد ابطال شارع

نوفايا ، وهو صبي سمين ، كبير الرأس ، لم اكن استطيع ان انال منه اكثر مما كان ينال مني ، واصفى « هذا رائع ! » الى متاعبي ، ثم قال :

ــ هراء ! ان قوة بهذا الشكل لا تعد قوة على الاطــلاق . ان القوة الحقيقية تكمن في الحركة السريعة ، فكلمــا كنــت نشيط الحركة سريعهــا كلما كنت قويا ــ أتفهم ؟

وفي نهار الاحد التالي جربت ان تكون لكماتي اكثر سرعة ، فاستطعت بسهولة كبــيرة ان اتغلــب على كوشنيكـــوف ، الامر الــذي زاد مــن تقديري لكلمات جارنا ونصائحــه .

ــ يجب ان تعرف كيــف تمسك بالاشياء ، أتفهم ؟ انــه عمل صعب ان تجيد مسك الاشياء .

فلم افهم ما عنى بكلامه ، ولكنني تذكرت ذلك ، واشيــاء أخرى عديدة مماثلة . تذكرت ذلك لان فيه سرا يكتنفه يثير في النفس ، بالرغم من بساطته، الحيرة والعجب .

كانت كراهية سكان دارنا لــ « هذا رائع ! » تزداد يوما بعــد يوم ، حتى ان قطة السيدة الشابة التي تتسلق غرف الجميع دون تفريق ، امست تستثنيه من هذه الثقة ولم تعد تلبــي نداءه اللطيــف . وأغاظني ذلك منهــا فعاقبتها عليه بشد الاذن ، ورحت اجرب ــ باكيا مترجيا ــ ان اقنعهــا بالا تخاف من صديقي . لكن « هذا رائع ! » يجد لها الاعذار ، فيقول لي :

ــ ان رائحة ثيابي تنفرها منــي .

اما انا فكنت على ثقة من ان لكل فرد من اهل البيت ، بما فيهم جدتي ، اسبابا خاصة تدفعه لان يضمر البغض للجار ، ويناصبه العــداء الشديد . وكنت ارى في كل ذلك خطأ فادحا يثير في المًا لا يحتمل . . .

سألتني جدتي بغضب :

ــ لم تحوم حوله دائما ؟ انتبه ! فالله وحده يعلم ما سيلقنك اياه !

اما جدي ، رأس الشر فكانيجلدني بوحشية كلما بلغه انني زرت ذلك

المستأجر . وطبيعي انني لم أطلع « هذا رائع ! » على ما ينالني من عقاب كلما عصيت أمر الامتناع عن زيارته ، غير انني أخبرته صراحة برأيهم فيه :

ـ ان جدتي تخافك ، وهي تقول انك تشتغل بالسحر الاسود ، وهذا هو رأي جدي ايضا ، فهو يقول انك عدو الله ، ومن الخطر على الناس أن يتعاملوا معــك .

فهز راسه وكأنه يطرد ذبابة تضايقه ، ولمع وجهه الشاحــب بابتسامة ينقبض لها قلبي ،ويترنح منها رأسي ، وقال بهدوء :

ـ اني استطيع رؤية ذلك ، يا اخي . هذا شيء محزن ، أليس كذلك؟

وأخيرا ، ابعدوه عن البيت ...

وجدته ، ذات صباح بعد طعام الافطار ، متربعــا على الارض يحزم امتعته وكتبه في حقائبه وصناديقه ، وهو يترنم بلحن زهرة شارون ...

ـ حسنا ، الوداع يا صديقي ، اني ذاهب .

ـ ولم ذلــك ؟

فتأملني لحظة قبل ان يجيــب :

ـ الا تدري السبب ؟ انهم في حاجة الى غرفتي من أجل والدتك .

ـ من قال هــذا ؟

ـ جــدك .

ـ انــه يكذب !

فضمني « هذا رائع ! » اليه ، وقال بهدوء ، بينما كنت اتخــذ مجلسي علــى الارض :

ـ لا تغضب ! ظننت انك على علم بتلك المكائد ، وانك تخفيها عني ، ولذلك احدثك بأمرها يا اخي ، وانا لا احب ذلك على اية حال ...

ثم تابع هامسا :

ـــ ادـغ ... اتذكر منعي اياك من زيارتي ؟

فأومأت بالايجـــاب ...

ـــ لقد جرحت شعورك يومذاك ، اليس كذلك ؟

ـــ نعـــم !

ـــ انا لم اقصد ذلك ، ولكنى عرفت انهم سيؤنبونـــك اذا ما اصبحنـــا صديقين ، فأردت ان أوفر عنك عناء ذلك

وطفق يحدثني كما لو كنا اصدقاء في سن واحدة . وكانت كلماته تغمرني بالمرح والسعادة ، ويخيل الي اني اعرف ـــ منذ أمد بعيد ـــ كل شيء يريد ان يطلعني عليه . قلـــت :

ـــ لقد فهمت ذلك منذ مدة طويلة .

ـــ حسنا ! ذلك افضل ، يا اخـــي .

ـــ واحسست الما عنيفا يعتصر قلبي ، فسألته :

ـــ لم لا يحبك احـــد ؟

فاحتضنني بلطف وتطلع بعيدا ، وهو يجيب:

ـــ لانني غريب ، اتفهـــم ؟

فتعلقت بكتفه دون ان اعرف ماذا اقول او افعل ...

واضـــاف :

ـــ لا تغضب !

وهمس بعد فترة في اذنـــي :

ـــ ولا تبـــــك أيضـــا .

ولكن الدموع انهمرت على خديه من تحت نظارتيـــه الوسختين ... وجلسنا هكـــذا مدة طويلة صامتين ، كالعـــادة ، شاردين ، نجمجـــم بـــين حين وحين بكلمات مقتضبـــة .

وفي ذلك المساء ، وبعد أن ودع الجميع ، وعانقني بحرارة ، مضى في حال لحظة كومضة برق .

ركضت خارج البوابة ، أراقبه يبتعد وهو قابع على قمة العربة التي انطلقت تسحق بعجلاتها أكوام الاوساخ المتجمدة ... ولم يكد يبرحنا حتى شرعت الجدة بتنظيف غرفته القذرة . فذهبت اليها ، ورحت أركض أمامها من زاوية لاخرى متعمدا مضايقتها ... فصاحت بي :

ـ اخرج من هنا !

ـ لم طردتموه ؟

ـ هذا ليس من خصوصياتك .

ـ انكم حمقى ، كل هذه العشيرة .

فأسرعت تلطمني بالمسحة المبلولة ، وهي تصيح :

ـ هل جننت ، أم ماذا ؟

فأجبت مصححا :

ـ لقد جن الجميع ، الاك ...

وعلى طاولة العشاء ،مساء،قال جدي :

ـ حسنا ! شكرا لله على ذهابه . لقد كان كالخنجر يحز في قلبي كلما رأيته ، ولذا تخلصت منه .

فكسرت ملعقة لشدة حنقي ، نلت جزاء عليها عذابا صارما ...

وهكذا انتهت صداقتي مع أول انسان من تلك الجماعة التي لا تحصى من البشر ــ الغرباء في موطنهم الام ــ رغم كونهم افضل أبنائه .

٩

استطيع ان اشبه نفسي طفلا بخلية نحل يحمل اليهـا اناس متباينـون عسل معرفتهم وآرائهم في الحياة ، وكل منهـم يشترك اشتراكـا واسعا ، حسب امكاناته الخاصة ، في اختلاف اطوار شخصيتي . وغالبا ما كان العسل مرا ، ولكنه ، باعتباره معرفة ، كان عسلا على اية حال .

تمكنت أواصر الصداقة ، بعد رحيل « هذا رائع ! » ، بيني وبين العم بيوتر ، وهو يشبه جدي في رقته ، واناقته ، ونظافته ، وان كان أضعف جسما واقصر بقليل ، يثير مرآه في النفس صورة مراهـق يرتدي — لمجرد التسلية فقط — ثياب شيخ طاعن في السن . وكان وجهه كثير التغضن ، تلتمع عليه عيناه الضاحكتان كطيرين صغيرين . وكان شعره الرمـادي الاشيب أجعد الخصل ، ولحيته الطويلة تمتد بشكل دوائر عديده ، وفمه ينمـادى بغليون يطلق دخانا يماثل لون شعره . وكان يخيل الـي انه يهـزأ بالناس دونمـا انقطاع ، وهو يروي سيرة حياته :

— في البدء قالت لي الكونتس التي تملكني ، وتسمى تاتيـان ، وتكنى الكسييفنا : ستكون حدادا . ولكني لم اكد ابدأ ذلك العمل حتى قالت : كن مساعدا للبستاني . فلم اعترض ، واصبحت بستانيا . ولكن ، كمـا يقول المثل « اعط الخبز للخباز ولو اكل نصفه » . وعندما لم انجح في عملي الجديد ، قالت : جرب ان تصطاد ، يا بتروشكا . فقبلت ، لان الامـر سواء عندي ، وابتعت عدة الصيد . ولم اكد اتعود عملي الجديد حتى قلت للاسماك وداعا ، اذ ارسلتني سيدتي الى البلدة لاخدم فيها سائقـا ، او اي شيء اخر ارغب

فيه . وقبل ان تسنح لها الفرصة لتجعل منسي شيئا اخر جاء التحري
وإمسيت طليقا لا املك الا الحصان . ومنذ ذلك اليوم اضحيت اتبع الد
بدلا من الكونتس .

كان حصانه هرما ، يخيل الي انه كان — فيما مضى من الزمن —
اللون ، لكان فنانا ثملا رمساه بفرشاة وسخسة ، ولم يعسن بمسسح آ
الدهان عنه . كان حيوانا سقيما ، معوج الارجسل ، يتدلى رأسه الث
بعينيه المتعكرتين في اسى بالغ من عنق يكساد الا يصلسه بالجسد الا
الاوردة الضخمة ، وقليل من الجلد الجاف المنكمش .

ولكن العم بيوتر يعامله ، مع ذلك ، باحترام عظيم ، فيدعوه تانيا
يضربه ابسدا .

سأله جدي مسرة :

— لم تطلق على حيوانك اسما مسيحيا ؟

— ولكن لا ، يا فاسيلي فاسيليفيتش — لا ابسدا ! ليس تانيسا
مسيحيا ابدا . ان الاسم المسيحي تاتيانا .

كان العم بيوتر على قسط وافر من الثقافة ، وله بعض الالمام ب
المقدس . فيخوض وجدي على الدوام غمار نقاش لا ينتهسي ، موضو
اقدس الجميع بين القديسين ؟ وكانا يدينان ، دون رأفسة ، جميع الذ
الواردة اسماؤهم في التوراة ، وابشالوم منهم بصسورة خاصسة . و
نقاشهما يتخذ احيانا شكل حامي الوطيس . فيصيح جدي ، بعد نقاش
وعيناه الخضراوان تلمعان شررا :

— اخرج من هنا ، يا الكسي !

كان العم بيوتر مولعا بالترتيب والنظافة الى حد بعيد . واينما م
الساحة يلتقط القضبان الصغيرة ، والنشارة ، وهو يهمهم مزمجرا :

— انها لا تصلح الا لتعترض الطريسق !

كان ثرثارا ، تدل ملامحه على اللطف والانس ، وان كانت سحابة
تغشى عينيه في بعض الاوقات ، فاذا هما اشبه بعيني جثة ميتة . و

ما كنت اراه جالسا في بعض الزوايا المظلمة ، صامتا ، مكتئبا ، كابن اخيه. فاركض اليه ، وأسأله :

ــ مما بك ، أيها العم بيوتــر ؟

فيجيب بأسى شديد وصوت قاس بكلمات لا افهم منها شيئا .

وكان يقطن احد منازل شارعنا سيد في جبهته حدبة ضخمة ، وفي راسه هوس غريب لا يفارقه : فهو يجلس ، كل يوم احد ، الى النافذة يطلق النار على الكلاب ، والقطط ، والفراخ ، والغربان ، وحتى على المارة الذين لا ترون له رؤيتهم . وقد فعل ذلك مرة مع « هذا رائع ! » ، لكن الرصاص لم يخترق معطفه الجلدي لحسن الحظ ، وان وقع بعض الخردق في جيبه . وانا أذكر كيف وقف صاحبي وقتئذ يفحص باهتمام تلك الحبات الرصاصيه في راحة يده . وعندما حثه جدي على تقديم شكوى ضد المعتدي ، رمى تلك الحبات في زاوية المطبخ ، وقال :

ــ انها لا تستأهل ذلــك .

ــ وقد أرسل ذلك الاحمق ، مرة أخرى ، بعض الخردق في ساق جدي ، الذي اهتاج كثيرا وشكاه الى حاكم البلــدة ، وراح يجنــد الشهود ضده . ولكن ذلك السيد اختفى ، فجأة ، وكأنما غيبته الأرض في جوفها .

كان العم بيوتر ، كلما ارتفع صدى طلقات المجنون في الشارع ، يسرع الى قبعته الباهتة اللون ، المريضة الحافة ، التي لا يرتديها الا أيام الاحاد فيضعها على راسه ثم يخرج من البوابة ، وقد نفــخ بطنــه ، ووضع يديه تحت مؤخرة معطفه ليجعله يرتفع كذنب الطير ، ثم يروح يتمشى بتؤدة وكبرياء بالقرب من نافذة ذلك الاحمق ، ولا يمل من ذلك ابدا . ويتجمع سائر سكان منزلنا قرب البوابة يراقبون ما يجري في الشارع ، بينما يطل الضابط وزوجته الشقراء من النافذة ، وتغص ساحة بيتلينغ بالمستأجرين ايضا ، ولا يظل غير منــزل آل اوفزيانيكــوف عديـــم الحركــة ، فكأنـــه قبـر لا يضم الا الامــوات . . .

كان تصرف العم بيوتر يظل دون جدوى في بعض الاحيــان ــ فالصياد لا يحسبه صيدا يستاهل الرمي . . . وفي احيان اخرى ، كانت طلقتا البندقية تتتابعان بشكل يصم الآذان .

ــ بــو ! بــو ! . . .

فيقترب العم بيوتر منا ، دون ان يغير من سرعة خطواته ، ويقول برضى عظيــم :

ــ لقد اصابني في ذيل معطفــي .

لكن الطلقة اصابته ، ذات مرة ، في عنقه وكتفه . . .

سألته جدتي ، وهي تزيل بابرة خياطة ما اخترق جلده من رصاص :

ــ لم تثيره هكذا ؟ ذلك المخلوق الشرس ! قد ينتهي بأن يقلع عينيك ! فيجيب باحتقـــار :

ــ أوه ، لا ، يا اكولينا ايفانوفنا ! انه لن يفعل ذلك ابدا ! فهو لا يحسن الرماية على الاطــلاق !

ــ ولم تعطيه فرصة لارضاء غروره ؟

ــ لارضاء غروره ؟ ولكني انما افعل ذلك لاغاظته فقط .

ويضيف ، وهو يتطلع الى مكان الجرح :

ــ كلا ، بالتاكيد ليس هذا برام ابدا ! ان الكونتس تاتيان الكسييفنا قد ارتبطت ، مرة ، بعلاقات زواج موقتة ــ فقد كانــت تستبدل ازواجهــا كما تستبدل ثيابها ــ مع ضابط يدعى مامونت ايليتش . حسنا ، ذلك كان راميا فذا وربي ، أيتها الجدة . يستطيع ببندقيته ان يفعل كــل شيء . لقــد كان يوقف الابله اجناشكا على بعد اربعين خطوة او اكثر ، ويربط زجاجــة الى حزامه الجلدي ، بحيث تتدلى بين ساقيه اللذين يفرج اجناشكا بينهما وهـــو يضحك كالمجنون . وعندها يصوب مامونت ايليتش البندقية ، ويطلق النار ، فاذا بالزجاجة تتطاير شظايا صغيرة . . . وذات مــرة ، حرك اجناشكــا ساقه ــ لعل ذبابة عقصته ــ واذا الرصاصة تصيب منه الركبة ، وتحطم العظم . وقد استدعي الطبيــب فاسرع ، في مثل طرفة عين ، يقطع الساق . . . هكذا ، من هنــا ــ واشار باصابــع يده الى مكان القطــع ــ ولقــد دفنوهــا . . .

ــ واجناشكا ؟ هل مات ؟

ـ اوه ، لقد استمر يعيش في احسن حال ، فالبلهاء لا يحتاجــون ابدا للايدي والارجل ، بل يعيشون في عالمهم الجنوني ، يغــذون من بلاهتهـم ، وجميع الناس يحيونهم ويقدمون لهم المعونة .. انهم جماعة غير مؤذية ، كما يقول المثل : « من لا عقل له ، لا ضرر منه » .

لم تؤثر تلك القصة في جدتي ، فهي تعرف الكثير مــن تلك القصص ، ولكنها جعلتني ارتجف : فسألت صاحبي :

ـ ايستطيع اى من النبلاء ان يقتل اي انسان كان ؟

ـ ولم لا ؟ انه يستطيع ذلك ! بل ان النبــلاء يقتلون بعضهــم بعضا احيانا . وقد حدث مرة ان جاء احد الفرسان لزيارة تاتيان الكسيفنا ، فاشتبك مع مامونت في معركة حامية الوطيس : وقد شهر كــل منهمــا مسدسه ، ومضيا معا الى الحديقة . وهنالك ، في الممر ، بالقرب من البحــيرة ، اطلق الخيال النــار على مامونت فاصابــه في كبده ... حسنا ! مضى مامونــت الى ملكوت السماوات ، ومضى الخيال الى بلاد القوقاز ، وكان ذلك نهاية كل شيء ... ارايت ؟ انهم يتذابحون ! اما الفلاحون ومن كان على شاكلتهم فما اكثرهم ! وخاصة في هذه الايام ، حيث لم يعودوا يملكونهم كما من قبل . لقد كانوا ، قبلا ، اكثر حذرا وعناية ، لان الموجيك . على اية حال ، كان ملكا لهــم !

فقالت جدتــي :

ـ انهم لم يعنوا بهم ، حتى في ذلك الحين ايضا .

فوافق العم بيوتر باشارة من راسه ثم تابع يقول :

ـ نعم ، ذلك صحيح ! ملكية خاصة بهم ، ولكنها ملكية رخيصة .

كان لطيفا معي الى حد بعيد ، ان تحدث الى فبرقة لم اعهدها عنده في معاملته للكبار ، ودون ان يغلق عينيه ايضا كعادته التي لم تكن تروق لي ... ولكن شيئا فيه لم يعجبني . كان عندما يعزمنا على المربى المفضل ، يقتطع لي من الخبز قطعة تكبر حصة الاخرين . واذا زار المدينة ، جلــب لي معه كعكا وحلــوى ، وجذور السوس ، وكثيرا ما كان يسالني بهدوء واهتمام :

ـــ حسنا ، ماذا ستفعل عندما تكبر ، ايها الشاب ، أتريـــد ان تكون جنديا ، أم موظفـــا ؟

ـــ بل جنـــدي !

ـــ ذلك يليق بك ، اذ لم تعد حرفة الجندية صعبة في هذه الايام . وكذلك الامر بالنسبة الى الكهنة ـــ ما عليـــك الا ان تسير في الشارع ، وتصيح : « يا رب ارحم ! » فينتهي كل شيء . . . فحياة الكاهن اسهل بما لا تعهـــد ، من حياة الجنـــدي . ولكـــن الافضل لك ان تحترف صيد السمك ، لان الصياد لا يحتاج الى اية معرفة على الاطلاق ـــ ما عليـــه الا ان يعتاد ذلـــك فقط ، وهذا كل شيء . . .

ويتوقف قليلا ليعود ، بعد فترة ، يهز رأسه بمرارة ويقول :

ـــ انك تغضب عندما يجلدك جدك ، اليس كذلك ؟ انك مخطىء اذن يا صاح ، اذ ليس من سبب يدعوك الى الغضب في مثل هذه الحال . انهم لا يجلدونك الا لمصلحتك الخاصة . . . ولكن ، هناك سيدتي تاتيـــان الكسييفنا مثلا ، تلك امراة تعرف كيف تجلد الناس ، لا بل كانت تحتفظ بشخص خاص لمثل تلك الاعمال ـــ ويدعى كريستوفور ـــ وهو اختصاصي في فن الضرب ، طبقت شهرته الافاق حتى اصبح الملاكون المجاورون يطلبونه من الكونتس ، فيرسلون اليها يرجونها : تلطفي ، يا تاتيان الكسييفنا ، واعيرينا كريستوفور لينزل العقاب بعبيدنا . فكانت ترسله اليهم وفي نفسها شيء من الاعتداد .

وراح يروي لي ببرود واطناب كيف كانت الكونتس تجلس على كرسي احمر اللون بالقرب من بوابة قصرها ، تتالق في ثوب ابيض من الحريـــر ، ووشاح ازرق يلتف حول كتفيها ، تتطلع الى الجلاد كريستوفور يجلد العبيد من ذكور واناث بشغف ولذة :

ـــ لقد كان كريستوفور هذا ، بالرغم من قدومه مـــن ريازان ، يشبه غجريا او اوكرانيا في مظهره : فشاربه يمتد من الاذن الواحدة حتى الاخرى ، ووجهه شديد التورم لانه كان يحلـــق لحيته دوما . ولست أدري ان كـــان نصف مجنون ، او انه يدعـــي ذلـــك حتى تتيسر شؤون حياتـــه . وكثـــيرا ما كان يدخل الى المطبخ ، ويملأ احد الاحواض ماء ، ثم يصطاد ذبابة ، او حشرة ، او بعض الخنافس ، ويتسلى باغراقهـــا في الحوض بـــان يدفعهـــا

تحت الماء بطرف احد القضبان ، ويقضي زمنا طويلا منهمكـا في هذه المهمـة الغريبة . وكانت ياقة قميصه تقـدم له ، في كثـير من الاحايـين ، فرائس هوايتـه .

كنت اعرف كثيرا من تلك القصص ، فقد روى لي جداي عددا لا يحصى من امثالها . وهي ، بالرغم من اختلافها ظاهريا ، تتشابـه بصورة غريبـة جدا ، موضوعها دوما الالام البشريـة ، والـذل ، والهوان ، وفي كل منها انسان يتعذب ، او عبد يضطهد ، او فلاح يسخر منه . ومللت ، كل الملل ، تلك الاقاصيص وعزفت عن سماعها فقلت للسائق :

ــ حدثني عن شيء اخـر .

فجمع سائر خصل لحيته المجعدة فوق فمه ، ثم رفعهـا حتى عينيه ، واردف موافقـا :

ــ حسنا ، ايها الجشع ! هاك شيئا اخر . . . لقد كنا نملك ، مـرة ، طباخـا . . .

ــ من كان يملـك الطباخ ؟

ــ الكونتس تاتيان الكسييفنـا .

ــ ولم تدعوها تاتيان ، كما لو كانت رجلا ، عوضا عن تاتيانا ؟ انهـا امراة ، اليس كذلـك ؟

ــ بالطبع ، انها سيدة ! لكنها ، مع ذلك ، ذات شارب اسود اللون ، فهي جرمانية الاصل ، اهلها اشبه بالقنابـل السود . حسنا ، لقد كنا نملك طباخا ، هيه هيه ، هذه قصة مضحكة ، يا عزيزي . . .

كانت تلك القصة المضحكة تتلخص في ان ذلك الطبـاخ افسد ، مرة ، طائرا يطبخه ، فعوقب على ذلك بتناوله طعاما دفعة واحدة . وكانت نتيجـة ذلك ان سقط مريضا ، ولازم الفراش طويلا . فقلت معقبا باشمئزاز :

ــ انها ليست بالقصة المضحكة على الاطلاق .

ــ ما هو المضحك اذن ؟ هيا ارو لي . . .

ـــ لست ادري .

ـــ اذن ، عليك بالصمت .

ومرة اخرى، راح يلفق اقاصيصه الملــة ...

* *

كان يزورنا ، احيانا ، ايام الاحاد والاعياد ، ابنا خالــي ، احدهما ، ابن ميخائيل ، حزينا كسولا كعادته ، والاخر ، ابن ياكوف ، نظيفا ، ذكيا ، ملما بكل الامور ، كعهدي به ابدا . وفي ذات يوم ، بينمــا كنا على السطح ـــ ثلاثتنا ـــ شاهدنا سيدا مقتعدا كومة من الاخشاب في ساحة آل بيتلينغ ، يلاعب عددا من الكلاب الصغيرة . كان يرتدي معطفــا طويلا اخضر اللون ، يضع فوقه فراء ثميناً اسوداً ، اما راسه الصغيرــ دون شعر ــ الاصفر اللون، فكان دون غطــاء . اعجبنــا بالكلاب ، فاقترح ابن خالي ميخائيل ان نسرق احداها الامر الذي لقي منا تاييدا تاما دون ادنى تردد ... فرسمنا ، بسرعة فائقة ، خطة لذلك مؤداها ان يخــرج ابنا خالــي الى الشارع ، وينتظــران عند بوابة آل بيتلينغ الكبيرة ، بينما اقوم انا باخافة ذلك الرجــل ، حتى اذا هرب انتهزا فرصة الفوضى التي ستنجم عــن ذلك ، ودلفــا الى الساحة ليختطفا الجرو الصغير ، سالت :

ـــ وكيف اخيفــــه ؟

فاقترح احدهمـــا :

ـــ ابصق على راسه الاصلع .

فلم اجد في البصاق على راس اصلع خطيئة كبيرة ، فانا اعرف اساليب عديدة لانزال الاذى والضرر بالناس تفوق هذه شرا بشكــل عنيف . ولذا لم اتردد في تنفيذ تلك المهمة التي عهد بها الي ...

لكن ذلك التصرف اثار ضجة كبيرة ، وسرعان مــا غزا ساحتنا جيش كامل من نساء آل بيتلينغ ورجالهــم جاؤوا ، يقودهــم ضابط فتي انيــق . وباعتبار ان زميلي كانا يلعبان بكل هدوء في الشارع اثناء ارتكاب الجريمة ،

قدر لي ان اتحمل الجزاء وحدي من دونهما ، فقام الجـد الكريم بجلـدي ، في احتفال كبير ، متملقـا سكان الـدار المجـاورة مخففـا من غضبهـم ونقمتهـم .

كنت اضطجـع فى المطبـخ محطـم الاعصـاب ، متألمـا ، عندمـا جاءني العم بيوتر ، وقد ارتدى أبهى ثيابه ، يبدو عليه انه في احسن حالاته النفسية وهمس في اذنـي :

ــ تلك فعلة عظيمة تدل على الذكاء والفطنـة ، يا صاح ! ان ذلك التيس الهرم البالي ليستحق ما ناله ! ابصق على عشيرتهم كلها ! كان افضل لو رميت راسه الاصلع بقرميدة ضخمة . . .

فتذكرت ذلك السيد المرتدي معطفا اخضر ، المدور الجسم ، الاصلع الراس ، بوجهه الذي يشبه وجوه الجراء الصغيرة ، وقد طفق يزعق بهدوء والم كالكلـب الصغير ، وهـو يمسح راسه الاصفر بيديـه الصغيرتـين . واحسست بخجل عظيم لا يوصف ، وبالكراهية لانني خالي في ذات الوقت ، ولكننى نسيت كل ذلك الان ، اذ رايت وجه ذلك السائق الذي يشبه السلة المحفورة بالغضون العميقة ، والذي اكتسى مظهرا يبعث على الرعب والنفور الشديدين ، لا يدانيه في شناعته الا وجه جدي اثناء جلده اياي .

صحت ، وانا ادفع ببوتر عني بيدي وقدمي :

ــ اخرج من هنـا !

ومنذ ذلك الحين ، فقدت كل رغبة في التحدث اليه ، ورحت اتجنبه ، واراقبه في الوقت ذاته ، فكانني اتوقع منه شيئا ما لا اعـرف ماهيتـه على وجـه التحقيـق !



وتبع تلك المغامرة ، بعد فترة وجيزة ، حادث اخر . . . كـان منزل آل اوفزيانيكوف موضع اهتمامى وشغلي الشاغل منذ مدة طويلة ، يبدو لى ان جدرانه العتيقة الرمادية تنطوي على وجود شيء غريب لا مثيل له الا فـي الاقاصيص الخرافيـة .

وكان منزل آل اوفزيانيكوف كثير الضوضاء والمرح ، تعيش فيه مجموعة فتانة من الفتيات يتودد اليهن عدد من الطلبة والضباط الذين كنت تجدهم ابدا — أيان جئتهم — يضحكون ، ويصيحـون ، ويغنـون ، ويلعبون ، ويعزفـون الالحان الموسيقية . وكان للمنزل نفسه مظهرا سارا ، ينبعـث من نوافـذه الملتمعة بريق النباتات الاخضر بزهوته النادرة . ولكـن جدي لم يحب ذلك ابدا ، فهو يدعو سكانه جميعا بالكفرة والهراطقة ، بينما ينعـت نساءه بكلمة بذيئة غريبة ، فسر لي معناها العم بيوتر مرة بطريقة جد واضحة . . .

لكن الجد كان متأثـرا من العبـوس والصمـت المخيمين علـى دار اوفزيانيكوف ، واللذين كانا يبعثان فيـه الاحترام والتقديـر ، كان منـزلا عاليا ، وان كان يقتصر على طابق واحد فقط ، يشرف على ساحـة مترامية الاطراف نظيفة مفروشة بالاعشاب ، ينتصب في وسطها بئر ماء عذب تحت سقف صغير قائم على دعامتين .وكان يقوم ، عن يمين مدخلَ البوابة الكبرى، مخزن للمحصولات يشبه المنزل الاصلي في كلّ شيء سوى ان نوافذه حصنت باطارات سمرت بالجدار ، وطليت شرائحها باللـون الابيض . وكان مظهـر هذه النوافذ يبعـث على النفـور والقـرف ، ويضاعـف في غموض الـدار الاساسية ، وتسترها عن الاعين ، وسعيها الى العيش حياة خاصة ، غير مفهومة . كان العقار بكامله ، بما فيه الاسطبـلات ، ومخازن المحصـولات الفارغة ببواباتها الكبيرة ، يبعث في النفس احساسا من الانتفاخ الصامت ، والكبرياء الهادئة .

كنت اشاهد ، احيانا ، شيخا باسق القامة ، حليق اللحيـة ، ابيض الشاربين المنتصب شعرهما كالابرة الحادة ، يسدب في الساحـة وهو يعرج على رجل واحدة . ومن وقت لاخر ، كان شيخ اخر ذو سالفين طويلين ، وانف اقنى ، يخرج من الاسطبل يقود حصانا رمـادي اللون ، ضيـق الصدر ، طاعن السن ، ضامر القوائم ، فاذا بلغا الساحة مرة ، شرع الحصان يهز رأسه في كل الاتجاهات مثل راهبة طيبة القلب تحيي جميع من تصادفهم في طريقهـا ، بينما يـروح الشيخ يضربـه بقسوة على مؤخرتـه ورقبتـه ، ويصفر ، ويتنهد بعمق ، ثم يعود به ثانية الى الاسطبل المظلـم . وكان يتهيأ لي أن ذلك الشيخ يود الهرب والافلات من تلك الدار فـلا يستطيع لانه كان مسحورا .

وفي كل يوم تقريبا ، منذ الظهيرة حتى المساء ، كان ثلاثة اولاد يلعبون

في الساحة ويمرحون . كانوا يرتدون معاطف رمادية ، وقمصانا وقبعات متماثلة ، لا بل كانوا جميعا ، بوجوههم المستديرة ، واعينهم العسلية ، يشبهون بعضهم بعضا كل الشبه حتى لم استطع التفريق بينهم الا باختلاف قاماتهم فقط .

كنت اراقبهم من خلال شق صغير في السور دون ان يلحظوا وجودي . الامر الذي كان يزعجني كثيرا . وكنت ابتهج برؤية العابهم اللطيفة المسرة غير المألوفة لدي . واحببت ، بصورة خاصة ، ثيابهم وطريقة عناية كل منهم بالاخرين ، وخاصة كبيرهم بأصغرهم سنا — وهو فتى عنيد ، يبعث الغبطة في القلب ، والانشراح في النفس . كانوا ، اذا ما سقط على الارض، يضحكون جميعا ، ذلك ان الناس يضحكون دوما كلما وقع امرؤ على الارض، ولكن ضحكهم هذا كان بريئا من الخبث مجردا عن الدناءة . وسرعان ما يساعده الاخران على النهوض ، ثم يمسحان يديه وركبتيه بورقة من بعض الاشجار ، او بمنديليهما ... وكان الاوسط بجمجم بصوت رقيق عذب :

— الحق عليك ايها الغشيم !

ولم ارهم يتخاصمون ، او يخدعون بعضهم بعضا ابدا ... بل كان الثلاثة اقوياء ، نشيطين ، ممتلئين حماسة .

تسلقت شجرة ذات يوم ، وصفرت لهم سعيا وراء استجلاب انتباههم الي . فتوقفوا عن الحركة ، ثم شخصوا بابصارهم الى ، وراحوا يتشاورون بصوت منخفض ... فانتظرت ان يرموني بالحجارة . فاسرعت بالهبوط من مجثمي لاتسلق اليه ثانية ، بعد قليل ، وقد امتلأ قميصي وجيوبي بالحصى . ولكني وجدتهم يلعبون في زاوية بعيدة من الساحة ، وقد نسوا — فيما يبدو — كل شيء عني . كان ذلك امرا يؤسف له ، ولكني لم ارغب في ان اكون البادىء باعلان الحرب ... وما اسرع ان نادى احدهم من النافذة :

— الى البيت ، ايها الصغار ! اسرعوا ...

فاستداروا طائعين ، وساروا كا لاوز ببطء وتثاقل ...

وكثيرا ما تسلقت ، فيما بعد ، تلك الشجرة المنتصبة فوق السور ، رجاء ان ادعى كي اشاركهم اللعب ، ولكنهم لم يدعوني ... وكنت ، في تصوراتي ، اشاركهم تلك الالعاب على اية حال ، واتحمس لها كثيرا حتى

لاهتف او اضحك عاليا من وقـت لاخر . وعندئذ ، كـان الثلاثة يرمونني بنظرهم ، ثم يتهامسون فيما بينهم بما لا افقه منه شيئا ، بينما اهبط انا عن تلك الشجرة حائرا مرتبكـا .

وذات يوم ، شرعوا يلعبون « الغميضة » ، وكان على الاخ الاوسط ان يفتش عن الاخرين ، فوقف في زاوية قرب المخـزن ، وقـد وضع يديه على عينيه ، دون ان يختلس النظر ، بينما مضى الاخـران يفتشان عن مخبأ . واسرع الكبير ، وتسلق العربة الجلدية التي كانت في الساحـة بحركـات سريعة محكمة ، ثم استتر بسطح المخزن البارز . غير ان الصغير ظـل يدور ويدور حول البئر ، دون ان يعرف اين يختبىء .

صاح الاوسط سنا :

ـ واحد ... اثنـان ...

فتسلق الصغير ، في شبه جنون ، حافة البئر ، وتعلـق بالحبل ، ثم قفز الى السطل الفارغ الذي اختفى على الفور ، مصطدما بعنف ووحشية بجدران البئر الحجرية ... وامتلأت رهبـة ، عندما رايـت ان الحبل يهوي باندفاع وسرعة ، غير أن ذعري لم يطل اكثر من ثانية واحدة ، بل سرعان ما تصورت هول ما سيحدث ، فقفزت داخل الساحة المجاورة ، وانا أصيح :

ـ لقد وقع في البئـر !

كان الاوسط قد بلغ البئر ، في اللحظة التي وصلت فيها اليه ، فتعلق بالحبل الذي رفعه عاليا ثم رماه على الارض وقد أحرق يديه . ونجحت في الامساك بالحبل بدوري ، وفي ذلك الحين ، وصل الكبير راكضا ، وساعدني في رفع الدلو ... قال :

ـ تمهل ، أرجوك !

اخرجنا ذلك الصغير الذي بدا عليه الرعب بوضوح ، والدم يتدفق من أصابع يده اليمنى ، وقد جرح احد خديه بشكل ظاهر ، وابتل حتى خصره ، وشحب لونه كثيرا . ولكنه ابتسم مع ذلك ، وقال وهو يرتجف :

ـ يا لله ... لم اعرف كيف سقـطت !

وتلعثم الاخ الاوسط :

ـــ أنت مجنـــون !

وراح يحتضنه ، ويمسح الدم عن وجهه ، بينما قطب الاكبر وجهه ، وقـــال :

ـــ تعال ، فنحـــن لا نستطيع اخفاء هذا الجرح بـــاي شكل . يحسن بنا أن نسرع الان .

فسألـــت :

ـــ هل ستجلدون ؟

فهز راسه ، ومد يده لي ، وقال :

ـــ انك تركض بسرعة غريبة .

فتمايلت لمديحه ، وقبل ان اصافحه ، راح يقول للاوسط :

ـــ هيا بنا ، والا اصيب بالبرد . سنقول ، بكل بساطة ، انه وقع على الارض . ومن المخجل ان نقول عن البئر شيئا .

فوافق الصغير :

ـــ نعم . سنقول انني وقعت في مستنقع .

ثم مضوا ...

غاب الاخوة الثلاثة ، بعد ذلك ، طـــوال اسبوع عن انظـــاري ... وعندما ظهروا اخيرا كانوا اكثر ضوضاء منهم في اي وقت اخر . وسرعان ما صاح كبيرهم ، عندما بصر بي ، بلطف ونعومة :

ـــ تعال تلعب سوية .

فخرجت اليهم ، وتسلقنا معا عربة عتيقة مهجورة حيث قضينا فترة من الزمن نتعارف . سألت :

ـــ هل ضربتـــم ؟

فاجاب الكبـــير :

ـــ لقد نلنا نصيبنا ، جميعـــا !

كان يصعب علي أن اصدق ان هؤلاء الحبية يجلدون مثلي ؛ واعتبرت ذلك ظلم ، فتألمت من أجلهم . . .

سأل الصغير بتردد :

ـــ لم تصطاد العصافير ؟

ـــ لانها تغرد بصوت حلو رائـــع .

ـــ لا تفعل ذلك بعد الان . دعها احرارا تطير أنى تشاء .

ـــ حسنا ، لن افعل ذلك ثانيـــة .

ـــ ولكن ، قبل ذلك ، اصطد واحدا الان واعطنيه .

ـــ أيها تفضل ؟

ـــ لا فرق ، بل فليكن مغردا فاضعه في قفص .

ـــ ذلك يجب ان يكون بلبـــلا .

فقال الاوسط :

ـــ ستقتله القطة . ولن يتركنا والدي نحتفظ بـــه .

فوافق الكبير بايماءة من راسه وقال :

ـــ هـــذا صحيـــح !

ـــ هل عندكم أم ؟

فأجاب البكـــر :

ـــ كـــلا ، ولكـــن . . .

فقال الاوسط مصححـــا :

ـــ نعم لنا . . ولكن واحدة اخرى ، وليست أمنا ، أمنا ماتت .

فقلـــت :

ـــ هذا النوع من النساء يسمى خالة .

فأما البكر فقال :

ــ هذا صحيــح !

وغرق ، الثلاثة ، في صمت عميق ...

كنت اعرف ، من أقاصيص جدتي ، ما هي الخالة ، فلم يعسر علـي ادراك معنى حزنهم العميق هذا ، وقد جلسوا الان متلاصقين متراكمين مثل صيصان ثلاثه ، صغيرة ، مذعورة ... وتذكرت قصة تلك الخالة الساحرة التي لجأت الى احط الوسائل غير المشروعة لتحل مكـان الام الحقيقيـة ، فحاولت ان اعزي الصبية بقولي :

ــ لا تغتموا ! ان أمكم الحقيقية ستعود ثانية .

فهز البكر كتفيه ، وقـال :

ــ وكيف تعود وهي ميتة ؟ ان ذلك لن يحدث !

هل صحيح ان الموت ، في مثل هذه الحالات ، لم يرسل من قبل الله ، بل من قبل المشعوذين والسحرة ، وبالتالي لم يكن حقيقيا !

وطفقت أروي لهم بعض حكايات جدتي بحماسة وحمية ، ولكن الولد البكر ابتسم باحتقار ، وقـال :

ــ لقد سمعنا هذه الحكايات ، انها قصص خرافية ليس غير !...

واصغى اخواه باحترام وهدوء ، وقد قطـب الصغـير وجهه ، وزم شفتيه ، ووضع الاوسط ذراعه على ركبته ، واحاط بساعده الاخر رقبة أخيه وهو يجذبـه في اتجاهـي .

كان كل شيء ساكنا عنـد المساء ، وسحب رماديـة عديدة تحلق فوق السطوح العالية ، عندما ظهر بيننا ذلك الشيـخ الابيض السالفـين ، وقد ارتدى معطفا بنيا طويلا يشبه جبة الكهنة ، وغطى رأسه بقبعة كثيفة مـن الفرو . اقترب منا ، ثم سأل وقد اشار الي بأصبعه :

ــ من هـذا ؟

فنهض كبيرهم ، واشار برأسه الى دار جدي ، وقال :

ــ هو من هنــاك .

ــ ومن طلب اليه المجيء ؟

فنزل الثلاثة حالا عن العربة ، ومضوا في اتجاه البيت .
مرة ثانية ، كالاوز المطيــع ...

وامسك الشيخ بي بخشونة من كتفــي ، وقادنــي عبر الساحة حتى البوابة . كنت اود ان اذرف الدموع من شدة خوفي ، ولكنه مشى بي مسرعا، وبخطوات كبيرة ، بحيث وجدتني في الشارع قبل ان اتمكن من البكاء . ووقف بالقرب من البوابة ، وهيأ اصبعه في وجهي مهددا ، وقال :

ــ اياك ان تتجاسر وتحضر لرؤيتي ثانيــة !

فصحت غاضبــا :

ــ انا لم احضر لاراك انت ، ايها العجوز !

فطالنني ذراعه الطويلة مرة اخرى ، وقادني أمامه على طول الطريق، وهو يكرر ذات السؤال ، فتنهال كلماته مثل ضربات مطرقــة ضخمة هبطت علــى رأسي :

ــ هل جدك في الدار ؟

وشاء حظي العاثر ان يكون جدي في الــدار ... وقف امام الرجــل المتوعد ، وقد رمى راسه الى الخلف ، وبرزت لحيته الى الامام ، وقال متلعثما وهو يتطلع بعينين مدورتين كبيرتين كئيبتين :

ــ ان والدته غائبــة ، وأنا مشغول ، وليس من يعنى به . انــي استميحك العذر ، يا كولونيل .

فزمجر الكولونيل بصوت تردد صداه في ارجاء البيت كله ، ثم دار على عقبيه ، وابتعــد ...

وبعد فترة وجيزة كنت مستلقيا في عربة العم بيوتر أخفــي دموعي ، بعد ان نلت نصيبي من الجلد كما لم اذق من قبل . فسالني السائق ، وهو يقود العربــة :

ــ اجلدت ثانيـــة ، يا عزيزي ؟ ما هو خطاك في هذه المرة ؟

ولما اخبرته بالامر هب واقفا على قدميه ، وكز باسنانه ، وصاح غاضبا:

ــ لم أصادق جماعة مثل اولئك ؟ انهم من سلالة النبــلاء ، يمقصون كالافعى ... أرأيت ما نالك بسببهم ؟ ستردها لهم فيما بعد ، من دون ريب؟ اليس كذلـــك ؟

واستمر يهذر على هذا الغرار مدة طويلة ، فاستمعت اليه ــ بادىء الامر ــ في كثير من الود ، ثائرا بسبب ما لحقني من الضرب بسببهم . ولكن وجهه الشبيه بالسلة طفق يرتجف بشكل يبعث على النفور ، فما أسرع ما تذكرت ان اولئك الصغار يجلدون ايضا ، وان ذلك قــد حدث لهم فعلا فيما مضى ، وانهم لم يتعمدوا مضايقتي ابدا ، فهم لا يستحقون اللوم أكثر مني في حال من الاحوال . قلــت :

ــ ليس من سبب يجعلني ارد ذلــك لهم . فهم طيبــون ، وان كــل ما تقول مجرد سخافات ليس غير .

تطلع الي بحدة ، ثم صاح فجاة :

ــ اخرج من عربتــيَ !

فصرخت ، وانا اقفز الى الارض :

ــ يا لك من احمق !

وانطلق يعدو خلفي في الساحة وهو يصيح ، دون ان يستطيـــع الى امساكي سبيــلا :

ــ الحمق أنا ؟ اسخيف أنا ؟ ...

وظهرت جدتي على عتبة المطبخ ، فارتميت في احضانها ، بينما راح بيوتر يوضح لها ما جرى بيننا قائــلا :

ــ ينغص حياتي هذا الكلب الصغير . وهـــو لا يفقه ما يقول ، فينعتني بسائر الاسماء البذيئة ، ويجرؤ على ان يدعوني كاذبا مع أني أكبره بخمس مـــرات ...

كنت أفقد صوابي عندما أرى الناس يكذبون امامي ، فتعقد الدهشة لساني وتجعلني أقرب الى البلاهة . وهذا ما حدث لي عندئذ ، فوقفت أنظر اليه وقد فقدت القدرة على الكلام ... ولكن الجدة قالت بلهجة رصينة :

ــ والان يا بيوتر ، انك أنت الذي يكذب . اني واثقة من أنه لم يوجه اليك الفاظا بذيئة على الاطلاق .

اما جدي فكان يصدق ذلك السائق ...

* *

ومنذ ذلك اليوم ، اعلنها السائق علي حربا صامتة شعواء ، فهو ينتهز الفرص ليلكمني في ظهري ، او يصيبني باللجام الذي يلوحه بيده عابثا ، وكأن الامر يحدث صدفة دون قصد منه ، كما افلت طيوري من اقفاصها ، وسلط القط عليها في احد الايام ... وكان يشكوني ، في كل مناسبة ، الى جدي ، ويهمس في اذنه بأشياء كثيرة مغاليا ابدا في اظهار هفواتي وتعظيمها . وهكذا كنت لا أرى فيه ، من جراء ذلك ، سوى صبي صغير في مثل سني ، يرتدي لباس الرجال الشيوخ .

ورحت بدوري أتفنن في الانتقام منه ، فاحل شرائط صندليه ، واقرض عصابات الاقمشة التي يستخدمها كجوارب لقدميه ، بحيث تتقطع عندما يشدها ليربطها . ورششت ، مرة ، بعض الفلفل في قبعته ، فظل يدور على عقبيه ويعطس طيلة ساعة كاملة . وعلى العموم ، فقد رحت أبذل ما في وسعي لارد له الكيل كيلين ، فاذا جاء يوم الاحد طفق يتجسس علي النهار بطوله ، ويراقبني بعين ساهرة يقظة لا يغمض لها جفن ، فان ضبطني في حالة من العصيان ، أتحدث مع النبلاء الصغار ، أسرع دون ابطاء يشي بي الى جدي .

لكن اتصالاتي استمرت ، بالرغم من ذلك ، مع اولئك الصبية ، وازدادت أواصرها توثقا يوما بعد يوم ، وهي تمدني بسرور لا يمكن وصفه . وكانت تنهض ، بين حائط منزل جدي وسور آل اوفريانيكوف ، زاوية صغيرة مظللة بشجر الليمون والسرو ، ومغطاة بادغال من شجر البلوط التي حفر وراءها متسعا صغيرا في السور يأتيني الصبية منه ، كل بدوره او اثنين

اثنين ، فنجلس القرفصاء نتحـــادث في هدوء وسكينة ، بينمـــا يخفر الثالث المكان كيلا يفاجئنا الكولونيل على حين غرة .

وسردوا علي قصة الحياة الكئيبة المفجعة الرتيبة التـــي يعيشونها ، فاحزنني ذلك كل الحزن ، وحز كثيرا في قلبي . كنا نتحدث عن الطيور التي نصطادها ، وعن كثير من الامور التـــي تملأ حياه الصغار ، ولكنـــي أذكر تماما انهم لم يأتوا ابدا على ذكر والدهم او امراة ابيهـــم . وكثيرا ما كانـــوا يسالونني ببساطة ان احكي لهم قصة ، فاعيد على مسامعهم ــ بأمانة تامة ــ كل تلك القصص والحكايات التي سمعتها فيمـــا مضى ... فاذا نسيت بعض التفاصيل ، طلبت اليهم الانتظار بعض الوقت ، ومضيـــت الى المطبخ اتزود من الجدة ما غاب عن ذاكرتي الامر الذي كانت تسر له سرورا عظيما .

كنت احدثهم ، في اغلب الاحيان ، عن جدتي ... وفي ذات مرة ، ندت عن البكر تنهدة عميقة ، ثم أعلن باكتئاب :

ــ لا ريبة ان الجدات لطيفات جدا . لقد كانـــت لنا جدة لطيفة نحن الاخرون وكنا نحبها كثيرا ...

كثيرا ما تحدث بصيغـــة الماضي ، ويردد كثيرا ، وبحـــزن ظاهـــر ، هذه التعابير : « كنا » و « كان لنا » و « ذات مرة » ، حتى ليخيل اليك انه عاش مئات السنين ، لا احد عشر عاما فقط . وانا اذكر ان يديه كانتا نحيلتين، قد طالت اصابعهما ورقت ، لا بـــل كان ــ في مجملـــه ــ هزيـــلا نحيـــلا ، ذا عينين صافيتين هادئتين تثيران في الخاطر صورة لهب القناديـــل المحترقة ابدا في الكنائس . ولقد احببت اخويه ايضا ، فقد كسبـــا ودي وعطفي منذ اللحظة الاولى ، بحيث يبعثان في قلبي الرغبة الاكيـــدة في منحهما ما يحمـــل السعادة الى فؤاديهما . ولكن غرامي بالبكر كان أعظم على أية حال ...

كنت استغرق واياهم في الحوار حتى يفوتني ، غالبا ، اقتـــراب العم بيوتر منا ... كان ، ابدا ، يفرق بيننا وهو يهتف بنا :

ــ هكذا ؟ معهم ثانية ؟

كنت الحظ انه يزداد عرضة لنوبات التقطيـــب والعبوس . وتعلمـــت أيضا ان اخمن طبيعة مزاجه من مجرد طريقته في فتح البوابة عند عودته من

العمل . كان من عادته ان يفعل ذلك بتمهل وبتؤدة ، بحيث تصفر المفصلات طويلا بين يديه ، فاذا كان سيء المزاج بعثت تلك المفصلات صوتا حادا يشبه زئير انسان يتألم ويشقى .

وقد غادرنا ابن اخيه الابكم الاصم الى الريف منذ زمن طويل ، سعيا وراء الزواج ... وهكذا امسى بيوتر يعيش وحيدا في غرفة واطئة السقف ، فوق بناء الاسطبل ، لها نافذة صغيرة . وكان قليل العناية بتلك الغرفة حتى غصت بروائح القطران ، والجلد المدبوغ ، والتبغ ، والعرق .

وقد طفق ينام ، في هذه الايام ، دون أن يطفيء القنديل ، الامر الذي ازعج جدي كثيرا .

كان يقول لـه دومـا :

ــ احترس ! والا احرقت المكان ، يا بيوتر .

فيجيب ، وهو يتطلع من طرف عينه متفاديا نظرات جدي :

ــ كلا ، أطمئن ، فلا خطر من ذلك على الاطلاق ! اني أضع الشمعة في الليل وسط حوض من الماء .

اضحت نظراته الى الناس والاشياء مسترقة ، سريعة ، منحرفة ... وامتنع عن حضور حفلات جدتي ، ولم يعد يدعونا الى المربّى ، في حين راح وجهه يجف ، وازدادت فيه الغضون عمقا وعددا ، وطفق يترنـح في مشيته ويسحب رجليه سحبا مثل رجل منهوك القوى .

وذات يوم ، بينما كنت وجدي نهيـل الثلج الـذي تساقط بغـزارة اثناء الليل ، سمعنا مزلاج البوابة بلحن خاص وقح ، ودلف منه الى الساحة شرطي اغلق البوابة خلفه ، واتكأ بظهره عليها ، ثم اشار الى جدي بأصبعه السمينة الرمادية طالبا اليه الاقتراب منه . وعندما حاذاه الجد الصق انفه الضخم في وجهه ، واسر اليه شيئا جعله يجمجم ، وهو يرتعش :

ــ هنا ؟ متى ؟ لو كنت اتذكر فقط ...

ثم جفل بشكل مضحك ، وصاح :

ــ أيها الرب العلي ! اذلك ممكن ؟

فحذره الشرطي بصوت خفيض :

ـ صه ! لا تصح هكذا !

تطلع جدي حواليه ، فبصر بي ، فقال :

ـ احمل المجارف واذهب الى الدار .

فاختبأت في احدى الزوايا أراقبهما يدخلان جناح السائق في الاسطبل . وقد نزع الشرطي قفاز يده اليمنى وهو يقول :

ـ لقد فهم ذلك تماما ، فهجرحصانه واختفى ...

انطلقت الى المطبخ بسرعة أطلع جدتي على ما رأيت وسمعت ، فالفيتها منكبة فوق وعاء العجين ، ورأسها المغمور بالدقيق يتأرجح مع حركات يديها ..

قالت بتمهل ، عندما انتهيت من سرد قصتي ، وبقسوة تعنفني :

ـ لربما سرق شيئا ... اخرج الى الساحة والعب ، فما دخلك في ذلك ؟

رجعت الى الساحة راكضا ، فبصرت بجدي يقف قرب البوابة ، وقد نزع قبعته عن رأسه ، وحلق بناظريه الى السماء وهو يرسم اشارة الصليب ، مخشوشن الشعر ، تعلو امارات الغضب وجهه ، وترتجف احدى ساقيه بعصبية

صاح ، وهو يضرب الارض بقدمه :

ـ الم اقل لك ان تذهب الى الدار ؟

ولحق بي الى المطبخ ، وما ان وقعت انظاره على جدتي حتى هتف بها :

ـ تعالي ، يا اماه !

مضيا معا الى الغرفة المجاورة حيث قضيا فترة من الزمن يتهامسان وعندما رجعت الجدة الى المطبخ ، ادركت ، من النظرة الاولى ، أن شيئا رهيبا قد حدث ... سألت :

ـ انت مذعورة يا جدتي ، لماذا ؟

فأجابت بهدوء :

ـــ اطبق فمك ، اتفهم ؟

واطبق على المنزل جو من الضيق والرهبة طيلة ذلـــك النهار ، وظل جدي وجدتي ، على مر الوقت ، يتبادلان نظرات متسائلة قلقـــة ، وكلمـــات مبهمة غير مفهومة ضاعفت من اضطرابي وحيرتي . ثم أصدر الجد اوامره ، بصوت مرتفع ، وهو يسعل :

ـــ اضيئي القناديل كلها ، يا أماه ، امام سائر الايقونات .

تناول طعام الغداء بدون شهية وبسرعة فائقـــة ، فكانهما ينتظـــران احدا . وكان جدي يسعل ، ويهمهـــم :

ـــ ان ابليس يفوق الانسان قوة ... انظري الى هذا ، مثلا ـــ رجل دين ، ورع ، تقي ، بكل معنى الكلمة ، ومع ذلك انظري ماذا فعل !

واتانا ، عند المساء ، شرطي اخر . كـــان سمينا ، احمـــر الراس ، اقتعد دكة في المطبخ ، ومضى يغفو عليها ، فيرتفع شخيره في ضجيج عنيف . سألته جدتـــي :

ـــ وكيف اكتشفوا ذلـــك ؟

فأجاب بفظاظة ، بعد لحظة من الصمت :

ـــ انهم يكتشفون كل شيء عندنا بسرعة .

كنت اجلس الى النافذة اسخن في فمـــي قطعة قديمة مـــن العملة كي اطبع بها صورة القديس جاورجيوس ، حامل النشر ، على زجـــاج النافذة المجمد .. وعلى غير انتظار ، علا ضجيج صاخب في الممر ، ثم فتح الباب ، وظهرت بتروفنا على العتبة ، وهي تصيـــح :

ـــ تعالوا وانظروا ماذا يوجد على ارضكم في الخارج ...

ولم تكد انظارها تقع على الشرطي ، حتى استدارت نحو الباب تسعى وراء الفرار . ولكن رجل الامن امسك بها من قميصها ، وصاح مذعورا :

ـــ تمهلي لحظة ! من انت ؟ وماذا يوجد هناك ؟

فركعت على ركبتيها ، وطفقت تبكي وهي تبتلع كلماتها ودموعها :

ــ لقد خرجت لاحلب البقرة ، وفجأة بصرت بشيء يشبه زوج احذية في ساحة آل كاشرين . . .

فصاح جدي عندئذ حانقــا :

ــ هذا كذب ، ايتها الفاجرة ! انت لا تستطيعين رؤية شيء في ساحتنا فالسور عال جداً وليس من ثغرات فيه على الاطلاق . انت تكذبين ! ليس هناك شيء في ساحتنــا .

فناحت بتروفنا ، وهي تمد اليه احدى يديهــا ، وتمسك رأسها باليــد الاخرى لتقول مترنحــة :

ــ آه ، يا الهي ، انه على حق ، فانا اكــذب ! لقد انطلقت احلــب البقرة ، وفجاة رايت آثار اقدام تقود الى السور ، والثلج مبعثــر في بقعة واحدة ، الامر الذي اثار فضولي ، فتسلقــت السور وتطلعت من عليــه ، فرايته . . . اجل رايتــه . . .

ــ رايت مـ . . . ن ؟

جاءت هذه الصيحة عالية ، طويلة ، لا معنى لها . . .

وعلى حين بغتة ، وكأنهم فقدوا الشعور ، يركضون ويتدافعون خارج المطبخ في اتجاه الساحة . وهنالك ، بين كتل الثلج ، في الحفرة التي خلفها احتراق غرفة الغسيل ، كان العم بيوتــر ممددا ، يستند ظهــره الى خشبة محترقة ، ويتدلى رأسه فوق صدره . وكانت فرجة واسعــة تستقر تحت أذنه اليمنى تماما ، اشبه ما تكون بثغر احمر اللــون ، ذى حواشي مزرقــة تبرز كالاسنان . اغلقت عيني في خوف ورهبة ، فشاهدت ، من خلال اهدابي ، سكين العم بيوتر التي طالما رايته يقطع الجلود بها ، تتدلى من على ركبته ، وقد انشلت بالقرب منها اصابع يده اليمنى المحترقة الملتوية . اما اليد اليسرى فكانت مدفونة في الثلج الذي ذاب تحت الجسد الصغير ، الغارق عميقا في المحيط الابيض النير الناعم ، يبدو طفليا اكثر منه في اي وقــت مضى ، وقد تلطخ الثلج عن يمينه فرسم صورة حمراء غريبة اشبه بالطير ، بينما ظل عن يساره نقيا ، لامعــا ، لا دنس فيه ، يمتد ناعمــا براقا كعهدي به دومــا .

وكان الراس المنحني يرتاح بما اوتي من قوة على الصدر الذي ظهر عليه ، من خلال اللحية المجعدة المشعثة ، صليب نحاسي احاطت به خيوط عديـدة من الدم المتجمـد .

واصابني الدوار لشدة اضطراب الاصوات حولي ، فبتروفنـا تزعق دونما انقطاع ، والشرطي يصيح بفالي ان يذهـب الى مكان ما ، وجـدي يصرخ بكل ما اوتي من قوة :

ــ اياكم ان تمسحوا اي اثر .

ولكنه عبس فجأة ، وشخص الى الارض تحت قدميه ، وخاطب الشرطي في صوت عال يتضمن الامـر :

ــ لا فائدة من كل هذا الصياح ، ايها الضابط ! ذلك عمل الله ، دينونة الله ، وانت تأتينا بمهمتك الحمقاء هذه . تبا لـك !

فصمت الجميع ، وهم يتنهدون ويرسمون اشارات الصليب ، ويحدقون طويلا في الرجل الميـت .

وقفز اخرون من فوق السور ، قادمين من ناحية منزل بتروفنا . كانوا يقفون على الارض فيغمغمون بشيء مبهم ، ثم يأتون عدوا عبر الساحة دون ان يثيروا ضجة تذكر ، حتى رمقهم جدي بحنق ، وصاح كمن فقد الامل :

ــ انكم تستحقون ادغال توت العليق ، ايها الجيران ! الا تخجلون من انفسكـم ؟

وامسكت جدتي بيدي ، وقادتني حتى المنزل . . . حين سألتها :

ــ ماذا فعـل ؟

فأجابت همسا :

ــ اما رأيـت ؟

ظل اناس غرباء ، طيلة ذلك المساء ، وحتى ساعة متاخرة من الليل ، يملأون المطبخ والغرفة المجاورة . وكان الشرطي يصدر اوامـره ، وهنـاك اخر اشبه بأحد الشمامسة يسجل بعض الملاحظات في دفتر صغـير ، وهو يكح باستمرار كالبطـة :

ـــ ماذا ؟ مـــاذا ؟

قدمت جدتي الشاي للجميع ... كان يجلس الى طاولـــة المطبخ رجل منفوخ الجسم ، طويل الســالفين ، ملأت البثور وجهه ، يقول في صوت متكسر :

ـــ ان احدا لا يعرف اسمه الحقيقي . الشيء الوحيد المعروف عنه انه جاء من ايلاتما . اما ذلك الابكم الاصم فلم يعد أبكم أو اصم اكثـــر منكم او مني . لقد تكلم واعترف بكل شيء . وكذلك اعترف شخص اخر ـــ لانهم كانوا ثلاثة ـــ كانت مهمتهم ان يسرقوا الكنائس ، ذلك كان اختصاصهـــم منذ امد بعيد جـــدا ...

فهتفت بتروفنا ، محمرة الوجه ، وهي تتصبب عرقا :

ـــ يا الهـــي !

اضطجعت في سقيفة المطبخ، انظر اليهم من عل ، فبدوا لي ـــ جميعا ـــ قصارا ، غلاظا ، قبيحين ...



١٠

خرجت باكرا صباح يوم سبت الى حديقة الجارة بتروفنا لاصطاد بعض الطيور ، ولكن وقتا طويلا انقضى وتلك المخلوقات الطائرة امام عيني ، وكأنها تتعمد مضايقتي ، فتتمخطر بعذوبة وانطلاق فوق الثلج الفضي المتجمد ، او تطير بين الادغال ، وتتمايل على الاغصان المكسوة بالجلد الفزير اشبه بأزهار زاهية تتالق بين الاضواء الزرق المنعكسة على غبار الثلج المتساقط ... لقد كان ذلك كله على نصيب وافر من الروعة والجمال حتى اني لم احس اسفا او خيبة أمل من جراء محاولاتي الفاشلة للامساك بها . ثم اني ، على العموم ، لست بالصياد الماهر ، بل اسر بالطريقة التي اصطاد بها اكثر مني بالنتيجة ، واحب ان أراقب الطيور ، واتأمل اسلوب حياتها اكثر من ان احوز عليها واملكها .

حقا ! ما ابهى واحلى ان تجلس وحيدا الى حافة حقل يعج بالثلج ويموج ، ترهف السمع الى مناغاة الطيور في سكون أيام الشتاء البلورية ؛ في حين يرتفع ، في الافق البعيد ، رنين اجراس « ترويكا » تعبر الطريق ركضا ، تلك هي قبرة الشتاء المحزن الكئيب تغني ...

وجمعت شباكي واقفاصي ، عندما احسست بالقشعريرة تخترق العظم مني ، والصقيع يدب الى أذني ، وتسلقت السور المفضي الى حديقة جدي ، ومضيت مسرعا في اتجاه الدار . كانت البوابة مفتوحة ، وموجيك ضخم يقود من خلالها ثلاثة خيول أسرجت الى مزلجة واسعة مغلقة . وكانت سحب كثيفة من اللهاث تتصاعد من الاحصنة ، والفلاح يصفر مرحا ، ولكن قلبي

انقبض على حين بغتة دون سبب واضح . سألتـه :

ـ بمن جئت الينـا ؟

فاستدار ورمقني من خلف كتفه ، ثم قفز الى مقعده

ـ لقد جئت بالكاهـن .

فلم يثر ذلك اهتمامي ـ اذا جاء الكاهن فلا ريـب زيارتنا ، بل زيارة بعض المستأجرين سوانـا .

وصاح الفلاح ، وهو يهز عنان الجياد يحثهـا على الفضاء برنين أجراسهـا :

ـ هيا ، اسرعي .

راقبتهم يبتعدون ، ثم اغلقت البوابة ، ودخلت الدار ... ولم اكد ابلغ المطبخ ، حتى تناهى الى سمعي صوت امي العميق يرتفع في الغرفة المجاورة:

ـ حسنا ، ماذا انت فاعل الان ؟ ربما ترغب في الاجهاز علي ، اليس كذلـك ؟

فالقيت بالاقفاص ارضا ، واسرعت الى الممر دون ان أخلع معطفي . لكن جدي امسك بي عند عتبة الباب ، وحملق في بعينين وحشيتـين ، وبلع بصعوبة شيئا ما كان عالقا في حلقه ، ثم صاح بصوت أجش :

ـ لقد رجعت امك ... فاسرع اليها ! انتظر !..

وهزني بعنف بحيث لم اتمالك نفسي الا بجهد كبير ، ثم دفـع بي ناحية البـاب ، وقـال :

ـ ادخل ، ادخـل !

اصطدمت بالباب ، ووقفت عنده لحظة مترددا حائرا ، ترتعش اصابعي انفعالا وبردا ، فأعجز عن الوصول الى مقبض الباب والامساك به . وعندما فتحت الباب اخيرا ، وقفت على العتبة مذهولا ، منعقد اللسان ، فهتفت امي:

ـ آه ، هـا هو ذا ! يا للسماء ! الـم تعرفنـي ؟ ما هـذه الثيـاب

التي برندبها !... انظرى الى اذنيه المتجمدتـــين بردا ! اعطيني شيئا مـــن الدهن ــ اسرعي ، يا امـــاه !

وانتصبت في وسط الغرفة منحنية فوقي ، تخلع عني ثيابي تجعلني ادور امامها كالمحور . كان جسدها الكبير متدثرا برداء احمـــر ، ناعم ، دافيء ، عريض كمعطف الرجال ، ذي صف من الازرار السود الكبيرة يمتد منحرفا من الكتف حتى طرفه ... انا لم اشاهد قط مثل ذلك الثوب من قبل !

بدا لي وجهها اصغر منه قبلا ، وانصع بياضا ايضا . امـــا عيناها فقد اتسعتا وازدادتا غورا ، وشعرها اضحى اكثر بريقا ذهبيا منه في اي وقت اخر .. كانت ترمى بالثياب التى تخلعها عنى ناحيـــة العتبة ، وشفتاهـــا الحمراوان تنقبضان ازدراء ، وهى تقول في نغمة عاتيـــة :

ــ حسنا ، لم لا تقول شيئـــا ؟ ألست مسرورا ؟ تفـــو ، يا للقميص الوســـخ !

وفركت اذني بدهن الاوز ... آلمني ذلك ، ولكن تلك الرائحة المنعشة اللطيفة التي كانت تفوح منها واستنى عن شدة الم وخففت منه . فالتصقت بها ، وتطلعت عميقا في عينيهـــا ، دون ان اقـــول شيئـــا لشدة اضطرابـــى وانفعالـــي .

وسمعت جدتى تقول ، ردا على ملاحظات امي ، بصوت مهدد :

ــ لقد افلت مـــن كل رقابة ، ولـــم يعد يخـــاف حتى مـــن جده ! آه ، فاريـــا ، فاريـــا ...

ــ كفاك عويلا ! ان كـــل شيء سيسير على ما يرام .

كان كل ما يحيط بى يبدو ، اذا ما قيس بوالدتى ، صغـــيرا ، هرما ، بائسا ، لا بل خيل الى اني ، انا ايضا ، أداني جدتي المعجوز سنا وهرما . وضمتنى امى بقوة بين ركبتيها ، وطفقت تمسح على راسي بيدها الدافئة :

ــ ان شعرك لفي حاجة الى المقص .. وقـــد حان وقـــت ذهابك الى المدرسة . أتريد ان تتعلـــم ؟

ــ لقد تعلمت كثيرا حتى الان .

ـــ ما يزال هناك اشياء كثيرة يجب ان تتعلمها . لكن ، يا لك من فتى ذي باس وحيلـــة .

وضحكت ضحكة غنية قوية ، وهي تلاعبني ...

ودخل الجد الى الغرفة ، غاضبا ، مشعث الشعـــر ، محمر العينين .. فدفعتني امي عنها بحركة بسيطة ، وسألت في صوت عميق :

ـــ حسنا ! ماذا علي ان أصنع ، يا ابت ، ارحل ؟

فوقف قليلا الى النافذة يحك الجليد بأظافر يده ، دون ان ينطق بحرف واحد . كان الجو خانقا ، متوترا ، فكأنه يرهف السمع بكل ذراته ، وهو على استعداد للانفجار لدى اول صدمة . وامتلأ جسدي بأسره ، كما هي الحال دوما في مثل هذه الحالات واللحظات ، عيونا وآذانا ، وتوسع صدري كثيرا ، واحسست رغبة لا تقاوم في البكـــاء .

قال جدي ، في صوت يكاد يختنـــق :

ـــ اخرج من هنا ، يا الكمي !

فسألت امي ، وهي تجرني نحوها ثانية :

ـــ ولم يخـــرج ؟

ـــ انك لن ترحلي . امنعك عن ذلـــك !

فنهضت والدتي ، واخذت تتمشى في الغرفة . ثم قالت ، وقد وقفـــت وراء ظهـــره :

ـــ اصغ ، يا ابـــت .

ـــ اخرسي !

فعادت تقول بهدوء :

ـــ انني لا اسمح لك ان تصرخ في وجهـــي !

فصاحت الجدة ، وهي تنهض عن الاريكة وتهز اصبعها محذرة :

ـــ فارفـــــارا !

وغرق جدي يضعف في احد المقاعد ، يجمجم بينه وبين نفسه :

ـــ ما هذا ؟ من انا ؟ ماذا تسمين ذلـــك ؟

وعلى غير انتظار ، طفق يزمجر كحيوان مثخن بالجراح :

ـــ لقد جلبت على العار ، هذا ما فعلته ، يا فاريـــا !

فقالت جدتي تخاطبنـــي :

ـــ اخرج من هنـــا .

مضيت حزينا الى المطبخ ، وتسلقت الموقد حيث بقيـــت فترة طويلـــة استمع الى ما يجري في الغرفة المجاورة ـــ كانوا يتحدثون بحدة مرة ، ثـــم يخيم عليهم الصمت مرة اخرى ، كانوا يتحدثون عن طفل ولدته امي وتركته في رعاية بعض الناس . ولكني لم افهم ما الذي يثير جدي الى هذا الحد ، اهو غاضب لان امـــي ولدت بدون اذنه ام لانها لم تحمل الرضيع اليه ؟

واخيرا ، دلف الى المطبخ ، احمر اللون ، اشعث الهنـــدام ، مضطرب البال ، منهوكا ، تتأثره جدتي وهي تمسح الدموع المترقرقـــة على وجنتيها بطرف قميصها . وارتمى على كرسي ، معتمدا عليها بذراعيه ، منحني الظهر ، يعض شفتيه الشاحبتين . وجثت الجدة على ركبتيها بالقرب منه ، وهـــي تقول بصوت حار خفيض :

ـــ اغفر لها ، يا ابتاه ! محبة بالمسيح ، اغفر لها ! ان لكل حصان كبوة ، وهناك كثيرات غيرها زللن . او لا تحدث مثل هذه الامور بين النبلاء ايضا ، وحتى بين التجار كذلك ؟ انظر الى المراة فيها واغفر لهـــا ، فليس احد منا معصوما عن الرذيلة . . .

فاستند الى الجدار ، يحملق في عينيها ، وهو يردد ناشجا :

ـــ اوه ، نعم ، بالطبع ! لم لا ؟ انت على استعداد لان تسامحي كل انسان وكل شيء . تفو ! تبا لـــك !

ثم انحنى نحوها ، وأمسك بها من كتفها ، وراح ينهرها والكلام يسيل همسا من بين شفتيه :

ــ ولكن ، ماذا تقولين عن الله ؟ انه لا يغفر كل شيء ، اليس كذلك ؟ ها نحن اؤلاء على حافة القبر ، وهو ينزل العقاب بنا . لقد بلغنا ايامنا الاخيرة فاذا بها فارغة من السلام ، والفرح ، ومن كل ما كنا نطمح اليه ... سنموت شحاذين ، تذكري كلماتي ، شحاذين معدمين !

فأخذت جدتي يده في يدها ، وجلست بالقرب منه ، وضحكت بهدوء :

ــ وما اهمية ذلك ؟ ولم كل هذا الخوف من أن تكون شحاذا ؟ اذن ، سنصير شحاذين ، وتستطيع أنت ان تبقى في البيت ، بينما اخرج انا لاستجدي ... ولن نعيش جائعين عريانين ، فكفاك تعذب نفسك بمثل هذه الاوهام !

ونفخ بمنخريه فجاة ، ونطح الهواء براسه كالتيس ، ولف ذراعه حول عنق جدتي ، والتصق بها ، صغيرا ، رثا ، باليا ، وقال متأوها :

ــ ايتها الحمقاء ، ايتها الحمقاء اللعينة ! انت الانسان الوحيد الذي بقي لي على الارض . انت لا تاسفين على شيء ايتها البلهاء ، لانك لا تفهمين شيئا تذكري فقط ما عملنا من اجل اولادنا ! افلم ارتكب المعاصي في سبيلهم ؟ والان ، في النهاية ، ماذا فعلوا لنا ، لو انهم يردون لنا شيئا يسيرا مما عملته من اجلهم !..

وهنا لم اعد احتمل مزيدا ، فقفزت عن الموقد وانا اتصبب عرقا ودمعا، وركضت اليهما ، وانا ابكي فرحا لان امي قد عادت ، ولانهما تبادلا هذه الكلمات اللطيفة الجميلة ، اسفا لانهما سمحا لي بمشاركتهما احزانهما عانقاني ودللاني ، واغرقاني في دموعهما ، وهمس جدي في اذني كمن يعتذر :

ــ هانذا هنا ايضا ، ايها الوغد الصغير ! انك لن تحتاج الي بعد الان ، بعد عودة امك ، انا ، جدك ، الشيطان الهرم ، اليس كذلك ؟ حتى ولا جدتك ، تلك العجوز التي لا تعرف شيئا سوى تدليلك وافسادك . الا تبا لك!

وأبعدنا عنه باشارة من يده ، ثم نهض واقفا وقد تمالك نفسه ...

صاح غاضبا :

ـــ الجميع يتركوننا ! وكل يذهب في الطريق الذي يريد ، لا يعرف الا مصلحته الخاصة .. حسنا ، نادوها ، اسرعوا !

فغادرت جدتي المطبخ مسرعة ، بينما انتحى جدي ناحية الايقونات ، وهو يهمهم منحني الراس :

ـــ ايها الرب الغفور ـــ هل ترى ماذا افعل ؟ هل ترى ؟

وضرب صدره بقبضة يده بعزم ، فكان لذلك رنين قوي لم احبه . فكنت، على العموم ، ابغض تلك الطريقة التى يخاطب الله بها .. كان ابدا يتباهى ويفخر بشيء ما ... وجاءت امى ، فملأت الغرفة بوجودها الذي كنت اشتاقه وجلست الى الطاولة على الدكة بين جدتـــي وجدي ، وكـان ثوبها العريض ينحدر عن كتفيها ، وراحت تروي لهما بهدوء ووقار قصة ما ، وهما يصغيان اليها في صمت وسكون . كانا يبدوان بالنسبة اليها ، فكأنها هي الام وهما ولداهـــــا !

كنت مضطجعا في السقيفة ، فسرعان ما استسلمت ، منهوك القوى من حوادث النهار ، للنوم الذي طغى علي بسرعة ...

ارتدى الشيخان ، ذلك المساء ، ثيابهما الفاخـــرة ، ومضيا لحضـــور صلاة الغروب . غمزتنا جدتي جذلانة لتلفت انتباهنا الى جـــدي الذي كان يتالق في بزة رئيس نقابة الصياغين المؤلفة من سروال مخملي ومعطف مـــن جلد السنور ، ثم همست في اذن امي كمن يكشف سرا :

ـــ انظري الى ولدك ، يا له من تيس صغير :

فضحكت امى في غبطـــة ...

وعندما خلوت واياها في غرفتنا ، جلست على الاريكة وقد ثنت احدى ساقيها تحت جسدها ، ونادتني ، وهي تنقر باصبعها على الاريكة المجاورة لها:

ـــ تعال ، تعال واجلس الى جنبي . حدثني كيف عشت حياتك ؟ حياة رديئة ، اليس كذلـــك ؟

ترى ، كيف كانت الحياة ؟ لست ادري !...

ـــ أيجلدك جـــدك ؟

ـــ لم يعد يجلدني كثيرا .

ـــ صحيح ؟ حسنا ، حدثني عن كل ما نشاء ، هيا ...

لم احس شوقا الى الحديث عن جدي ، فرحـــت اروي لها ان رجـــلا لطيفا جدا سكن الغرفة التي نحن فيها الان ، وكيف لم يحبه أحد من سكان الدار ، وكيف طرده جدي اخر الامر . وبدا لي ان تلك القصة لم ترق لوالدتي التي قالـــت :

ـــ حدثني عن امور اخرى .

فحدثتها عن الصبية الثلاثة ، وكيف طردني الكولونيل من ساحته .

قالت ، وهي تحتضنني :

ـــ يا له من رجل خسيس !

واستكانت نفسها ، فراحت تتأمل الارض بنظرات من عينين ضيقتين ، وهي تحك راسها ... سالتهـــا :

ـــ لماذا ينقم جدي عليـــك ؟

ـــ أنا مذنبة في نظـــره .

ـــ كان يجب ان تحملي الطفل اليه ...

فجفلت ، وقطبت جبينها ، وعضت شفتها ، ثم اطلقت ضحكة عالية... قالت ، وهي تحتضنني ثانيـــة :

ـــ ايها الطفل الصغير ! اياك ان تتفوه بأية كلمة عنـــه مرة اخرى ، اتسمع ؟ ولا كلمة ـــ بل اياك ان تفكر في ذلك على الاطلاق .

وظلت ، بعض الوقت ، تتفوه بكلمات هادئـــة ، جافة ، مبهمـــة ، لم اع منها شيئا ، ثم نهضت تذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، وهي تنقر بأصابعهـــا على ثغرها ، وتحرك حاجبيها الغليظين .

كانت شمعة تحتــرق على الطاولة وتذوب ، فتنعكس خيالاتهــا فــي المرآة ، بينما ظلال وسخة ترتجف على الارض ، والقنديل الازلي يلتهب فــي زاوية الايقونات ، والنافذة المغطاة بالجليد تضيء في ضوء القمر بلمعان فضي براق . واجالت والدتي ناظريها حولها ، كما لو كانــت تفتش عن شيء في الجدران الفارغة والسقف العالي ، ثم سألت :

ــ متى تذهب الى فراشك ؟

ــ بعد قليــل .

فأجابت ، وهي تتنهــد :

ــ هذا صحيح ، لقد غفوت قليلا بعد ظهر اليوم .

سألتها بعد قليــل :

ــ اترغبين في الرحيل ؟

فأجابت في دهشة :

ــ الى ايــن ؟

ثم رفعت راسي ، وحملقت طويلا في عيني بحيــث لم استطع لدموعي احتباسا . . .

ــ ما بالــك ؟

ــ ان رقبتي تؤلمنــي .

ولكن قلبي كان اكثر ايلاما ، فقد ادركت انها لن تستطيع العيش في ذلك البيت طويلا ، بل ستغادره حتما مرة اخرى .

قالت ، وهي تلعب بطرف السجادة بقدمها :

ــ انك ستغدو شبيها بوالدك في يوم ما . هل حدثتك جدتك عنه ؛

ــ نعــم . .

ـ لقد كانت تحب مكسيم كثيرا . كانت مغرمه به . وكان ، هو الاخر ، مولعـا بهـا .

ـ انا اعلم ذلك .

والقت نظرة على الشمعة ، وعبست ، ثم نفخت على الشعلة الضئيلة فاطفأتها ... وما عتمت ان قالت :

ـ هذا افضـل .

كان ذلك افضل من دون ريب ، فقد بدت الغرفة اكثر وداعـة ونظافة عندما خمد النور . وحلت شعاعات ضوء القمر الزرق محل الاخيلة الوسخة على الارض . بينما طفقت شرارات ذهبية تتمايل على زجاج النافذة وتتراقص كريشة في يد فنـان .

ـ اين كنت تعيشين قبل مجيئك الى هنا ؟

فذكرت اسماء بلدان عديدة . وكأنها تستعيد في ذاكرتها ماضيا سحيقا غابت حوادثه عن بالها منذ زمن بعيد ، وهي تدور طوال الوقـت في الغرفة كطائر حبيس ليس يدري افلاتا ، ثم سألت :

ـ من اين حصلت على هذا الرداء ؟

ـ صنعته بنفسي . اني اصنع كل شيء بنفسي .

كنت اسر للغاية حين اراها تختلف عن الجميع كـل الاختلاف ، فـلا يؤسفني منها الا قلة حديثها ، فهي لا تتكلم الا كي تجيب على اسئلتي .

وجلست ، مرة ثانية على الاريكة قربي ، وبقينا هكذا طويلا صامتين ، ملتصقين ببعضنا بشدة حتى رجع الشيخان من الصلاة تفوح منهمـا رائحة الشمع والبخور ، وتعلو وجهيهما سيماء الرفق ، واللطف ، والاكبار ...

وكان العشاء احتفاليا ، يليق بحدث عظيم الاهمية ، لم نتحدث خلاله الا نادرا بتحفظ شديد ، فكأننا نخاف ايقاظ شخص عزيز مـن نومه الخفيف الذي استسلم لـه ...

ولم تمض أيام قليلة حتى اخـذت والدتـي على عاتقها مهمة تثقيفـي

« الدنيوية » فابتاعت لي بعض الكتب ، كان أحدها «مبادىء القراءة الروسية» الذي تعلمت فيه ؛ خلال بضعة أيام ، حروف الهجاء المستعملة في غير الكتب الدينية . لكن أمي كانت تريدني حفظ الشعر عن ظهر قلب ، فكان ذلك بدء عذاب مشترك لنا نحن الاثنين .

وهذه هي اول المقطوعات الشعرية التي كان علي أن احفظها :

« طريق تهب عليها الريـاح ،

تجـوز الحقـول ودور البشر !

وما كسر الفأس الحجارة فيهـا

ولكـن حوافـر خيـل تمـر »٠

كنت ، كلما تلوتها ، اقول « النباح » عوضا عن «الرياح» ، و «الكاس» عوضا عن « الفأس » و « فرافر » عوضا عن « حوافر » ... فتحتج والدتي بقولهـا :

ــ ولكن فكر قليلا ، كيف يمكن ان يهب « النباح » ، أيهـا الغبي ؟ قل « الريا ح » ، هذا ما يجب ان تقول !

فهمت ذلك ، ولكنني ظللت اقول «النباح» اثناء تلاوة الدروس ، فتغضب والدتي غضبا شديدا ، وتلقبني بالعنيد الغبي ، فأجد هذه الكلمـات قاسية جارحة ، واروح احاول جهدي الا اخطىء اللفظ مـرة اخرى ... وكنـت ، كلما رددتها في قلبي ، لا اخطىء فيها أبدا ، ولكن لا ابدأ بتلاوتها بصوت عال حتى اخلط بين الكلمات من جديد . وابتدات اخيرا اكره ذلك الشعر المقيـت فشرعت اشوهه عمدا ، بأن اجمع عددا من الكلمات التي لها نفس النغمة الى بعضها البعض ، واغتبط عندما تفقد تلك الاشعار بذلك كل معنى لها .

ولكن تلك التسلية كلفتني غاليا ، فقد سألتني والدتي ، ذات مرة ، في نهاية احد الدروس ، ان اسمعها تلك الابيات . فرحـت اغمغم عاليا دون قصد أو وعي منـي :

« على الطريق الطويلة ، السهيلة ، الهزيلـة ،
لا كاس ، ولا طاس ، ولا ناس ، ولا راس !... »

وما ادركت ما أنا فاعل الا بعد فوات الوقت : فقد نهضت امي ، وهي تعتمد يديها على الطاولة . . . سألت . وهي تلفظ كل كلمة على حدة :

ــ من اين جلبت كل هــذا ؟

فاجبت . وقد سيطر علي رعب شديد :

ــ لست ادري صدقيني : لست ادري .

ــ أوه ، بل انت تدري . اخبرني !

ــ لقد قلت ذلك عرضا .

ــ لمــاذا ؟

ــ لمجرد التسليــة .

ــ امض الى الزاويــة !

ــ اية زاويــــة ؟

لم تجب ، ولكنها رمقتني بنظرة افقدتني صوابي تماما ، فلم أعد ادري ما افعل ، وماذا تريد مني ان افعل . . كانت في زاويــة الايقونات طاولــة مستديرة تحمل اناء يفيض بزهور جميلة واعشاب مجففة ، وفي زاوية اخرى تقوم دكة عليها سجادة صغيرة ، في حين يشغل الزاوية الثالثة احد الاسرة. اما الزاوية الرابعة والاخيرة التي يقوم فيها الباب فغير موجودة على الاطلاق . . . قلت ، وقد بدا اليأس علــي :

ــ لست ادري ما تريدين مني ان افعل !

فغاصت في احد المقاعد وهي تحك ، جفنيها وخديها :

ــ الم يأمرك جدك ابدا بالوقوف في الزاوية ؟

ــ متــى ؟

فضربت الطاولة بقبضة يدها مرتين ، وصاحت :

ــ في يوم من الايــام !

ـ كلا ! لا اذكر ذلك مطلقـا

ـ الا تعلم ان الوقوف في الزاوية عقاب ؟

ـ كلا ! ولماذا يكون عقابـا ؟

فصاحت بصوت اشد ارتفاعا :

ـ تعال الـي !

فسألتها بعد ان مضيت اليهـا :

ـ لماذا تصيحين في وجهـي ؟

ولماذا تتعمد تشويه الاشعار التي احفظك اياها ؟

فرحت اشرح لها ، بكل ما اوتيت من قوة ، انني اتذكر القصيدة كما مكتوبة عندما اغلق عيني ، حتى اذا جربت القاءها بصوت عـال ، صد مني كلمات اخرى دون ارادتي ، فسألت بهدوء نسبي :

ـ الست تسخر مني الان ؟

فاقسمت انني صادق . . . ثم رحت ، على الفـور ، اتساءل ان صادقا ام لا ! . . وعلى غير انتظـار ، اخذت اتلو الابيات بتؤدة ، فاذ لا اخطىء فيها ابدا ، الامر الذي ادهشني وسحقني في وقت واحد . احس بوجهي يتورد ، وباذني تلتهبان وتمتلئـان دما ، وبطنـين مزعج يدوي ؛ دماغي ، ووقفت هكذا تجاه امي وقد اهلكني الخجل الشديـد ، ارى ـ خلال دموعي ـ وجهها يسود اسفا وكمدا ، وحاجبيها ينخفضـان وت تطبقـان . . .

سالت ، في صوت عال مرة اخرى :

ـ ما معنى ذلك ؟ يبدو انك كنت تتعمد ذلك فعلا !

ـ لست ادري . . . لم اكن اقصده . .

فقالت ، وهي تهز راسهـا :

ـ ما اصعبك ! اخرج من هنا !

وراحت تطلب منـي ان احفظ كل يوم قطعـة جديدة من الشعـر ، فتزداد ذاكرتي تمردا ، بينما تتضاعف الرغبـة في تحريـف تلك الاسطـر الموزونة ، وينمو الشوق الشرير لاستبدال بعض الكلمات بغيرها وتشويهها .
وكنت اتوصل الى ذلك دون صعوبـة ، فتهجـم الكلمات الغريبة الى فكري اسرابا ، تأخذ ــ دون كلفة ــ مكان الكلمات الاصلية . وكانت حافظتي احيانا ترفض استيعاب ابيات كاملة مهما بذلت من الجهد العنيد في سبيل ذلك ــ مثلا :

« منذ الصبح وحتى هبـوط الغسق ،
يمر ــ على الدرب ــ جمع طريح !
يستعطون شيئا باسم المسيح !...

فكنت انسى الشطر الثالث منها على الدوام واستبدله بـ :

« ويودون خبـزا يسد الرمق » .

وتغتاظ امي لهذا الانكفاء في ذاكرتي فتلجأ الى جدي تحدثـه بالامـر ، فينوجه اليها هذا قائلا في غضب :

ــ خبيث ، شيطان ، يفعل ذلك عمدا . انه يعـرف جميع الصلـوات احسن مني ، وله ذاكرة كالحجر ، اذا انحفر فيها شيء لم يقتلع منها ابدا . يجب ان تجلديـه !

وجاءت جدتي تثني على رايـه :

ــ انه يتذكر القصص والخرافات جيدا ، وكذلك الاغنيات والاغانـي الشعرية ، اليس كذلـك ؟

كان كل ذلك صحيحا لا مراء فيه ... شعرت اني الملـوم ، ومع ذلك كنت كلما ابدا في حفظ قصيدة جديدة تأخذ مفردات اخرى تدب كأسراب مـن الصراصير ، وتصطف من ذاتها الواحدة تلو الاخرى في ابيـات اكثر او اقل تناسقـا :

« يأتي الى بيتنا في الصبـاح !
اناس كثـيرون ينتظـرون ...
يصلـون ... ويبتهلـون
ويبكـون مثـل زئـير الريـاح !

وكنت اعيد على جدتي ، عندما ارقد الى جانبها ليـــلا في السقيفة ، كل ما علق بذهني من دروس ذلك النهار ، وكل ما تفتقـــت عنه مخيلتي من ابداع خاص ، فتضحك أحيانا ، وتزجرني احيانا اخرى بقولها :

ــ ارأيت ، انك تستطيع ان تفعل ما تريد حين تريد ! ولكـــن ، يجب عليك الا تهزأ بالفقراء لان الله معهـــم ... ان المسيح نفسه كان فقيرا ، وكذلك بقية القديسين .

فأجيب متمتمـــا :

ــ « انـــي أبغض الفقـــراء ،

وابغض ايضـــا جـــــدي !

فاغفـــر لـــي يا ربـــي !...

الطـــــير فـــي الهــــواء ،

لافـــر من عنـــق جـــدي ،

أم انـــزوي في جـــب ؟!.. »

قالـــت بحـــدة :

ــ ابت لسانك يقلع من جذوره ، ايها الوقح الشرير ! ماذا يحدث لو سمع جدك هـــذا ؟

ــ فليسمـــع ...

فراحت ترجوني بلطـــف :

ــ لماذا تظل تضايق امك المسكينة هكذا ؟ يكفيها ما تعانيـــه الان حتى تزيد الطين بلـــة بخبثـــك ...

ــ وما نوع همومهـــا ؟

ــ اخرس ! انك لا تستطيعان تفهم مثل هذه الامور !

ــ انا اعرف ان جدي ...

ـ لقد أمرتك ان تخرس !

كنت تعيسا يطفح قلبي بشعور أقرب ما يكون الى اليأس ؛ فاريد ـ لسبب اجهله ـ كتمان ذلك الشعور وعدم اظهاره ، فلا ازداد الا جراة ووقاحة وتمردا ! وتكاثرت دروس والدتي واشتدت صعوبة على مر الايام . لم يكن يعسر علي فهم الحساب ، وان كنت بالمقابل لا أطيق الاملاء ولا افقه معنى لقواعد اللغة . والذي كان يغيظني اكثر من كل شيء اخر هو الشعور بشقاء والدتي وادراك بؤسها في دار أبيها . كانت تزداد تجهما يوما بعد يوم ، فتهيم عيناها وراء شيء غريب ، بعيد ، غير منظور ، او تجلس الى النافذة ساعات طويلة تحملق الى الخارج في صمت وسكون ، تتراءى لي حين اشخص اليها انها تذبل شيئا فشيئا وتتلاشى . لقد كانت ، في الايام الاولى بعد وصولها ، سريعة الحركة ، تطفح نشاطا واندفاعا ، أما الان فقد تربعت دائرتان سوداوان تحت عينيها ، واصبحت تقتصر من ظهورها بيننا ، فتقضي النهار بطوله في قميص طويل اشعث غير محكم الازرار ، دون ان تسرح شعرها او تصففه ... وكان يحز في قلبي ان أراها على هذه الحال من الاهمال ، هي التي كانت بالنسبة لي دوما حسنة جميلة ، بل كنت اشعر انها اجمل انسان في الوجود كله .

وفي اوقات الدروس كانت لا تنظر الي ، بل تثبت نظرها في الجدار ، او تبعث به من خلال النافذة ، وتطرح علي الاسئلة في صوت متعب منهوك ، بدون مبرر ، الامر الذي كان يحزنني ويجرح مشاعري ، فتصيح في وجهي دون انقطاع ، الا مر ا لذي كان يؤلمني ويجرح مشاعري . ان من واجب الام ان تكون عادله ، اعدل من بقية الناس ، مثل الامهات في قصص جدتي الخرافية ... وكنت ، في فترات متتاليات ، اسألها :

ـ الست سعيدة بيننا ؟

فتجيب بحدة :

ـ هذا ليس من خصوصياتك . اهتم بشؤونك الخاصة .

وكنت أرى ايضا ان جدي يهيء امرا تخافه جدتي وامي . وكثيرا ما كان يقفل الباب على امي وعلى نفسه في غرفتها ، حيث يتناهى الى سمعي زعيقه اشبه بصفرات آلة الراعي نيكاتور الخشبية المخوفة ... وقد صاحت امي ، في احدى هذه المناسبات ، بصوت عال جدا سمعه جميع من في البيت:

ـــ هذا لن يكون ابدا ، ابــدا !

واغلقت الباب بشدة ، فشرع جدي يعوي ...

كان الوقت مساء ، وجدتي جالسة في المطبخ تخيــط لجدي قميصا ، وهي تغمغم بينها وبين نفسها بكلمات مبهمـــة غير مفهومة . وعندمــا اغلق الباب بشدة ، ارهفت سمعها وهي تصيح :

ـــ آه ، يا الهي ! ماذا حدث ؟

وفجاة ، اندفع جدي داخل المطبخ ، وتوجه مباشرة الى زوجه يلطمها على راسها ، ويكز باسنانه ، ويزعق وهو يحمل يده المجروحة :

ـــ متى تتعلمين ضبط لسانك ، ايتها الساحرة العجوز ؟

فاجابت بهدوء ، وهى تعيد ترتيب شعرها :

ـــ يا لك من احمق ! اتعتقد انك ستعلمني ضبط لساني عــن الكلام ؟ تاكد انني سأطلعها على كل شيء اعرفه من مشاريعك وخططك ...

فرمى بنفسه عليها ، وانهال على راسها ضربا مبرحا وهي ساكنة ، لا تقاوم ابدا ، ولا تجرب ان تدفعه عنها ، بل تردد بعناد :

ـــ هيا اضربني ، ايها الاحمق ! اضرب ، اضرب ...

ورحت انا ارميه ، من على السقيفة ، بالوسادات والاحرمة والاحذية ، وكل ما طالته يداي ... ولكنه ، وقد اعماه الغضب ، لم ينتبــه لشيء من ذلك مطلقا . وسقطت جدتي على الارض ، فاستمر يرفسها على راسها حتى تعثر وسقط على الارض ، راميا معه سطلا من المــاء . وسرعان ما نهض وهو يبصق ، ويتلفت يمنة ويسرة قبل ان يندفع خــارج المطبخ مسرعا الى غرفته في الطابق العلــوي . ونهضت جدتي بدورهــا وهي تتــأوه وتئن ، وجلست على الدكة ، وراحت تعلق الدبابيس في شعرها المشعث ... اما انا فقفزت عن السقيفة الى الارض ، وما كادت تراني حتى صاحت في غضب :

ـــ اجمع هذه الوسادات والاشياء الاخرى ، وارجعها الى مكانها فوق . جميل والله ان ترمينا بكل هذه الاشياء هكذا ! قلت لك الف مرة لا تهتم بما

لا يعنيك ... وذلك الشيطان الهرم . ما باله قد فقد عقله على هذه الصورة الوحشيـــة ؟

وعلى حين غرة ، ندت عنها صرخة خافتة ، وتغضن وجهها ، ونادتني وقد احنت راسها ودلتني باصبعها :

ـــ انظر هنا ، ما الذي يؤلمني بكل هذه الشدة ؟

فرفعت شعرها الثقيل افتش فيه حتى عثرت على دبوس غارز في فروة راسها . سحبته ، فوجدت دبوسا اخر ... وهنا شعرت بالضعف يجتاح جسدي بكامله ، فقلـــت :

ـــ يحسن ان انادي امي ، انا خائـــف !

فصاحت ، وهي تلوح بيدهـــا :

ـــ ماذا تقـــول ؟ تنادي امـــك ؟! اشكر الله لانها لـــم تر ذلـــك او تسمعه ، وانت تريد ان تناديها ! اخرج من هنا !

وراحت تبحث باصابع مطرزه ماهرة ، عن الدبابيس المدمونة في شعرها الكثيف الرائع . وجمعت شجاعتي وقـــواي ، واعنتها في سحـــب دبوسين اخرين من جلدة راسها .

ـــ ايؤلمك ذلـــك ؟

ـــ قليلا ! سأستحم غدا واغسل الالم كله .

ثم راحت تملقني بحنـــان :

ـــ لكن ، اياك ان تخبر امك بما حدث لي ، ايها العصفور الصغير ... يكفي ما هي فيه . انت لن تخبرها ، اليس كذلك ؟

ـــ كلـــلا !

ـــ حذار ان تنسى وعدك ! والان ، فلنرتب كل شيء معا . اتستطيع ان ترى شيئا ما على وجهي ؟ كلا ؟ هذا حسن ! ان ما حدث سيظل سرا بيننا .

وبدات تمسح الارض ، فقلت من صميم قلبي :

ـــ انت قديسة ـــ يعذبونك ويضربونك ولا تلقين اليهم بالا .

ــ ما هذا الهراء ؟ قديسة يا له مــن مكان جميــل للبحث فيه عــن قديسة !

ظلت تغمغم طويلا وهي تزحف على يديها وركبتيها ، بينما قبعت انا على عتبة الباب أبحث عن طريقة أنتقم بها من جدي على تصرفه ذلك المساء ...

كانت هذه هي المرة الاولى التي يقسو فيها جدي علي جدتي حتى تلك الدرجة ، في حضوري على الاقل ... فرحــت أتصور ، في ظلمــة الليل ، وجهه الملفوح المتأجج ، وشعره الاحمر يتموج حواليه . كــان قلبي يحترق غيظا وانا اتألم لعجزي عن تصور الانتقام اللائق .

وبعد يومين ، دخلت غرفته في الطابق العلوي لسبــب ما ، فوجدته متربعا على الارض ، مكبا على صندوق مفتوح يعبث فيه ببعض الاوراق ، وقد وضع على كرسي بالقرب منه تقويمه الكنائسي الذي يحبه كثيرا ، وهو مؤلف من اثني عشرة ورقة من اللون الباهــت السميك قسمت الى مربعات بعدد أيام الشهر ، وفي كل مربع منها صورة لوجه القديس الذي يوافق عيده ذلك النهار . كان جدي يقدر ذلك التقويم ويحرص عليه كثيرا ، فلا يسمح لي بالقاء نظرة عليه الا في حالات استثنائية نادرة ، عندما يكون راضيا عن عملي او سلوكي . وكنت أمعن النظر في تلك الملامح الصغيرة الباهتة الجذابة ، وعاطفة غريبة تتأجج في صدري . كنت أعرف سيرة حياة بعضهم : كريــك واوليتا ، والشهيدة فارفارا ، وبندلامون ، وغيرهم ايضا .. وكنت أحب ، بصورة خاصة ، قصة القديس الكسي ، رجل الله ، وكذلك تلــك الاشعار الرائعة التى غالبــا ما كانــت جدتي تتلوها وتلحنها على مسمعي بنغمــة خاصة تهز مشاعري . كنت انظر الى هؤلاء الشهداء أحيانــا ، فاتعزى حين افكر ان بعض الناس ، في كل عصر ، قد اضطهدوا من أجل ايمانهم ...

غير انني قررت ، في تلك اللحظة بالذات ، ان أمزق ذلــك التقويم . فوقفت أترقب الفرصة ، حتى اذا مضى جدي الى النافــذة يقرأ في ورقــة زرقاء مزينة برسوم مختلفة ، اسرعت فاختطفــت ثلاث وريقات من ذلــك التقويم ، ثم وليت الادبار حتى المطبخ حيث تناولت المقص مــن على طاولة جدتي ، وتسلقت السقيفة وشرعت اقص رؤوس القديسين . ولم اكد أطيح بأول صف منهم حتى حز في قلبي اتلافهم على هذه الصورة ، فشرعت اقص الورق على مستوى الخيوط التــي تفصلها الى مربعات . ولم اكد انتهــي من قص السطر الثاني حتى ظهر الجد على عتبة الباب ، وقال :

ـ من سمح لك ان تسرق التقويم ؟

وعلى غير انتظار ، لمح المربعـات الصغيرة مبعثـرة علـى الارض ، فاختطفها ورمقها طويلا ، ثم رماها والتقط سواها ، حتى اذا ادرك ما حدث ارتعش فكه ، وارتجفت لحيته ، واشتد تنفسه بحيـث اطاح بالاوراق تطير في الهـواء .

ـ ماذا فعلت ايها الشقي ؟

وقف اخيرا ، واخذ يجذبني من قدمي عن الموقـد ... ولكني افلـت منه ، وقفزت في الهواء ، فالتقطتني جدتي بين ذراعيها ...

صرخ ، وهو يكيل الضربات لجدتي ولي ايضا :

ـ ساقتل ... !

وظهرت والدتي فجأة ، فوجدت نفسي في الزاويـة وهي تقف امامـي تحمينـي ...

صاحت ، وهي تجرب ان تصد سيل اللكمات التي تنهـال من قبضتي جـدي :

ـ ماذا تفعل ؟ عد الى صوابك !

فتهالك جدي على دكة قرب النافذة يقول ، وهو ينتحب :

ـ لقد قتلتموني ، جميعكم ضدي ـ كلكم !

فجاء صوت امي الخافت الضعيـف :

ـ الا تخجل من نفسك ؟ انت ابدا تسخر من الجميع بتمثيلك هذا !

فابتدا يصرخ ، ويرفس الدكة بقدميـه ، وقد اغلـق عينيـه بشدة ، وارتفع رأس لحيته نحو السقف بشكل يبعث على السخرية ، وبدا لي انه خجل حقا من ذلك الدور الذي مثله بحضور امي ، وان هذا ما جعله يغلق عينيه ... قالت امي تهدىء من روعه ، وهي تلتقط الاوراق المبعثرة :

ـ سالصق لك هذه القطع الى بعضها على قطعة مـن القماش ... فيصبح التقويم احسن مما كان عليه واكثر متانة . انظر اليه ، لقـد اهترأ

وتمزق هذا التقويم . ولم يعد ينفع مطلقـــا .

كانت تحدثه بنفس اللهجة التي نتوجه بها الي عندما كا نيعصى علـــي فهـــم شرحها . لكـــن الجد نهض فجـــاه ، واصلـــح من وضـــع قميصـــه وصدريته بترو زائد واحتيال عظيم ، ثم سعل ، وقال :

ـــ عليك بالصاق هذه الاشياء اليوم بالذات . سأجيئك ببقية الاوراق الباقية عندي .

واتجه الى الباب ، ولكنه استدار على العتبة وقال ، وهو يهز اصبعه المعوج مشيرا الـــي :

ـــ أما هو فيستأهل الجلـــد !

فوافقت أمي بهزة من رأسها وقالت :

ـــ نعم ، لا ريب في ذلـــك .

ثم سألتني ، بتمهل :

ـــ لماذا فعلت ذلـــك ؟

ـــ فعلت ذلك عمدا . واذا هو ضرب جدتي ثانية لاقطعن له لحيته

فهزت جدتي رأسها ، وهي تخلع قميصها الممزق ...

قالت ، وهي تبصق باشمئزاز :

ـــ كان يجب ان تمنع لسانك عن الكلام كما وعدتني . ليت هذا اللسان ينقطع حتى يكف عن الثرثرة بكلام بذيء !

فرنت أمي اليها ، ثم استدارت الي ، وسألت :

ـــ متى ضربهـــا ؟

فقاطعتها جدتي ممانعـــة :

ـــ الا تخجلين ، يا فارفارا ، اذ تطرحين على طفل صغـــير مثل هذه الاسئلـــة ؟ ذلك ليس من شأنك !

فساحت أمي ، وهي تعانقها بحرارة :

ــ آه ، اماه ، ايتها الحبيبـــة !

ــ هم ، يا لها من أم ممتازة بالنسبة اليك ! هيا ، دعيني اذهب ...
ونظرت كلتاهما الى الاخرى لحظة في صمـــت ، ثم مضت كل منهما في سبيلها ... وكنت استطيع ان اسمع الى جدي يروح ويجيء في الممر ويتمشى بعدم استقرار .

...

تصاحبت امي ، منذ اليوم الاول لوصولها ، مع زوجة الضابط اللطيفة، وامست نزورها كل مساء تقريبا . وهناك كانت تلتقي ببعض آل بيتلينغ ــ زمرة من السيدات الجميلات ، وفريق من الضباط الشجعان . ولكـــن ذلك لم يرق لجدي ، فكان يلوح بملعقته دوما في اتجاههـــم ، وهو مكب علـــى الاكل في المطبخ ، ويقول معلقا بتأفف :

ــ انهم يحيون حفلة اخرى الليلة ، لعنة الله عليهم ! هذه ليلة ثانية لن اجد النـــوم سبيلا فيهـــا .

وما اسرع ما طلب الى الجيران اخلاء الشقة . ثم جلب بعد رحيلهم ، من مكان لا يدري به أحد ، شحنتين من الاثاث البالي العتيـــق ، ووزعه في الجناح الفارغ ، واحكم قفل الباب ، وهو يقول :

ــ اننا لن نحتاج الى اولئـــك المستاجرين بعـــد اليوم ، بل انا الـــذي ساستقبل الضيوف من الان فصاعدا .

ولم يكد يوم الاحد يطل حتى شرع الزوار يتوافدون علينا . وكانت من بينهم أخت جدتي ، ماتريونا ايفانوفنا ، وهي غسالة عريضة الانـــف ، كثيرة الجلبة ، ذات شعر ذهبي ، تلبس رداء مـــن الحرير مخططـــا ... وكـــان يصحبها ولداها : فاسيلي ، وهـــو رسام شاب ، لطيـــف المعشر ، طيـــب القلب ، طويل الشعر ، يلبس رداء رماديا ، وفيكتـــور ، وهو فتى ذو رأس كرأس الحصان ، ووجهه صغير تغطيه بقع كبيرة من النمش ، لم يكد يبلغ الممشى ــ حيث شرع ينزع عنه معطفه ــ حتى وصل الى اذني صفـــيره وترنمه بهذه الكلمـــات :

ـــ اندريه ـــ بابا ... اندريه ـــ ...

فادهشني منه ذلــك وارعبني في الوقــت ذاته دون ان ادري سببــا ...

وجاء الخال ياكوف ايضا يحمل قيثارتــه ، يصحبه ساعاتــي الراس ، أعور ، يرتدي معطفا طويلا اسود اللون يجعلــه على هيئة الرهبان . وكان يقبع في احدى الزوايا يبتسم ، وقد أمال رأسه واستند الحليقة المتشققة الى أصبع واحده ، يــتـطلــع بعينيــه الوحيــ كل شـيء حوله بحدة خاصـة ، قليل الكلام ، يردد على الدوام هذه الجما

ـــ أرجوك ، لا تتعب نفسك ، فكل شيء سيان ...

عندما تطلعت فيه ، للمرة الاولى ، تذكــرت بغتة ذلــك الزمن (وكنا ما نزال نعيش في شارع نوفايا) عندما سمعت الطبــول تقرع بالشر والويل في الطريق العام ، ورايت عربة سوداء عالية ، يحيط بها والناس ، تتحرك منحدرة من السجن حتى الساحة العامــة ، وقــد فيها ، على دكة صغيرة ، رجل يغطي رأسه بقبعة مستديرة ويــداه ، بسلسلة من الحديد تصعد اصواتا غريبة كلما مشى... وكانت لوحة سودا. من عنقه ، وقد كتب عليها شيء ما بأحرف بيضاء كبيرة ، انحنى رأس عليها فكأنه يقرا المكتوب فيهــا ...

ـــ هوذا ولــدي !

قالت امي ذلك ، وهي تقدمني الى الساعاتي ، ولكني نفرت الى مذعورا ، وقد شبكت يدي خلف ظهري .. فقال هذا ، وقــد انسحـ حتى اذنه اليمنى بطريقة مرعبة :

ـــ أرجوك ، لا تتعبي نفسك ...

وامسك بي من حزامي ، وجرني اليه ، وادارني امامه بحركة سر ماهرة ، ثم قال ، وقد افلتنــي :

ـــ انه في صحة جيدة ، انه قوي !

واتخذت مجلسي على مقعد من الجلد يتسع للرقاد فيه ـــ وكان

يفتخر دوما بأن ذلك المقعد قد خص الامير روزينسكي فيما مضى من الايام ـ ورحت اراقب من تلك الزاوية كيف يجرب الكبار عبثا ان يمرحوا ، وكيف تتبدل تعابير وجه الساعاتي دون انقطاع ، الامر الذي اثار استغرابي وارتيابي ... كان يبدو ان وجهه النحيل ، المكسو بالشحم ، يلين كالشمع الاصفر ويذوب ، فاذا ابتسم الرجل انحرفت شفتاه الغليظتان الى اليمين ، وانتقل انفه الصغير مثل قطعة صغيرة من اللحم المقدد في قاع صحن وسخ . وكانت اذناه الكبيرتان المنفرجتان تتحركان بدورهما بشكل مثير للضحك ، فترتفعان تارة مع حاجب العين السليمة ، وترتميان تارة على الخديين المتعظمين فيخال لي انه يستطيع لو اراد أن يغطي بهما انفه .

وفي بعض الاحايين كان يخرج من فيه ، بعد ان يصعد زفرة عميقة ، لسانا أسود ، صغيرا ، مدورا كالقرص ، فيرسم به عدة دوائر وهو يرطب شفتيه الغليظتين المبللتين .. وجدت ذاك مدهشا اكثر منه مضحكا، فلم استطع ان ارفع عيني عنه أبدا .

تناول الضيوف الشاي ممزوجا بالروم الذي كانت تفوح منه رائحة البصل المحروق ، واحتسوا ، فيما احتسوا ، الاشربة التي تهيؤها جدتي والتي كانت ذهبية اللون ، او خضراء ، او سوداء معتمة كالحة كالزفت ... واكلوا من معجناتها المشوية المغطاة بالقشطة ، كذلك بعض الكعك الممزوج بالعسل حتى انتفخوا ، وتصببوا عرقا ، وراحوا يزفرون بشدة وهم يشكرون جدتي على كرمها . وبعدما شبعوا ، جلسوا بتراخ في مقاعدهم ، وقد توردت وجوههم وزهت الوانها ، وراحوا يسالون الخال ياكوف في تكاسل ان يعزف شيئا على قيثارته ، فانحنى هذا عليها ، وشد من أوتارها ، ثم شرع يغني بصوت يشبه عويل الثكلى :

« لقد لهونا هنا — لنملأ الارض غناء ..
وجاءت من « كازان » — يا لها من حسناء
جاءت تفتش عن — صاحب لهو وهناء ! »

وجدتها اغنية حزينة جدا ، وكذلك وجدتها جدتي من دون ريب ، اذ قالت :

ـ غن شيئا اخر ، يا ياكوف ـ أغنية حقيقية لطيفة . أتذكرين تلك الاغاني التي كان الناس يغنونها في الماضي ، يا موتريا ؟

فاجابت العسالة في لهجة طروب ، وهي تمسك طرف ثوبها :

ــ ان اسلوبا جديدا طرأ على الاغاني في هذه الايام ، يا عزيزتي .

فحدج خالي جدتي بعينين نصف مغلقتين وكانها بعيدة عنـــه جدا ، ثم تابع الانشاد بنغمته الحزينه وكلماته البشعة ...

كان جدي منهمكا في مناقشة سرية مع الساعاتي ، وهو يبرهن شيئا ما على أصابعه . وكان الساعاتي يرفع حاجبه ، ويرنو ناحيـــة والدتي ، ويهز راسه ، بينما تأخذ قسمات وجهه المائع بالارتجاف في خبث كثير .. أما أمي فكانت جالسة بين الاخوين سيرجييف كالعادة ، تتحدث بهدوء وتؤدة ووقار الى فاسيلي الذي كان ينتهد ، ويقول :

ــ هه ! يجب ان افكر في ذلــك !

فيبتسم فيكتور ابتسامة ماكرة ، ويسحب قدميه على ارض الغرفة ، ثم يروح ينشد فجأة في صوت حاد رفيع :

ــ اندريه ــ بابا ... اندريه ــ ...

فيتوقف الجميع عن الحديث ... ويرمون بأبصارهم اليه ..

قالت والدته بانفـــة :

ــ لقد اخذ ذلك عن المسرح . انهم يغنـــون هكذا هناك .

قضينا امسيتين او ثلاثا فقط من هذه الامسيات ... لشد ما ارهقني فيها ــ وانا اذكر جيدا ــ ملل لا يطاق . ثم جاءنا ذلك الساعاتي ، ذات يوم احد ، عند الظهيرة ، بعد خدمة القداس الاخيرة مباشرة . وكنت جالسا في غرفة والدتي اساعدها في استخراج اللالىءمن ثوب مطرز عتيق ، حين فتح الباب بغتة على مصراعيه ، وظهر وجه جدتي المذعور لحظـــة قصيرة كانت كافية لان تتمتم فيهـــا :

ــ فارفارا ، لقد جــاء !

فلم تجفل والدتي ، ولم يتقلص في جسدها طرف واحـــد ... ثم فتح

الباب ثانية ، بعد اقل من دقيقة واحدة ، وظهر وجه جدي على العتبة وهو يقول في وقار عظيـــم :

ــ ارتدي ثيابك وتعالي ، يا مارفارا !

فسألته والدتي ، دون ان تقف أو تدير نظرها اليه :

ــ ولكن الى أيـــن ؟

ــ تعالي يباركك الله ، وكفاك نقاشــا . انه رجـــل مستقيم ، ينفـــن عملـــه ، وسيكون أبا طيبا لالكسي ..

كان جدي يتحدث باهتمام غير معهود ، وهو يضرب وركيه بيديه دون انقطاع ... بينما طفق مرفقاه يرتعشان وكان يديه ترغبـــان في الامتداد الى الامام ، وهو يجاهد ليمنعهما من ذلك ... قالت امي بهدوء :

ــ لقد سبق وقلت لك ان ما تخططِ له لن يكون .

فاسرع جدي اليها ، وقد مد ذراعيه الى الامام منـــه كرجـــل ضرير . وصاح بصوت جاف ، وهو يرتعش من أم رأسه حتى أخمص قدميه :

ــ تعالي ، والا جررتك جرا ــ من شعرك !

ــ ستجرنـــي ؟

سألت والدتي وهي تنهض ، مربدة الوجه ، وقد ضاقت فتحة عينيهـــا وشع فيهما تهديد مرعب ... واسرعت تنضو عنها معطفها ، ثم تنورتها .

قالت حين اضحت عارية وليس ما يستر جسدها سوى قميصها :

ــ حسنا ، جرنـــي !

فكشر عن أسنانه ، وهز قبضتيه ، وصاح :

ــ ارتدي ثيابك ، يا فارفارا !

فدفعته والدتي ، ومضت الى الباب ، وزعقت :

ــ حسنا ، هيا بنـــا !...

همس من أطراف شفتيــه :

ـــ سألعنــك !

ـــ لا اخافك ولا اخاف لعنتك

وفتحت الباب ، ولكن جدي امسك بها من طرف قميصهــا وسقط على ركبتيه . . . وانخرط باكيا ، وهو يقول بصوت لا يكاد يسمع :

ـــ ستهلكين ، يا فارفارا ! أيتها الشيطانة الماكرة ! لا تجلبي العــار علينــا . .

وأرسل انينا مفجعا ، فكأن الما مرهقا يعتصر فؤاده :

ـــ اماه ! تعالي وانظري !

كانت جدتي ، في ذلك الحين ، قد سدت الطريــق على أمي وراحــت تدفعها الى الغرفة بحركات من ذراعيها كما تفعل لفراخ الدجاج الصغيرة ، وهي تهمس من بين أسنانهــا :

ـــ ايتها الحمقاء فاريا ! ارجعي ، يا قليلة الحياء !

عندما أصبحت امي في وسط الغرفة ، اسرعــت جدتي تغلق البــاب بالمزلاج ، ثم استدارت نحو جدي ورفعته عن الارض بيدها الواحدة ، بينما هزت اليد الاخرى في وجهه متوعدة :

ـــ اف منك ، انت ، ايها الابليس العجوز ، ايها المخلوق الغبي ؟

واجلسته على الاريكة كلفتة من الخر ق ، منحني الرأس ، فاغر الفم ، وهي تهتف بوالدتــي :

ـــ البسي ثيابك ، انــت !

فقالت والدتي ، وهي تلتقط ثيابها عن الارض :

ـــ اني لن اذهب اليه ، هل تسمعان ؟

ودفعتنى جدتي عن الدكــة :

ـــ اسرع وهات وعاء من الماء . . . هيا ، انطلق !

كانت تتحدث همسا . لكن بهدوء وبلهجة الامر .. اسرعت عبر الممر لانفذ طلبها ، ومن هناك استطعت ان اسمع خطوات تسير جيئة ورواحا ببطء وخطوات ثقيلة في الغرفة المواجهة ، بينما بلغني صوت امي تصيح في غرفتها :

— سارحل غدا !

مضيت الى المطبخ ، وجلست الى النافذة كالمشدوه . كان جدي يئن ويتأوه ، وجدتي تغمغم بشيء ما في سرها ، واصطفق احد الابواب في عنف . ثم خيم السكون والرهبة على كل شيء من جديد ... وفجأة ، تذكرت الغاية التي جئت من اجلها ، فملأت طاسة بالماء وخرجت الى الممر حيث التقيت بالساعاتي يسير متدلي الراس وهو يدعك قبعته المصنوعة من الفرو ، ويطلق اصواتا جافة فارغة ... وكانت جدتي تتبعه ، وقد صلبت ذراعيها على صدرها ، وهي تنحني له دون ان يراها ، وتقول في صوت خفيض :

— انت تعرف ذلك جيدا — فالحب ليس بالامر الذي يجبر الانسان عليه جبرا !...

وتعثر الساعاتي على عتبة الباب ، ثم دلف منه الى الساحة ، بينما رسمت جدتي اشارة الصليب ، ووقفت هنالك لحظات يسيرة ترتجف فيها كل ذرة ... ترى ، هل كانت رجفتها ناشئة عن الضحك أم البكاء ؟.. لست ادري ! لاني لم استطع ، في ذلك الحين ، ان اسبر غور نفسها ...

ركضت اليها اسالها :

— ما بالك ؟

فاختطفت الطاسة من بين يدي بعنف حتى اراقت بعض الماء على جوربي ، وقالت :

— من اين رحت تستقي هذا الماء ؟ اقفل الباب !

واستدارت راجعة الى غرفة والدتي ، بينما دلفت انا الى المطبخ ورحت استمع ، من هناك ، الى تأوهاتهما وتنهداتهما المستمرة فكأنهما تدفعان من مكان الى اخر ، حملا ثقيلا يفوق قواهما ...

كان النهار بديعا رائعا ، واشعة شمس الشتاء المائلة تخترق زجاج

النافذتين المتجلد . وكانت المائدة مهيأة للغـداء ، تلتمـع علبها الصحـون النحاسية ، وزجاجتان تحتوي احداهما شراب الكفاس الذهبـي ، والثانية فودكا جدي المخضرة من كثرة الجعة غير المختمرة فيها ، ومن زهـر الربيع المضاف اليها لتعطير رائحتها . وكانت كوة صغيرة تبعث وميضا من الثلج يبهر النظر من خلال مساحات ضيقـة من الجليـد الذائـب على زجاج احـدى النافذتين ... كان ذلك الوميض يتلألأ على الاسطحة ، ويتألق على القبعات الفضية البرّاقة التي تكلل عواميد السيـاج واعشاش العصافير . وكانـت طيوري الاسيرة تمرح في اقفاصها الفياضة بأشعة الشمس ، والمعلقة علـى اطـراف النافـذة : فالبلبـل الاليف يزقـزق جذلان مرحـا ، يصفـر ، بينما شرع الحسون يردد اغنية من اغانيه الجميلة .. لكن هـذه الموسيقى الحلوة ، وذلك التالق الذي يبعثه النهار الفضي ، لم يحمـلا الي شيئا مـن الغبطة على الاطلاق . كان الغم يملأ نفسي فأرغب عن التمتع بجمـال ذلك النهار الرائع وعن كل شيء اخر في الوجود ... واردت ان اطلـق سراح الطيور للتمتع بالحرية والسلام ، ولم اكد اتناول الاقفاص حتى ظهرت جدتي في المطبخ تزمجر ، وتلطم خديها ، وتصيح وهي تركض الى الموقد :

ــ لعنكم الله جميعا ، واخذتكم العفاريت ! آه ، يا لـك من عجـوز حمقاء ، يا اكولينـا !

وأخرجت من الفرن فطيرة كبيرة ، وضربـت بأصابعها على قشرتهـا المحترقة ، ثم بصقت على الارض :

ــ لقد احترقت حتى صارت رمادا ! وانا التي اردت ان اسخنها فقط ! تفو ، يا أينها الشياطين ، هلا تحطمتم جميعا وذهبتم هباء ! وانت أيها البوم، لماذا تقعد محملقا بعينين كبيرتين ؟ اود لو اهشمكم قطعا كآنيـة الفخار ..

وشرعت تبكي وهي تقلب الفطيرة من جهة الى جهـة ، وتلمس القشر الجاف ، وتسقيه بدموعها الغزيرة ...

ودخل جدي وامي الى المطبخ ، فرمت جدتي ذلك التلف على الطاولة

بشدة فتراقصت الصحون وصدر عنها ضجيج صاخب ..

ـ انظرا ما حدث ، وكل ذلك بسببكما ، حملكما الشيطان !

فارتمت والدتي عليها ، وقد استردت هدوءها ومرحها ، تعانقها وتواسيها وترجوها ان تنسى كل ما حدث ... بينما راح جدي يرنو حواليه، تعبا ، متغضن الوجه ، وهو يأخذ مجلسه الى المائدة ، ويعقد حول عنقه ، وينظر شزرا بعينيه المنتفختين ، ويغمغم :

ـ حسنا ، فلننس ذلك ! لقد اكلنا فطائر لذيذة من قبل . ان الله بخيل بعض الشيء ، يأخذ منك مقابل دقائق من السعادة سنوات من الشقاء، وهو لا يؤمن بالفائدة .. اجلسي ، يا فاريا... وانسي ما حدث !

كان يبدو وكأن مسا من الجنون أصابه ... ظل يتحدث ، طوال الغداء ، عن الله ، وعن « آهاب » الملحد ، وعن البلايا والشدائد التي تقع على عاتق رب البيت ، فقاطعته جدتي بشدة تقول :

ـ هيا تناول غداءك ، ولا تتحدث كثيرا !

وضحكت أمي ، وبرقت عيناها الصافيتان ...

سألتنى ، وهى تربت على كتفى :

ـ حسنا ، هل جزعت كثيرا مما حدث ؟

كلا ! لم اخف كثيرا ! ولكنني اشعر الان بالقلق والضيق ، ولا استطيع أن افهم ماذا حدث ...

ظلوا يأكلون طويلا وكثيرا ، كما هى العادة أيام الاحاد والاعياد ، حتى ابتدأ الملل ينال منى .. وصعب على أن اصدق ان هؤلاء هم انفسهم الذين كانوا ، لنصف ساعة مضت ، يصيحون في وجوه بعضهم ، يهيجون نقمة ، ويغلون غضبا ، وهم على اهبة القتال في كل لحظة .. وكذلك لم استطع ان أصدق انهم كانوا جادين فيما ذهبوا اليه ، وان ذلك كلفهم بعض العناء .. لقد اعتدت صراخهم ، وبكاءهم ، وذلك النزاع الذي لا يفتأ يتكرر ، كي يعود فيخمد بسرعة غريبة ، حتى لم اعد القي الاهتمام كما كنت افعل من قبل .

ولكني أدركت ، بعد زمن طويل ، ان الروسيين المجبريـــن على حيا
فقيرة فارغة كانوا يفتشون عن تسلية لهم حتى في الحزن نفسه ، فيلعبون بـ
كالاطفال ، ولا يحسون الخجل من مصائبهم الا في القليل النادر ...

وعندما تكون الحياة رتيبة ، يمسي الحزن نفسه عيدا وحدثـــا مرحـ
بهما - وحتى الحريق يصير تسلية لذيذة ... وكذلك الجرح البسيط ، في وجـ
خال من كل معنى ، يمسي زينة جميلة رائعة ..

• • •



١١

اضحت والدتي ، بعد ذلك الحادث ، قوية ، منتصبــة ، وراسا للبيت كله ، بينما استسلم الجد الى الصمــت ، والتواضع ، فكأنه لم يعــد هو هو ، وفقد شيئا مهما من نفسه . . .

ولم يعد يبرح البيت ابدا ، بل يجلس في الطابق العلــوي يقرا في كتاب غريب مبهم يدعى « مذكرات والدي » . . كان يحفظ ذلك الكتاب في صندوقه الضخم تحت « القفل والمفتاح » ، وكثيرا ما لاحظت انه يغسل يديه قبل ان يأخذه من مكانه . . كان الكتاب صغير الحجم ، جلدي الغلاف اصفره ، قــد كتب على صفحته الاولى الزرقاء هذه العبارة بحبر باهت اللون : « الى النبيل فاسيلي كاشرين ، مع اخلص التحيات واجزل الشكر . . . » . وكانت هذه الكلمات مذيلة باسم غريب ينتهي بصورة منمقة حلوة تمثل عصفورا يطير . . . وكان جدي يفتح الغلاف الجلدي الثقيــل بعناية فائقــة ، ويضع نظارتيــه الفضيتين ويرنو طويلا الى تلك العبارة وهو يتلمس انفه ليصلـــح من وضع نظارته . ولقد سألته ، اكثر من مرة ، عن ماهية ذلك الكتاب ، فكان يجيب بصورة مثيرة وقد قطب ما بين حاجبيه :

ـــ ليس لك من حاجة الى معرفته الآن . تريث قليلا ـــ وعندما اموت ، سأتركه لك مع معطفي السنوري ايضا .

اصبح يقتصد من كلامه مع والدتي ، واذا خاطبها فبصوت حلو لطيف، اما أن تحدثت هي ، فهو يصغي اليها بانتباه ، ويتمتم بصوت غــير مفهوم ، ويومىء بيده ، ويطرف بعينه كما كان يفعل الخال بيوتر تماما . . .

كانت الصناديق تعج بكثير من الثياب الغريبة الملونة ، قمصان حريرية

مزركشة ، وصدار من الساتان والفرو ، وأثواب من البروكار طويلة لا اكمام لها ، مطرزة بالفضة ، وقبعات مزينة باللؤلؤ ، ومناديل ، واربطة عنق براقة الالوان ، وعقود من احجار مختلفة الالوان .وكان يحمل ذلك كله الى غرفة والدتي ، ويرمي به على الطاولة والمقاعد ويقول ، عندما يرى الى والدتي تعجب بالحلى وتدهش :

ـ في ايام صباي كانت الثياب اثمن منها اليوم واجمل ! كانت الثياب اثمن ، اما الناس فكانوا يعيشون ببساطة ومحبة وود اكثر منهم في هذه الايام . ولكنى اعتقد ان ذلك الزمن لن يرجع ثانية ، فجربي هذه الاشياء واختاري ما يعجبك منها ...

وذات يوم ، نزلت امي عند رغبته ، ومضت الى الغرفة المجاور وارتدت ثوبا طويلا يضرب الى السواد ، مزخرفا بخيوط من الذهب ووضعت على راسها قبعة جميلة مزركشة ... قالت ، وهي تنحني لجدي

ـ ابروقك هذا ، يا صاحب السعادة ؟

فلهث جدي ، واشرق وجهه ، وراح يدور حولها وهو يحرك ذراعيه كمن يمشي سكرانا ويهمهم :

ـ آه ، فارفارا ! آه لو كنت ثرية فقط ، وكان هنلك اناس وجهاء فيم حولنا !

وقد شغلت والدتي غرفتين اماميتين في المنزل ، حيث كانت تستقبل كثيرا من الضيوف . وكان الاخوان مكسيموف اكثر الزوار ترددا علينا . كان احدهما يدعى بيوتر ، وهو ضابط طويل القامة ، جميل الطلعة ، ذو لحية عريضة شقراء ، وعينين زرقاوين ، جلدني جدي في حضوره يوم بصقت على راس ذلك الشريف الاصلع ، وكان الاخر يدعى يفجيني ، شاب مديد الجسم ايضا ، ولكنه شاحب الوجه ، ذو ساقين طويلتين ، ولحية سوداء مدببة وعينين كبيرتين تشبهان الخوخ البري ، يرتدي دوما بزة خضراء ذهبية الازرار ويضع شارات مذهبة على كتفيه الضيقتين . وكان من عادته ان يدلل بشعره الطويل المتموج من فوق جبهته العالية الى الخلف ، وهو يبتسم بتواضع ظاهر ، ثم يروح يروي في صوت ابح حديثا ما يفتتحه ابدا بهذه العبارة التي لا تتغير :

ــ انت ترين ، يخيل الي ان ...

فتهمه والدتي كل سمعها ، وعيناها نصف مغلقتين ، وتقاطعه في اغلب الاحيان ضاحكــة :

ــ انت ما تزال طفلا ، يا يفجيني فاسيليفيتش ! واني ارجــو ان تغفر لي قولي هذا ...

فيوافق الضابط الكبير ، وهو يضرب براحة يده على ركبتــه زيادة في التأكيــد :

ــ نعم ! طفل ! انه لكذلك تماما !

مرت عطلة عيد الميلاد في جو صاخب ، فكان الضيوف يجتمعون عندنا كل مساء وقد ارتدوا ثيابا زاهية جميلة ، كانت ثياب امــي دائما ازهاهــا وابهاها ، ثم يخرجون جميعا من الدار ليقوموا ببعض الزيارات ...

كان البيت ، في كــل مرة يخرج فيها ذلــك الجمع المرح مــن الباب . يبدو وكأنه يغوص في الارض ، ويغرق في لجــة من الكآبة والسآمة ، ويسبح في صمت خانق ثقيل ... وعندئذ كانت جدتي تجوس خــلال الغرف كــأوزة هرمة ترتب كل شيء ، وتعيد النظام الى نصابه ، بينما يقف جدي وظهره الى قرميد الموقد يتدفأ ، وهو يهمهم بينه وبين نفسه :

ــ حسنا ، حسنا ، سترى الى اين ستقودها هذه الطريــق التي تسير عليها الان بدون وعي ..

ولم تكد فترة عيد الميلاد تنقضي حتى اخذتنــي امي مع ساشا ، ابــن الخال ميخائيل ، الى المدرسة ... وكان هذا الاخير قد تزوج للمرة الثانية ، فلم يكد يمضي على زواجه بضعة ايــام حتى اخــذ ساشا ينال مر العــذاب والضرب من خالته التي ابغضته بسرعة عجيبة ، فاقترح جدي ــ نزولا عند الحاح جدتي ــ ان يتكفل به . وواظبنا على المدرسة مدة شهر واحد فقط . ولست اذكر ، من كل ماتعلمته طوال تلك المدة ، الا شيئا واحدا ، وهــو انه لا يكفي عندما اسال عن اسمي ان اجيب : « بشكوف » ... بل يجب ان اقول : « اسمي بشكوف » ... وكذلك فانني لا اتمكن من ان اخاطب المعلم

هكـذا : « لا تصرخ في وجهي على هذا الشكل . يا استـاذ ، فلست اخاف منـك !. . . » .

وسرعان ما حقدت على المدرسة . . . بينما هام بها ابن خالي شغفا ، وصاحب عددا من الطلاب لا بأس به . . ولكنه غفا ، ذات يوم ، اثناء الدرس وانطلق يصيح في نومه : « كلا ! لا أر . . . يد ! » . . وعندما استيقظ ، استأذن في مغادرة الصف ، ولكن الطلاب سخروا منه بقسوة . . وفي صباح اليوم التالي توقف عن المسير ونحن في طريقنا الى المدرسة ، بعد ان تجاوزنا خندق ساحة سينايا ، وقال لي كمن يفشي سرا :

ــ ستتابع الطريق من دوني ، فانا لن اذهب الى المدرسة هذا النهار . انى افضل الانطلاق في نزهة . . .

وجلس القرفصاء ، ودفن كتبه في الثلـج ، ومضى . . . كنا في كانون الثاني والنهار مشرق ، والارض تلمع بما اسبغت عليها اشعة الشمس من نور وضياء . . وداخلني احساس بالغيرة من ابن خالي ولكني صررت علـى اسناني وتابعت الطريق في اتجاه المدرسة محبة بأمي . . . وطبيعي ان كتب ساشا المدفونة في الثلج سرقت ، فاصبحت له بذلك ذريعة حقيقيـة للامتناع عن الذهاب الى المدرسة في اليوم التالي . . . وفي اليوم الثالـث ، اكتشف جدي تصرفات ساشا وسلوكه الغريب .

وقدم كلانا للمحاكمة : جلس جدي وجدتي وامـي وراء الطاولة فـي المطبخ ، يقومون بالتحقيق . واني لاذكر ، حتى الان ، اجوبة ساشا السخيفة على اسئلة جدي .

ــ لماذا لم تذهب الى المدرسة ؟

ــ لقد نسيت موقعها .

ــ نسيـت ؟

ــ نعم ، وقد فتشت عنها طويلا . . .

ــ كان يجب ان تتبع الكسي ، فهو يعرف الطريق .

ــ لقد اضعت الكسي

ـ اضعت الكيس ؟

ـ نعـــم .

ـ وكيف يمكن ذلـــك ؟

فكر ساشا لحظة ، ثم قال متنهـــدا :

ـ كانت هناك عاصفة ثلجية فلم استطع رؤية اي شيء على الاطلاق .

فضحك الجميع ... لان الطقس كان رائعا صافيا مشمسا ذلك النهار..

ولم يستطع ساشا نفسه ان يمتنع عن الابتسام قليلا ، ولكن جدي كشر عن اسنانه ، وقال في خبث كمن يوقع بعدو :

ـ الم تستطع ان تمسك بيده او بحزامه ؟

ـ لقد فعلت ، ولكن الريح عصفت بي وابعدتني عنه ...

كان يتحدث ببطء بلهجة من فقد الامل كله ، فاثقلت علي تلك الاقوال الخرقاء وذلك الكذب الذي لا فائدة ترجى منه ، ولم استطع ان افهم لعناده معنى او سببـــا ...

نلنا نصيبنا من الجلد ، ثم استاجروا لنا احد عمال المطافـــيء ، وهو شيخ متقاعد ذو ساعدين ملتويتين ، ليصحبنا الى المدرسة ، كانت مهمته ان يحتاط كيلا يضل ساشا الطريق الى المدرسة او يحيد عنه . ولكن عبثا فلم نكد نحاذي الخندق في اليوم التالي حتى خلع ابن خالي احد حذائيه ورمى به عن يساره ، ثم خلع الحذاء الثاني ورمى به عن يمينه ، وشرع يدب في الساحة بجوربيه ... واسرع الشيخ يسعى وراء الحذائين وهو يزمجر .. وعندما التقطهما ، عاد بي الى الدار مرتجف الاوصال ، بادي الرعب ...

ظلت امي وجدتي ، طوال ذلك اليوم ، تفتشان في البلدة عـــن الهارب حتى وجدتاه ، عند المساء ، في حانة شيركـــوف بالقـــرب من الدير يسلـــي الجمهور برقصاته ... عادتا به الى البيت ، ولكنهما لم تنزلا به عقابا لشدة الاضطراب والقلق اللذين اثارهما فيهما صمته العنيد . واستلقى بجانبي في السقفية ، يضرب الفضاء بقدمه ، ويقول بهدوء وانسجام :

ـــ ان امراة ابي لا تحبني ، وجدي لا يخبني ، فلم ابقى بينهم ؟ ساعرف من جدتي ابن يعيش اللصوص ، واهرب اليهم ... وعندئــذ ستعلمون كل شيء .. فلنفر معا ، ما رايــك ؟

كان الهرب مستحيلا بالنسبة الي ، فقد كنت اهدف ، في ذلك الحين ، الى غاية اخرى في الحياة ، وهي ان اصير ضابطا ذا لحية كبيرة شقراء ، الامر الذي يضطرني الى متابعة التحصيــل ، والمواظبــة على المدرسة . وعندما اوضحت لابن خالي مشروعي ، غرق في التفكير برهة ، ثم اجاب وقد استصوب رايي قائــلا :

ـــ هذا حسن ايضا ! فعندما تصبح ضابطا اكون انا زعيما للصوص ، فيجب عليك اذن ان تقبض علي ... وسيقتل احدنا الاخر ، او يأخذه اسيرا . وانا لن اقتلك مهما كلف الامر ...

ـــ ولا انا ايضا .

وقد تم قرارنــا على ذلك ...

دخلت جدتي ، وتربعت على الموقد ، وطفقت تحدثنا :

ـــ حسنا ، ايها الفاران الصغيران ! آه ، يا يتيمي الصغيرين ، يا فرخي اللطيفــين !

وراحت تكيل الانهام ، في عطفها العميق علينا ، لامــراة اب ساشا ، والعمة ناديجدا السمينة ، ابنة صاحب الخان .. وادى بها ذلــك الى فضح جميع الخالات ، سائر ازواج الامهات دون تفريق ، ومن ثم روت لنا قصة الراهب الحكيم ايون الذي قاد خالته امام كرسي دينونة اللــه ، وهو لم يزل صبيا بعد ، قالت :

ـــ « لقد كان ابوه صياد اسماك في البحيرة البيضــاء ، ومرتما لفساد امرأته الخبيثة الثعلبة التي اغوته بشرب الخمرة حتى سكر ، وسقته المخدر حتى استغرق في النوم ، ثم القت به وهو نائم في قارب من خشب السنديان ، قارب ضيق جدا حتى ليماثل تابوت الميت ، وبعد ذلك تناولت بيديها المجاذيف المصنوعة من خشب الحور ، وجذفت به في عرض البحيرة حيث كانت الامواج تتلاحق هادئة باهتة ، تنتظر فعل تلك المراة العاهرة ... وهنــاك مالت عن القارب ، وهزته بعنف ، وقلبته دون من يشهد على ما تقترفه يداها ، فغرق

زوجها كالحجر عميقا في الماء ، بينما سبحت زوجته سريعـا حتى شاطـىء الغابة ، وهناك ارتمت على الارض تعول وتنوح بمرارة ، وتتظاهر بالحـزن على فقدانه ، هو الذي قتلته بكل تلك الوحشية .

« وسمعها اناس ، واشفقوا عليها ، وبكوا محنتها ونصيب الارملـة الذي حل بديارها ، وقالوا لها : « وااسفاه ! انت صبية بعد حتى تترملي ، وشقاؤك سيكون مريرا مضنيا ، ولكن يد الله تسير حياتنـا جميعا ، وهو الذي يأمر بموتنا او حياتنـا » . . .

« كان ابن زوجها اينوشكا الشخص الوحيد الـذي لم يصدق دمـوع خالته ، فراح يشتمها هامسا بصوت منخفض ، وقد وضع يده على قلبها : «ايه» انت يا امراة الخبث والمكر والدهاء ! يا طائر الليل الطائح احتيالا وخديعة ، لست اؤمن ، انا ، بدموعك هذه التي تسكبينها باسراف ، فالقلـب في صدرك ينبض بفرح عظيم . فلنتجه اذن نحو مقعد الدينونة السماوي ، نحـو الرب الاله ، وقوى السمـاء ، وليأخـذ احدنا سكينا مسنونة يلقي بها ، بقـوة وعزم ، في اتجاه السماء ، فان كنت اثا ملوما فلاذبح بهـا ، وان كنت انت ملومة فلتذبحي بهـا » .

« فاستدارت اليه خالته ببطء ، وتفرست فيه بعينيـن تلمعان حقـدا وكراهية ثم هبت واقفة باعتزاز وشموخ ، وردت عليه في لهجة انتقام وتشف: « يا لك من مجنون ، قد ولدت قبل ان يحين اوانك ! انت يا من قاعك بطـن الانسانية المفترسة ، ما هذا الكلام الذي تقول : والذي يسطره عليك خيالك المريض ؟ ما هذه الاكاذيب التي يثرثر بها لسانك وينشرها ؟! » .

« وسمع الناس الذين تجمهروا هناك كل تلك الاقـوال ، وادركوا أن وراء الأكمة ما وراءها ، فراحـوا ينطلعـون في صمت ، مثقلي القلـوب ، ويأتمرون بصوت خافت حول ذلك الحـادث الغريب ، ثم تقـدم منهم صياد عجوز وانحنى الى كل الجهات احتراما للبشر اصدقائه واقربائـه ، ومن ثم تفوه بهذه الكلمات المثقلة جميعا بالتعظيم والتكبـير : « آتونـي أيها الناس الطيبون بالشفرة الحادة .. وانظروا الي هنا ، أمسك بها بكلتا يدي ، والى السماء اقذف بها ، وسوف تقتل ذلك الذي تصرف شرا ! ... » .

« وحملوا السكين الى الرجل الطاعن ، فلوح بالنصل فوق رأسه الكثيف

الشعر ، فاذا بها تنطلق في القبـــة الزرقاء الصافيـــة كالعصفور الطائـــر ، وتختفي .. وانتظر القوم طويلا عودتها ، انتظروا وشخصوا الى المرتفعات البلورية ، رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وقد تزاحمـــوا بعضهم فـــوق بعض ، ووقفوا هناك في صمت وسكون ... كذلك كان الليل ساكنا هادئا .. وما لبث احمرار الفجر المشرق ان سيطر على البحيرة ، وكذلك احمـــرت الخالة وهي تمد بصرها في الفضاء ما استطاعت ... ولكن السكين ، على حين غرة، انزلقت من العلاء في مثل سرعة السنونو واندفعت في قلبها عميقا .. عندئذ، سقط الناس الاتقياء على ركبهم جاثين يصلون الى الله في تواضع وانسحاق: « فليكن الرب مباركا من اجل عدالته ! » ... ثم اقترب الصياد من ايون ، واقتاده بعيدا الى احد الاديرة ،بعيدا جدا على ضفاف نهر يدعى كيرجنت ، قرب مدينة كيتيج العظيمة .

...

استيقظت في الصباح وقد امتلأ جسدي بقعا حمراء صغيرة ... انـــه الجدري !..

نقلوني الى غرفة خلفية في الطابق العلوي ، حيث بقيـــت زمنا طويلا مستلقيا في سرير قيدوا لي ذراعاي وساقاي بعصابات عريضة ، عاميا عن كل ما يحيط بـــي ، احلامـــا مزعجـــــة ، كاد يقضي علي في نهايـــة احدها . وكانت جدتي الشخص الوحيد الذي يزورني ، تطعمني بالملعقـــة فكاني طفل صغير ، وتقص علي خرافات واساطير لا تنتهي ... وذات مساء — بعد ان تحسنت حالي قليلا وسرت في طريق الابلال ، بحيث فكت اللفائف والرباطات عن ساقي وذراعي ، وان ظلت اكمام سترتيَ مربوطة بحيث تمنعني من حك وجهي بأصابعي — تأخرت جدتي عن زيارتي كما تفعل دوما ، فازعجني ذلك وانذرني بالويل والثبور ... وعلى حين بغتة ، خيل الي انني اراها مستلقية على ارض الغرفة المغبرة ، ووجهها الى التراب ، وقد تباعد ذراعاها ، وذبح عنقها من الوريد الى الوريد مثل عنـــق الخـــال بيوتر تمامـــا بينما دلفـــت من بين الظلال المعتمة قطة كبيرة راحت تزحـــف في اتجاههـــا ، وعيناهـــا الشرهتان الكبيرتان الخضراوان تدوران في محجريهما دون انقطاع .

قفزت من السرير ، وحطمت النافذة المزدوجة بقدومي وكتفي ، والقيت بنفسي على تلة من الثلج تحت النافذة ... كانت والدتـــي تستقبـــل بعض

الزوار ذلك المساء ، بحيث لم يسمع اي انسان صوت الزجاج وهو يتحطم . . .
وبقيت فترة طويلة مضطجعا على الثلج دون ان يدري احد بي - سليم العظام -
وان آلمني كتفي بشدة ، في حين جرحني الزجاج في مواضع عديدة من جسدي ،
كما فقدت القدرة على استعمال ساقي ، وبقيت ثلاثة اشهر مضطجعا في
غرفتي عاجزا عن الحركة ، اصغي الى الفوضى التي شملت حياة الدار ،
والى صوت صفق الابواب غير المنقطع ، ومجيء الناس ورواحهم الدائمين .

كانت عواصف الثلج تهب خارج المنزل عنيفة عاتية ، والريح تثور خلف
باب الطابق العلوي وتصفر ، ثم تخترق المدخنة وهي تولول باكتئاب ، او
تلطم مصاريع النوافذ وهي تزمجر بقسوة . كنت أرهف السمع في النهار الى
نعيب الغربان ، أما في الليالي الساكنة فالى عواء الذئاب المرعب يصلنا من
الحقول البعيدة ، ونفسي تنضج مع تلك الموسيقى المتوحشة وتنمو . . . ومن
ثم هل الربيع ، خجولا هادئا ، يلح بالوصول يوما بعد يوم ، واطل من
النافذة بعينيه المتالقتين الفرحتين ، فبدات القطط تموء على السور وتلعب ،
واصوات هادئة حلوة تخترق الجدران وتبلغني : من قرقعة تطقطق الجليد ،
ودحرجة الثلج عن الاسطحة ، الى رنين اجراس العربات التي كان طنينها
يتخذ تلك الصلابة التي اعوزته في الشتاء . . .

ولم تنقطع جدتي عن زيارتي لحظة واحدة . . . أمست تشرب بكثرة في المدة
الاخيرة ، تشتم من كلماتها رائحة الفودكا اكثر فأكثر . لا بل شرعت تحمل
معها ابريقا كبيرا من الشاي ، أبيض اللون ، تخفيه تحت سريري محذرة
اياي وهي تطرف بعينيها :

— اياك ان تخبر جدك العفريت بهذا ، ايها العصفور الصغير !

— لم تشربين الخمرة ؟

— اصمت ! ستعرف ذلك عندما تكبر . . .

وعندها تأخذ جرعة من فم الابريق ، وتمسح فمها بكم قميصها ، تستدير
نحوي وهي تبتسم بغبطة :

— حسنا ، ايها الصبي اللطيف ، عمن كنت أحدثك بالامس ؟

— عن والدي .

— وأين توقفت عن الحديث ؟

فاذا اخبرتها ، شرع الحديث الموزون يتدفق طوال ساعات عديدة . . .
كانت هي التي بداتني ، دون سؤال مني ، الحديث عن والدي ، ذات
يوم كانت فيه منهوكة القوى ، رزينة ، تعيسة :

ـ لقد رايت اباك في حلم ليلة البارحة ـ كان يرسل من فمه صفير
لطيفا . وهو يخب وسط الحقول ، حاملا في يده عصا من شجر الجوز ، يعدو
وراءه كلب منقط الجسم تدلى لسانه الاحمر حتى بلغ الارض .... ام
مكسيم سافاتيفيتش ما برح يزورني كثيرا في احلامي في هذه الايام الاخيرة
وانا اجهل سبب ذلك ... يبدو ان روحه تهيم متألمة ..

ظلت طوال اسابيع متتالية تحدثني عن والدي فتروي لي عنه قصص
تضاهي ، في اهميتها ، سائر قصصها الاخرى . كان والدي ابنا لاحد الجنو
الذين رقوا الى رتبة ضابط بعد خدمة طويلة ، ولكنه نفي بعد ذلك الى
سيبريا لتعسفه في معاملة مرؤوسيه . وهناك ، في بعض اصقاع سيبر
المجهولة ، ولد والدي ، فعاش حياة شاقة عسيرة ... وطفق ، وهو لما يز
طفلا بعد ، يدبر المحاولة تلو المحاولة كي يدشر من المنزل ... وقد اخذ والد
ذات يوم ، كلبا من كلاب الصيد ، عدا يفتش عنه في الغابات فكانه ارنب
بري هارب ... وقد ضربه ، مرة اخرى ، بعد ما عثر عليه ، ضربا مبرح
حتى انقذه الجيران منه وخبأوه في دارهم ... سألت :

ـ ايضربون الصغار دوما ؟

فاجابت بهدوء :

ـ اجل ، دوما !

توفيت والدة ابي وهو طفل صغير بعد ، ولم يكد يتجاوز التاسعة حت
لحق بها ابوه ايضا ، فتبناه عرابه الذي كان نجارا ، وضمه الى معمله في
مدينة « برم » وطفق يعلمه مهنة النجارة . ولكن والدي سرعان ما و
الادبار هاربا .. اخذ ، في اول امره ، يقود العميان في الاسواق ، حتى
اخيرا الى نيجني نوفجورود ، عندما جاوز السادسة عشرة من العمر ، و
يشتغل نجارا عند متعهد للمراكب يدعى كولشين . ولما بلغ العشرين ص
مشهورا في صنع الغرف الخشبية وتنجيد المفروشات ... وكان الدكا
الذي يعمل فيه يجاور منزل جدي في شارع كوفاليكا ...

ضحكت جدتي ، وقالـــت :

جسم نحيف ، وساقان رشيقتان .. وهكـــذا فقد كنا ، ماريـــا وانا ، نلتقط توت العليق في الحديقة .. وفجاة تطلعت الى السور ، يا لطيف ! هذا والدك يقفز من فوقه فيكاد ان يفقدني صوابي . وجاء يعـــدو في اتجاهنا بين شجر التفاح ، ماردا فتيا يرتدي قميصا ابيض اللـــون ، وسروالا مخططـــا ، عاري القدمين والرأس ، يحزم شعره الطويل الى الخلف بقطعة من الجلد . وماذا تظنه جاء يفعل ؟ لقد جاء يطلب يد امك ! وكنت قد شاهدته عدة مرات من قبل يتجول تحت النافذة ، فأشرع افكر في نفسي كل مـــرة اراه فيها : « ما اروعه هذا الفتى ؟ » . وهكذا قد اتجهت اليه ، عندمـــا اتاني ، وقلـــت : « لم اخطأت الصراط المستقيم ، يا قلبي ؟ » فيقول ، وقد ركع على ركبتيه : « اكولينا ايفانوفنا ، هاانذا ، وها هي ذي روحي بكليتها ترتمي عند قدميك . وها هي ذي ماريا ، فساعدينا على الزواج ، حبا بيسوع ! » . حقا ، ان هذا ليس بالامر البسيط ! بهت ، ولم اعد استطيع للكلام سبيلا .

« تطلعت ، فرأيت امك الخبيثة مختفية وراء شجـــرة تفاح ، محمـــرة الوجه كالتوتة ، وهي تشير له بيديها ، وعيناها طافحتان بالدمـــوع . قلت : الوجه كثمرة التوت، وهي تشير له بيديها، وما هذا الذي اخترعتماه ؟ هل فقدت شعورك ، يا مارفارا ؟ وانت ، انت ايها الشاب ، هـــلا فكرت فيما تفعـــل ؟ افلست تتطلع الى اكثر مما تستطيع ان تبلغ ؟ » . كان جدك عظيم الثراء في تلك الايام — ولم يكن قد قسم شيئا من التركة بين اولاده بعد — يملك اربعة منازل ، وما لا يحصى من المال ، واتباعه يحترمونه كل الاحتـــرام بالاضافـــة الى ذلك . وقد منحوه ،منذعهد قريـــب ، بدلة وقبعـــة مزخرفتـــين بالقصب احتفالا بالعام التاسع لتراسه المعمل . آه ، ولكنـــه كـــان متعجرفا عظيـــم الكبرياء في تلك الفترة ! وهكذا ، فقد قلت ما يجب ان اقول ، واوصالي ترتعش طوال الوقت خوفا وفرقا ، وقلبي يتمزق حسرة عليهما ، اذ كان اليأس باديا على محياهما ، يكاد ان يقتلهما . وعندئذ نهض والدك ، وقال : « انا اعرف من ان فاسيلي فاسيليفيتش لن يعطيني ماريا بمحض ارادته، ولذلك فلا بد لي من ان اخطفها اذن . وههنا نحن في امس الحاجـــة الى مساعدتك » ... مساعدتي ، تصور ذلك ! طردته ، ورفعت يدي اهم بضربه ، ولكنه لم يتحرك قيد انملة . قال : « تستطيعين رجمي بالحجارة اذا شئت ، ولكن يجب ان تساعديني ! اني لن ارجع عن رايي ! » . وهنا تقدمـــت مارفارا نحـــوه ،

وربتت بيدها على كتفه ، وقالت : « لقد أصبحنا زوجين منذ زمن طويل ، منذ شهر ايار ... وكل ما نحتاج اليه هو الاكليل فقط » ... وعندئذ تهالكت على الارض فكأني تلقيت منهما ضربة قاضية ! آه ، يا الهي !...

واهتز جسد جدتي بالضحك ... ثم تنشقت قبصة من السعوط . مسحت الدموع من عينيها ، وتابعت وهي تتنهد :

ــ ما زلت صغيرا بعد لتدرك بين العشرة البسيطة بين رجل وامراة ، وبين الزواج . انما فاعلم فقط انه أمر فظيع ان تلد الفتاة بدون زواج . يجب ان تتذكر ذلك عندما تشب فلا تلقى بالفتيات في مثل هذه المتاعب . تلك خطيئة عظيمة تسال عنها ، لانك ستجعل الفتاة تعيسة شقية ، والطفل دون اب شرعي . يجب الا تنسى ذلك ابدا ! يجب ان تشفق على تلك المراة ، وان تحبها بكل جوارح قلبك ، وليس لمجرد المتعة فقط . وهذا درس عظيم اعلمك اياه وعليك الا تنساه .

وغرقت في التامل لحظة قبل ان تتمالك نفسها ، وتتابع قصتها من جديد :

ــ اذن ، ماذا عليك ان تفعل في مثل هذه الحال ؟ ضربت مكسيم على راسه ، وجررت ماريا من جدائلها ، ولكن والدك قال لي عندئذ شيئا على جانب عظيم من الحس السليم : « ان الضرب لا يصلح المسالة ! » . واضافت امك : « يحسن ان تجدي لنا مخرجا من هذا المازق ، ثم تضربيننا » . وهنا قلت له : « الديك شيء من المال ؟ » . فاجاب : « لدي منه القليل ، ولكني ابتعت به خاتما لماريا » . فسالته : « ايساوي ثلاثة روبلات ؟ » . فأجاب : « كلا ، بل مائة من الروبلات تقريبا » ... وقد كانت الاشياء ، في تلك الايام رخيصة جدا ، والمال يكلف كثيرا . نظرت الى والدك ووالدتك وهما يقفان هناك امامي ــ انهما صبيان صغيران لا اكثر ! وأحمقان ايضا ! قالت والدتك : « لقد اخفيت الخاتم تحت احد الواح الارض حتى لا يقع نظرك عليه . نستطيع ان نبيعه » . انهما لطفلان حقا ، اليس كذلك ؟ حسنا ، لقد قررنا ان يتم الزواج خلال اسبوع ، وكان علي ان اتفاهم مع الكاهن على ذلك . لكن أواه ، لكم بكيت آنذاك ، وارتعش قلبي واقشعر خوفا من جدك ، ولكنه كان يحب ماريا ويحنو عليها ... حسنا ، لقد رتبنا اذن كل شيء ..

« غير انه كان هناك عدو لابيك ــ وهو رجل حقود شرير من رؤساء

العمال، ظل مدة طويلة يراقبهما فاستطاع ان يعرف عنهما كل شيء . حسنا، لقد البست ابنتي الوحيدة أجمل ما عندي من ثياب وأبهاهـا ، وخرجت بها من البوابة ... وهناك ، خلف أحد المنعطفات ، كانت ترويكا تنتظر ، فركبتها . وأرسل مكسيم صفيرا خافتا من بين شفتيه.. وها هما يمضيان ... عدت ادراجي الى الدار ، ودموعي تسح على خدي ... واذا ذلك الوغد اللئيم يقترب مني بمكر وخبث ، قائلا : « انني رجل طيب القلب ، ولست اريد تحطيم سعادتهما . انما سأسألك ان تعطيني خمسين روبلا فقط ، يا اكولينا ايفانوفنا ! » كنت لا املك شيئا ، فأنا ابغض المال ولا اوفر منه شيئا قط ، وهكذا فقد اجبته في حمق : « انني لا املك مالا ، ولن اعطيك شيئا ! » . فأجاب : « اذن عدبني بأن تدفعي لي » . فصحت : « اعدك ؟ ومن اين اجيء بالمال ان وعدتك ؟ » . فأجاب : « أيعسر عليك ان تسرقيه من زوج ثري مملؤ به ؟ » . يا لي من بلهاء ! كان علي ان اجره الى نقاش طويل ، واحتال عليه ،ولكنني بدلا من ذلك بصقت في وجهه ، ومضيت في سبيلي ، فتبعني حتى الساحة ، ويا للفضيحة التي اثارها !

واغلقت عيناها ، بينما ارتسمت على شفتها ابتسامة جوفاء :

ـــ انني ، حتى هذا اليوم ، ارتجف فَرَقَاً كلما تذكرت ما تلا ذلك من لؤم وحماقة . لقد راح جدك يزمجر مثل وحش مفترس كاسر ـــ فتلك صفعة شديدة محزنة بالنسبة اليه . كان من عادته ان يشخص الى فارفارا ويتباهى بانه سيزوجها من نبيل ، من سيد عظيم . والبك النبيل ـــ اليك السيد الذي اختارته ! ولكن مريم العذراء تعرف اكثر منا من هم الاشخاص الذين يلائمون بعضهم بعضا ... وراح جدك يعدو عبر الساحة وكان النيران تلتهم جسده ، ينادي ياكوف ، وميخائيل ، والسائس كليم ، ورئيس العمال صاحب الوجه الذي يمج بالنمش، ورأيته يحمل هراوة ضخمة ورباطا من الجلد، في حين تناول ميخائيل بندقيته ... كانت خيولنا قوية طويلة النفس ، اما عربتنا فكانت خفيفة سريعة ، فقلت في نفسي : « سوف يلحقون بهما من دون ريب ! » .

« ولكن ملاك فارفارا الحارس الهمني في الوقت نفسه ، فتناولت سكينا وقطعت بها الحبل عند العريش ، وفي اعتقادي انه سينقطع في الطريق. وهكذا كان ... فقد انهارت مقاومة الحبل ، وكاد يقضي على جدك وميخائيل وكليم . واضطروا الى الوقوف بعض الوقت ، كي يصلحوا الحال ، حتى

اذا بلغوا الكنيسة اخيرا كانت ماريا ومكسيم واقفين امام بابها ، وقد تم زواجهما ... شكرا لله !

« حسنا ، عندئذ رمى رجالنا بانفسهم على مكسيم ، ولكنه كان شجاعا متين البنية ، وقليلون هم الذين يتمتعون بالقوة التي كان يتمتع بها مكسيم . . وهكذا فقد طوح بميخائيل والقى به أرضا مرضوض الذراع ، واتبعه بكليم سريعا ، بحيث ارتجف جدك وياكوف ورئيس العمال ، ولم يجسروا على الاقتراب منه . . . ولم يفقد مكسيم زمام اعصابه ، بالرغم من غضبه الشديد . . وهكذا ، فقد توجه الى جدك قائلا : « ارم هذه الهراوة هناك ! فانا فتى محب للسلام ، وماأخذته صار لي بنعمة من الله ، وليس لاي انسان الحق في ان يسترده مني . وهذا هو كل ماأسالكم اياه ! »

« وعاد رجالنا ادراجهم . . . جلس جدك على العريش ، وصاح : « وداعا ، يا فارفارا ! فانت لست ابنتي بعد الان ، ولست ارغب في رؤيتك مرة اخرى ، وسواء عندي ان اراك حية او ميتة من الجوع!» ورجع الى الدار حيث انهال علي سبابا وضربا ، ولكنني لذت بالصمت ولم اتفوه بكلمة البتة .

« كنت أعرف ان ذلك سيمر سريعا ، وان ما يجب ان يكون سيكون . قال لي : « انظري يا اكولينا ، اياك ان تنسى ان ابنتك قد ذهبت الى الابد — وهكذا لم يعد لك ابنة على الاطلاق ، لا هنا ولا في اي مكان اخر ، اتفهمين؟ » . اما انا فكنت افكر في نفسي دونما انقطاع : « استمر في الكذب والهراء ، ايها الاحمر الراس ! لا باس عليك ! ان غضبك الان يغلي ، ولكن ذلك لن يطول ... فالغضب كالجليد ، لا تمسه الشمس الا ويذوب ! . . »

كنت استمع اليها ضيق الانفاس . . كان ، في قصتها امور عديدة تدهشني — فقد روى لي جدي زواج امي بصورة تختلف كل الاختلاف عن رواية جدتي له . . لقد عارض في الزواج حقا حسب ادعائه ، ولم يسمح لامي ان تدخل منزله بعد ذلك ، ولكن الزواج — كما يقول — لم يكن سريا ابدا ، بل كان هو نفسه حاضرا فيه . وترددت في الاستفسار من جدتي عن الحقيقة لانني فضلت ان استمع الى روايتها التي كانت اكثر خيالا وبهجة . . .

وراحت تتارجح الى الامام والخلف في مقعدها ، وهي تتكلم ، وتبالغ في حركاتها كلما بلغت مقطعا مؤلما او مخيفا من قصتها ، وترفع احدى ذراعيها

فكانها تتقي صفعة من يد خفية . وكثيرا ما كانت تغلق عينها فيرتجف حاجباها الغليظان ، بينما تلعب ابتسامة دافئة فوق غضون وجنتيها . وكنت احيانا ، اتاثر من تلك الطريقة العمياء التي تسامح بها كل شيء ، ولكنني كنت اتوق، في احيان اخرى ، الى ان استمع اليها تصيح بكلمات احتجاج بذيئة قاسية .

ــ حسنا ، لقد بقيت طوال اسبوعين او اكثر اجهل كل شيء عن مكان فاريا ومكسيم ، ومن ثم ارسلا الي طفلا يخبرني عنه ... وفي يوم السبت التالي خرجت من الدار وكانني في طريقي الى الكنيسة لحضور صلاة الغروب ، ولكنني لم امض اليها ، بل اسرعت اليهما ... كانا يعيشان بعيدا جدا في جناح صغير في احد منازل ناحية سيوتيسكي . وكان يعيش في باحة الدار عدد كبير من العمال ... كانت الدار قذرة ، لا تنقطع الضوضاء فيها ابدا ، ولكنهما لم يأبها لذلك ، بل كانا يلعبان ويمرحان مثل قطتين سعيدتين: وقد حملت اليهما بعض الهدايا ــ شيئا من الشاي ، والسكر ، والقمح ، والمربى ، والطحين ، والفواكه المجففة ، وقليلا من المال ايضا ــ ولست اذكر مقداره ــ كل ما استطعت ان اسرق من جدك ــ ولا جنحة في السرقة ان كانت في سبيل الغير ! ولكن والدك رفض ان يأخذه ، بل قال متاثرا : « وهل نحن شحاذان ؟ » . بينما راحت فاريا تضرب على الوترة نفسها: « لماذا حملت كل هذه الاشياء ، يا اماه ؟ » . اعطيتهما كل ذلك ، وقلت موبخة حانقة : « انني ام ارسلها الله اليك ، ايها الغبي ! اما انت ، ايتها المجنونة الصغيرة، فاني امك الحقيقية ، اين كتب ان المرء يستطيع اهانة امه ؟ فاذا ما اهان امه مرة ههنا ، على الارض ، جعل العذراء تبكي هناك في السماء ... » . وعندئذ حملني مكسيم بين ذراعيه وشرع يدور بي في الغرفة ــ حتى راح يقفز بي ويركض ــ فقد كان كالدب قوة ! وراحت فاريا تتبختر في الغرفة منتفخة كالطاووس معجبة بزوجها مزهوة بقوته ... وطفقت تتحدث في اعتزاز عن « بيتهما » ، وكانها مربية عجوز . لقد كدت انفجر ضحكا ! اما الفطائر التي قدمتها مع الشاي ؟ ان ذئبا يحطم اسنانه دون ان يستطيع قضمها ... والجبن البيتي ؟ انه اشبه بالحصى ...

« وهكذا سارت الامور زمنا طويلا ... وكنت انت على وشك ان تطل على الوجود ، ومع ذلك فجدك ما يزال بالصمت معتصما ــ انه مخلوق شرس ، ذلك المارد العجوز ! ولم انقطع عن زيارتهما ، الامر الذي لم يخف عنه ، وان كان يتظاهر بانه لم يلحظ شيئا ... وكان اسم فارفارا ممنوعا في

الدار ، فلم يأت أحد قط على ذكرها ، حتى ولا انا ايضا ... ولكنني كنت اعرف تماما ان قلب الاب لن يظل قاسيا .. وسرعان ما جاء الوقت المناسب ... كان ذلك في أمسية عاصفة ، والريح تجلد النوافذ بوحشية وهي تعوي مثل قطيع من الذئاب ، والمدخنة تتأجج ، وجميع شياطين الجحيم قد افلتت من محابسها ، وقد اضطجعت وجدك جنبا الى جنب لا نستطيع الى النوم سبيلا ... نهضت ، على حين غرة ، وقلت له : « ما اتعس الفقراء في مثل هذه الليالي ! لكن اولئك الذين تثقل الخطيئة وجدانهم لاكثر تعاسة ايضا ! » . فقال جدك على غير انتظار : « كيف حالهما ؟ » . فقلت : لا بأس بها ، ليست سيئة ابدا ! » . فسأل : « عمن تظنني اسأل ؟ » . قلت : « عن ابنتنا فارفارا ، وصهرنا مكسيم ! » . فصاح : « وكيف خمنت ذلك ؟ » . قلت : « كف عن هذه المهزلة ، يا ابتاه ! لقد حان ان نترك هذه اللعبة — فهي لا تسعد احدا ! » فصعد زفرة طويلة ، وقال : « آه ، انتم ايها الشياطين ! ايتها الشياطين الحمراء النارية ! » . ثم سأل : « ومـاذا عن ذلك المجنون الغشيم ؟ » — يعني والدك — « لقد اقترنت باحمق ، اليس كذلك ؟ » . قلت : « احمق ! ان الاحمق هو ذلك الذي لا يشتغل ، بل الذي يعيش على نفقة الاخرين ! هلا القيت نظرة على ولديك ياكوف وميخائيل — لو فعلت رأيت انهما وحدهما الاحمقان المجنونان ! من ذا الذي يعمل ويكسب المال لهـذه الدار ؟ انت ! وهما ، اتظن انهما يساعدانك حقا ؟ » . وهنا شرع يكيل الشتائم لي ووصفني بالحمقاء ، والبهيمة ، والكلبة ، والشمطاء ، والمخرفة ، والله وحده يدري ماذا ايضا . ولكنني لم انبس ببنت شفة ابدا ، حتى قال اخيرا : « كيف خدعت برجل شاب لا يعرفه احد ، لا يدري انسان من أين جاء ؟ » . ولكنني اعتصمت بالصمت حتى تعب من الحديث ، وعندئذ قلت « يحسن ان تذهب وترى بنفسك كيف يعيشان ، فان حياتهما لحلوة بديعة ! » . فقال : « ذلك شرف لا يستحقانه . فليأتيا هما الى هنا ! » . حسنا ، لقد رحت ابكي فرحا عندما قال ذلك ، بينما طفق هو يحل جدائل شعري — وكان يحب ان يلهو به على الدوام — وهو يتمتم : « حسنا ، كفاك بكاء ، ايتها البلهاء العجوز ! اتظنين انني بدون قلب ؟ » ... كانت روحه طيبة ، جدك هذا ، قبل ان يملك عليه مشاعره الظن بأنه اذكى من الجميع واحصف — لقد اصبح منذ ذلك الحين غبيا ابله ..

« وهكذا قدما لزيارتنا — امك وابوك — في يوم الفصح ، احد التسامح

العظيم .. كانا كبيرين جدا ، نظيفين ، جميلين ! ووقف مكسيم قبالــة جدك فلم يبلغ هذا الاخير اكثر من كتفه . قال مكسيــم : « لا تظــن يــا فاسيلي فاسيليفيتش ، انني جئت لاطالبك بالمهر . كلا ، ابدا ! بل جئت لاقدم احتراماتي الخالصة لوالد زوجتي فقط » . فسر جدك لذلك ، وضحك ، وقــال : آه ، ايها الوغد الكبير ! حسنا ، كفانا هراء ! لقد حان الوقت لتعيشا في دارنا » . فقطب مكسيم حاجبيه ، وقال : « ان ذلك يتعلق بفاريا ، وسافعل ما ترغــب هي فيه ، انه سواء عندي » . . . وعندئذ شرعا في الجدال ثانية ــ ولم تكن هناك اية قوة تستطيع ان تمنعهما عن ذلك . . رحت اشير لوالدك هذا بطرف عيني ، واضرب على قدمه من تحت الطاولة ، ولكنه لم يكف عن النقاش لحظة واحدة ! كانت له عينان ساحرتان ، صافيتان ، مشعتان ، وحاجبان اسودان فوقهما . احيانا يعقد حاجبيه فوق عينيه ، فترى على وجهــه تعبيرا قاسيا ، كالصخر ، وفي مثل هذه الاحوال لم يكن يعير اذنا صاغية لاحد غيري . كنت احبه كثيرا ، احبه اكثر من اولادي ، وهو يعرف ذلــك ، فيرد الى العاطفة نفسها . وقد اعتاد ان يحتضنني ، او يحملني بين ذراعيه ، ويدور بي في الغرفة قائلا : « انت الام الوحيدة التي لي ، مثل امنــا الارض . وانا احبك اكثر مما احب فاريا ! » . وكانت امك في ماضي الزمــان الغابر ، شيطانــة خبيثة ، صغيرة جميلة ، وكانت ترتمي عليه وتصيح : « كيف تتجاسر وتقول هذا ، يا . . . يا صاحب الاذنين الشبيهتين بالملفوف ؟ » . ثم نركض ثلاثتنا بعضنا في اثر البعض ، في ارجاء الغرفة . . ونمضي وقتا طيبا جميلا ! . . كانت تلك اياما سعيدة ، يا صغيري ! وكان يرقص كما لا يستطيع انسان ان يرقص ويجيد عددا من الاغاني الحلوة التي تعلمها من العميان الذين يستعطون .

« اجل ، لقد انتقلا الى الشقة المطلة على الحديقة الكبيــرة ، وهناك ولدت انت ــ عند الظهيرة . . . لقد رجع والدك ليتناول غــداءه ، واذ انت هنا في هذا العالم ! لقد كاد يجن سعادة وهناء ! اما والدتك ــ فقد كاد ان يقتلها بمداعباته فكأن مجيء طفــل الى العالم اصعب مــا في الوجــود على الاطلاق . ولقد حملني على كتفه ، ومضى يسعى عبر الساحة لانبيء جــدك بولادة حفيد آخر له . . . وقد غرق جدك في الضحك . »

« وابغض خالك مكسيم كثيرا ــ كان لا يقــرب الخمرة ابــدا ، حاد اللسان ذكيا ، ماهرا في استنباط جميع انواع الحيل والالاعيب ، تلك الحيل التي كلفته غاليا فيما بعد ! وذات مرة ، خلال فتــرة الصوم الكبير ، هبت

ريح صرصر عاصفة ، وانطلق فجاة صفير رهيب ونباح شديد في المنزل ، حتى ذعر الجميع وفقدوا صوابهم ... وأسرع جدك يعدو في الدار مهرولا يحاول اضاءة مصابيح الايقونات ، ثم جثا يصلي .. وفجاة ، سكن كل شيء ، الامر الذي كان اكثر رهبة وهولا ... وقد خمن خالك ياكوف الحقيقة ، فقال : « هذا من صنع مكسيم ! » . وكانت تلك الحقيقة بعينها ، فقد اخبرنا مكسيم فيما بعد كيف صف مجموعة من زجاجات مختلفة الانواع والاحجام على نافذة الطابق العلوي ، بحيث راحت الريح تصرصر في داخلها . وهدده جدك قائلا : يحسن ان تأخذ حذرك ، يا مكسيم ! والا رجعت الى سيبيريا اذا لم تكف عن الاعبيك هذه . »

« وهجم علينا شتاء بارد قارس ، اتت معه الينا الذئاب من السهول المجاورة ! فهذا كلب يفقد اليوم ، وهذا حصان يعدو خائفا مذعورا ، وهذا حارس ثمل في يوم ثان قد نالته الذئاب بالعض حتى اشرف على الهلاك . وكان أبوك يتناول بندقيته ، ويملأها خرطوشا ، ثم يخرج في ظلمة الليل كي يعود بذئب او ذئبين ، فيسلخهما ، ويضع زجاجا في محاجرهما حتى ليخال لك انهما ذئبان حقيقيان ... وفي ذات ليلة ، خرج خالك ميخائيل الى الشرفة لقضاء حاجة ما ، فاذا به يعود ادراجه عدوا على حين غفلة ، وقد جحظت عيناه ، ووقف شعر راسه ، وتدلى لسانه حتى اصبح عاجزا عن اصدار اي صوت . كان سرواله الذي فكت ازراره متدليا فوق قدميه وهو يتعثر به ويغمغم : « الذئب ، الذئب ! »

« وهرول كل من الحاضرين يتناول اي سلاح يقع تحت يده ، وخرجوا مسرعين الى الرواق ، كان هناك ذئب يمد راسه من تحت درجات السلم . انهالوا عليه ضربا واطلقوا النار ، ولكنه ظل ثابتا في مكانه لا يتحرك ... وتقدموا منه كي يجدوا انه حيوان فارع بستره جلد ذئب قد صنعت اطرافه في درجات السلم . وقد ثار جدك عندئذ ولم يعد يعي ما يقول . وسرعان ما طفق ياكوف يشارك اباك حيله ، فكان مكسيم يقص صورة راس من الورق المقوى ويرسم فيها عينين وانفا وفما ويلصق فيها بعض خيوط الكتان بدلا من الشعر . ومن ثم كان يذهب وياكوف عبر الشارع بلوح بلعبته أمام نوافذ المنازل المجاورة . وكان الجيران يذعرون وتعلوا اصواتهم بالصياح والعويل ...

« وفي احيان اخرى ، كانا يلتفان بالشراشف البيض ويتنزهان في الساحة الكبيرة .

« وفي يوم من الايام القينا الرعب في قلب الكاهـــن الذي هـــرول الى الحارس يطلب النجدة منه ، غير أن الحارس ذعر بدوره ، ولم يعد يعي كيف يصفر بصفارته الضخمة طالبا النجدة . وهكذا كانا لا ينقطعان عن الاعيبهما هذه قط ، دون ان ينفع فيهما نصح ولا تأنيب . وقد اشرت عليهما مرارا ان يكفا عن هذا السلوك ، وكذلك فعلت فاريا ، ولكنهما لم يعيرا اقوالنا اذنـــا صاغيه . . . كان مكسيم يسخر بنا ويقول : « انه لمن المضحك جدا ان يتطلع المرء الى الناس وقد فقدوا صوابهم وولوا الادبـــاء راكضـــين لسبب تافـــه سخيف ! » ولم يكن هناك من سبيل الى تبديل رايه وجعله يكف عن صبيانيات كهـــذه . . .

« ولكن سوء سلوكه هذا كاد ان يقضى عليه . لقد كان الخال ميخائيل وضيع النفس حقيرا حقودا مثل أبيـــه تماما . . . وهكـــذا جعل جل عملـــه الخلاص من ابيـــك . .

« وفي يوم من ايام الشتاء ، في اوائله بالضبط ، بينما كانوا راجعين من بعض الزيارات ــ وكانوا أربعة : مكسيم وخاليك ، والشماس الذي خسر وظيفته فيما بعد لانه ضرب سائق احـــدى العربات حتى الموت ــ وفيمـــا يهبطون شارع يامسكايا ، اقنعوا والدك بمرافقتهم الى بحيرة دوكوف مدعين انهم يريدون ان يتزحلقوا هناك ، ولكنهم عندما بلغوا البحـــرة القوا به من خلال حفرة في الجليد ــ اعتقد انى قصصت عليك ذلك فيما مضى ! . . »

ــ ما الذي يجعل خالي شريرين هكذا ؟

فاجابت جدتى وهى تتناول شمة من السعوط ، وفي صوتها بحة :

ــ انهما ليسا بشريرين ، بل هما ابلهان . . ان ميشكا خبيـــث ولكنه احمق في نفس الوقت ، أما ياكوف فلا يزيد عن كونه انسانا بسيطا ابله ، بكل ما في الكلمة من معنى . . . حسنا ، لقد دفعا به الى الحفرة ، ولكنه عندمـــا طفا على سطح الماء من جديد ، وتعلق بحافة الجليد ، اخـــذا يدوسان على اصابعه بأحذيتهما ، ومن حسن الحظ انه كان صاحيا وهما ثملان . . فدبر الامر بطريقة ما ، كي يبقى في وسط الحفرة ، لا يظهـــر راسه الا لتنفس ، وهما يرميانه بالجليد دون ان يصيباه ، حتى تركاه اخرا وابتعدا ، وهمـــا يخالان انه سيغرق من دون مساعدتهما ، بيد انه نجح فى الخروج من الماء ، وركض مباشرة الى مركز الشرطة الذى يقوم في الزاويـــة ، كما تعلم . . .

وكان رئيس الشرطة يعرفه كما يعــرف سائر افراد العائلة ، فسأله عمــا حــل بـــه ..

ورسمت جدتي اشارة الصليب على وجهها ، وهمست بامتنان وشكر :

فليهب الله السلام لروحه ... ارح يــا رب نفس مكسيم سافاتيفيتش مع قديسيك فهو يستاهل ذلك ! انه لم يخبر الشرطة بشيء مما حدث ، قال: « ان الذنب ذنبي ، فقد ذهبت ثملا الى البحيرة وسقطت من خلال الحفرة » . ولكن رئيس المركز لم يصدقه لانه ، باعتقاده ، كمـايعلـم ، لا يسكر ابدا ... وفركوا جسمه بالفودكا ، في المخفر ، والبسوه ثيابا جافة ، ودثروه بمعطف من الفرو وجاؤوا به الى الدار ، رئيس المركز وشرطيان اخران . ولم يكن ياكوف وميخائيل قد رجعا الى الدار بعد ، كانا يتنقلان من حانة الى حانــة طوال الوقت ... ولم نتمكن ، امك وانا ، ان نعرف مكسيم الا بصعوبة ..

« كان أزرق اللون ، محطم الاصابع ، والدم يسيل منها ، وقد ظهــر على فوديه شيء يشبه الثلـــج وان لم يذب فيما بعـــد . كان شعــره قــد شاب وامسى أبيض اللون ... وشرعت فارفارا تصيح :

« ـــ ما الذي فعلاه بك ، يا مكسيم ؟ ..

« واخذ رئيس المركز بطرح عليه الاسئلة دون انقطاع ، فأحس في صميم قلبي ان الامور لا تسير على ما يرام . وتركت امر رئيس المخفر لفارفارا ، بينما رحت احاول ان استخلص الحقيقة من مكسيم ، الذي همس : « اذهبي وابحثي عن ميخائيل وياكوف واخبريهما ان يقولا اننا خرجنا معـــا من شارع بامسكايا ، فذهبا هما من طريق بوكروفكا ، بينما سلكت انا درب بريادبلني واخبريهما بحذر من ان يجعلا الامر يلتبس عليهما ، والا وقعنا في متاعب مع رجال الشرطة » .

« فذهبت الى جدك ، وجعلته يهتم برئيس المركز بينما انتظر انا عنــد البوابة » . ورويت له الحادث كما وقع تمامـــا ... ارتدى ثيابـــه ، وهـــو يرتجف رعبا ، ويغمغم : « كنت اعرف ان مثل هذا الامر سيحدث » . ولكنها كذبة ظاهرة ، فهو لم يكن يدري شيئا .

« اما ياكوف فكان شديد السكر ، وقد شرع يتمتم : « انـــي لا اعرف شيئا . انه ميشكا الذي يكبرني سنا ! انا لا اعرف شيئـــا » . واستطعنا

اخيرا ان نهدىء من ثائرة رئيس المركز الذي كان رجلا شجاعا في الحقيقة ، توجه الينا محذرا وهو يغادرنا : « احذروا جيدا ، فان حدث شيء ما فانـــي اعرف على من سأضع اللوم بعد الان ! »

« وعندئذ اتجه جدك الى مكسيم ، وقال له : « شكرا لك ، يا بني . أي انسان اخر يتصرف بطريقة اخرى . اني اعرف ذلك حق المعرفة . وشكرا لك ، يا بنيتي ، لانك جئت مع هذا الرجل الى داري ! » .

« ان جدك يستطيع عندما يشاء ان يقول اشياء حلوة كهذه ــ وهو لم يعد أحمق ولم يغلق قلبه الا مؤخرا فقط . وعندما انفردنا نحن الثلاثة شرع مكسيم ينتحب ، بل بهذي فيما يبدو قائـــلا :

« ــ كيف يصنعان بي مثل هذه الامور ؟ .. ماذا فعلــت لهما ؟ لماذا يفعلان ذلك ، يا امـــاه ؟

« فكأنه طفل صغير ، والحقيقة ان بعضا مـــن ذكرياته وطفولته كـــان متأصلا في طبيعتـــه ...

« وعاد يسأل : « لماذا ؟ » وكان كل ما استطعت ان افعله هوالجلوس الى جانبه والعويل معه ... لقد كانا ولدي بالرغم من كل شيء ، فلا اتمكن الا ان ارثي لهما .. اما امكفقد انتزعت كـــل الازرار من قميصهـــا وجلست هناك مشعثة الشعر ، فكأنها قد خرجت من قتال حامـــي الوطيس ، تلطـــم خديها وراحت تصيح : « فلنذهب ، يا مكسيم ! ان اخوي عدوان لنا ، وانـــا اخاف منهما ، فلنهرب ! » . ولم احتمل منها مثل هذه الاقوال . قلت : « لا ترمي زيتا على النار ! يكفي ما يملأ الدار من الدخان ! » . وهنا ارسل جدك هذين المجنونين كي يطلبا الصفح والغفران ، ولكنها لطمت ميشكا على وجهه، وقالت : « اليك الغفران الذي تستحقـــه ! » . اما أبوك فلـــم يفتأ يسأل : « كيف يمكن ان ترتكبا مثل هذا العمل ؟ كان يمكن انتقعداني عن العمل دوما! وماذا استطيع ان افعل دون اصابعي ؟ » ... واخيرا تم الصلح بطريقة ما، وظل ابوك بعد ذلك طوال سبعة أسابيع تقريبا مريضا ملتزما الفراش ، يردد دون انقطاع وهو قابع في فراشه : « فلنذهـــب الى مدينـــة اخرى ، يا ماما ! اني اكاد ان اختنق ههنا ! » . وسرعان ما ارسل بعد ذلك الى استراخان حيث طلب الى ابيك ان يبني قوس النصر . وابحر على ظهر أول مركب بخاري مر بنا في الربيع . وكان الفراق محزنا جدا بالنسبة الي ، مثل فراق الروح ،

وكذلك كان أبوك كئيبا يحاول ان يقنعني بمراغقتهما دون جدوى ... امـا فارفارا فكانت سعادتها تتجاوز كل حدود وهي لا تحاول اخفاءها ابدا ... يا لها من امرأة قليلة الحياء ... وهكذا كان .. » .

وارتشفت جرعة من الفودكا انبعتها بقليل مـن السعوط ، ثم قالت وهي تشخص من النافذة الى الفضاء الواسع :

ــ بلى ! لم نكن ، والدك وأنا ، قريبين بالدم .. ولكن قرابة الروح كانت تجمعنا بل كانت متأصلة فينا منذ نعومة الاظفار ...

وكان جدي يدخل الى الغرفة، على غير انتظار غالب الاحيان، ويفاجئها اثناء الحديث ، فلا يلبث ان يرفع وجهه ويستنشق الهواء ، ويرنو بريبة الى جدتي ، ويصغي لحظة ويتمتم :

ــ اكذبي ، اكذبي !...

وكان يسألني ، احيانا ، فجأة :

ــ لقد كانت تحتسي الخمرة هنا ، يا الكسي ؟

ــ كـلا !

ــ أنت تكذب ! اني ارى ذلك من عينيك !

ويغادر الغرفة مشككا مرتابا ... فتغمز جدتي بنظـرة حادة قامتـه المبتعدة ، وتردد بهمس :

ــ امض مع السلامة ، ولا تخفنـا !

وفي ذات يوم ، انتصب في وسط الغرفة ، وقد ثبت عينيه في الارض ، وقال بتؤدة وتردد :

ــ مامـا !...

ــ مـاذا ؟

ــ اتعرفين كيف تسير الامـور ؟

ــ اجل أعـرف .

ـــ وماذا تظلنـــين ؟

ـــ انه القضاء ، يا أبناه ! الا تذكر ما اعتدت ان تقول عن ذلك الانسان الكامل الرائع ؟

ـــ اه . . ه . . آه !

ـــ حسنا ، يبدو انك على حق .

ـــ ولكنه صعلوك .

ـــ ذلك يعنيها وحدها .

ويخرج جدي ، فسألت وقد احسست بمصيبة عاتية :

ـــ عم تتكلمـــان ؟

فتأففت وراحت تهز براسها ثم قالت :

ـــ انك تريد ان تعرف كل شيء ، اليس كذلك ؟ فماذا احطت بكل شيء انت صغير ، ماذا يبقى كي تعرفه عندما تكبر ؟

ضحكت . . وهزت راسها . . .

ـــ آه ، ايها الجد ، أيها الجد ! انما أنت ذرة من الغبار تافهة ! لا تقل شيئا ما يا الكسي ! ولكن الحقيقة ان جدك قد فقد كل شيء ـــ حتى اخر فلس يملكه . لقد استدان منه احد النبلاء مبلغا كبيرا من المال يزيد على الالاف ، ثم غدر الدهر بذلك النبيل فأفلس . . .

وغرقت في تفكير عميق ، معتصمة بالصمت مدة طويلة ، بينمـــا علت كآبة قاتمة الابتسامة المشرقة المرتسمة على وجهها . . . سألتها :

ـــ فيم تهدسين ؟

فأجابت ، وهي تشد راحتيها :

ـــ أفكر فيما اقص عليك . حسنا ، ما رأيـــك في قصة يفزتيجنيـــا ؟ هـــاك هـــي :

« في ذلك الزمان كان يعيش بفزتيجنيا الشماس ، وكان يعتقد انه اكثر اشعاعا من منارة البحر ، واكثر توقد فكر حتى من الكاهن او القيصر واشد ادراكا .. وأما من ناحية التجار — فلا نسل عن تجاوزه لهم في الذكاء وقوة الاراده ... كان يتمخطر كالطاووس ، وعيناه جاحظتان مثل بوم عجوز ... وكان يعلم الجيران ، من الصباح الباكر حتى حلول الظلام .. ولا يجد شيئا في الوجود صالحا ابدا !

— اذا تطلع الى برج ما ... فهو كثير الانخفاض !

واذا ركب عربة ... فهى شديدة الابطاء !

واذا أكل تفاحة ... فهى فجة غير لذيذة !

واذا جلست في اشعة الشمس .. فهى كثيرة الحرارة !..

واتسعت عينا جدتي في محجريهما . وانتفخ خداها . فاتخذ وجهها اللطيف طلعة من الغباء مضحكة ، بينما راحت تتشدق قائلة :

— ... وهو يقول دوما : « كنت استطيع ان اصنع هذا ، لو أردت، بطريقة افضل بما لا يقاس ... ولكنني ، كما تعلمون ، لا أستطيع ان أضيع وقتي جدا بدون فائدة . » ..

وتوقفت لحظة عن الكلام ، ثم استطردت في صوت منخفض :

— وذات ليلة زارته بعض الشياطين ، لتقول لـه : « انت تـرى ان الاشياء هنا كلها فاسدة ! فما رايك لو اضفتنا في الجحيم — فالنيـران هناك تحترق بلهب غريب ! » . ولم يكد الشماس يلبس طاقيته حتى ركبه اثنان من الشياطين ، بينما امسك به آخرون بمخالبهم ، وراحوا يقرصونه ويدغدغونه بأظافرهم ، ويدفعون به في اللهب المتأجج قائلين : « حسنا ، يا بفزتيجنيا ، انت مسرور من المجيء الينا ؟.... » . وشرع يدور عينيـه وهو يحتـرق، أمارات الحكمة ظلت بادية على وجهه ، بينما انقلبت شفته بازدراء ، وهـو يقول : « ان نيران جهنم تثير كثيرا من الدخان ! » ...

وختمت قصتها بشهقة طويلة ، ثم ضحكـت ، واستدارت نحوي وقد تبدلت تعابير محياها :

ـــ انه لم يسلم ذلك الاخرق ، فقد كانت له صفات غير طبيعيه ، مثله مثل جدك تماما ! اجل ! . لقد حان وقت النوم الان ...

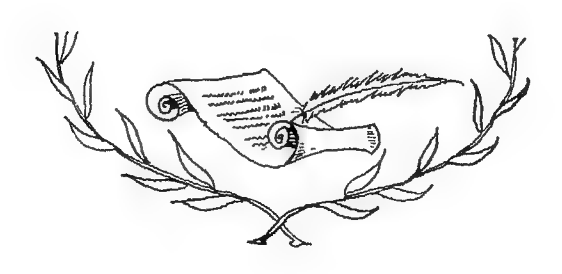
ونادرا ما كانت تاتي أمي لرؤيتي في الطابق العلوي ، فاذا فعلت فلكي تتفوه ببعض كلمات مضطربه متلاحقة ، ثم تعجل بالرحيل دون تأخير ... كانت تزداد بهاء وتزيد من عنايتها بلباسها ... وكنت أجدها محاطه بالغموض مثل جدتي تماما . هذا الغموض الذي كنت احذره واشعر به ... وبناقص اهتمامي بالاقاصيص التي تسردها علي جدتي ـــ لا بل ان الاقاصيص عن والدي أيضا لم تستطع ان تشتت ذلك الذعر المبهم الذي طفق ينمو كل يوم في تفكيري ويزداد شدة . سألت جدتي :

ـــ ما الذي يقلق روح والدي ويزعجها ؟

فأجابت ، وقد رفعت يدها على عينيها :

كيف لي ان أعرف ؟ هذا من شان اللـه ، وليس لنا ان نفهمه نحن الذين على هذه الفانية !..

وفي الليالي التي كنت أحسها طويلة ، حين اضطجع عاجزا عن الرقاد، اروح أراقب تقدم موكب النجوم البطيء في السماء الزرقاء الضاربة الى السواد ، كنت ابتكر قصصا كثيبة اجعل من والدي بطلا لها ... وكان والدي فيها وحيدا على الدوام ، يحمل هراوة في يده ، بينما يتراكض في أثره كلب صغير ذو وبر طويل مشعث .



١٢

إفقت ذات مساء بعد غفـــوة قصيرة فشعـــرت ان ساقـــي قد افاقتـــا بدورهما ... القيت بهما عن حافة السرير ، فاذا هما تعودان الى خدرهمـــا وجمودهما مرة اخرى . ولكن الثقة بان ساقى سالمتان وانـنـــي سأستطيـــع السير عليهما من جديد ، قد ولدت في نفسي قوة غير عادية حتى لفنـــي فرح شديد ودفعني الى النداء عاليا .. .وضـعت قدمـــي على الارض وشددت عليهما بكل قوتى ، ولكنني تعثرت وسقطت ، فرحت اجر نفسي جرا حتى بلغت الباب ، ومن هناك هبطت السلم زحفا ، وأنا أتصور المفاجأة التي ستعرو الجميع حين يبصرون بي ...

ولست اعرف كيف وجدت نفسي في حجر جدتي في غرفة والدتي، ولكنني كنت هناك وقد أحاط بي أناس غرباء في عدادهم امرأة مسنة ، نحيلـــة القوام ، مخضرة اللون .. قالت هذه المرأة بصوت مهيب ، اغـــرق في لجته ســائـــر الاصوات الاخرى :

ـــ اعطيه شيئا من مربى التوت في الشاي ، ولفيه جيدا بالاحرمة ، من راســه حتى اخمص قدميه ...

كان كل شيء فيها اخضر اللون ـــ ثوبها ، وقبعتها ، ووجهها ، وتلـــك الدملة النامية تحت عينها اليسرى ، لا بل ان الشعيرات القليلة التـــي تنبت منها كانت تشبه العشب الاخضـــر كل الشبه ... أرخـــت شفتها السفلى ، ورفعت الشفة العليا ، وشخصت الي ولاح لي ان اسنانها خضراء ايضا ، وقد ظللت عينيها بيد اختفت في قفاز أسود ، فسألت متلجلجا مرتبكا :

ـ من هي هذه الخضرة ؟

فأجاب جدي في صوت مقيت :

ـ سوف تكون جدة اخرى لك !

ضحكت امي ، ودفعت يفجيني مكسيموف الى جانبي وهي تقول :

ـ وهذا أب لـك !

واضافت بضع كلمات سريعة غامضة ، بينما ضيق مكسيموف عينيه ، وانحنى ليقـول :

ـ سأهديك شيئا من الدهان للرسم .

كان النور قويا في الغرفة ، وعلى طاولة تقوم في احدى الزوايا ينتصب شمعدان فضي تحترق فيه خمس شمعات ، استقرت بينهـا ايقونـة جدي المفضلة : « لا تبكي ، يا ماما ! » : وكانت اللاليء التي تزين ثوب العذراء في طياته ومضات من النار تطلقها احجار الياقوت الاحمر المصفوفة باعتناء وسط التاج الذهبي الذي يغطي رأس العذراء . وكانت وجوه مدورة تطل من خلال النوافذ السود ، وانوف مسطحة تضغط على الزجاج بصورة غريبة ، وشرع كل ما يحيط بي يسبح ويموج ، بينما انحنت المرأة الخضراء فوقي كي تجس ما وراء أذني بأصابعها الباردة ، وهي تدمدم :

ـ على اية حال ، فهو لن ...

وقالت جدتي :

ـ لقد غفـا ...

ومن ثم حملتني واتجهت بي الى الباب ...

والحقيقة اني لم اغف ، بل اغمضت عيني بكل بساطة ...

قلت لها ، وهي تصعد بي السلم :

ـ لم لم تخبرينـي ؟

ـ لا تتكلم الان ،اتسمع؟ لا تقل شيئا .

ــ خداعون جميعكــم !..

عندما انـجسني في سريري ـ دفنت راسها تحت الوساده ، وعرقت في بحر من الدموع ـ بينما طفق جسدها يرتجف ويتارجح بفعل نشيجها ، وهي لا تفتأ تقول لــي :

ــ لماذا لا تبكي ؟ ابك قليلا !

ولكن لم تكن بي رغبة في البكاء .. كان الطابق العلوي باردا مظلما ـ والفراش يهتز ويضطـــرب لشدة ارتعاش ، وتلــك المرأة الخضراء تابى ان تختفي من أمام ناظري ـ وتظاهرت بالنوم ، فتركتني جدتي وحيدا ..

مرت الايام القليلة التالية على نمط واحد ـ رتيبـــة مضجرة .. أمــا والدتي فقد رحلت عنا بعد ان اعلنت خطبتها ـ فطوق المنزل جو من السكون المرهق الثقيل الوطـــأة .

وفي صباح يوم من الايام ـ جاء جدي حاملا ازميلا في يده ، وراح يقتلع المعجون من حول النافذة ، ومن ثم تبعته جدتي وهي تحمل حوضا من الماء ، وبعض الاسمال البالية ... سأل في صوت خفيض :

ــ اجل ، ايه ، ايتها العجوز !

ــ ماذا ؟

ــ أانت مسرورة ؟

فأجابته مثلما اجابتني على السلم :

ــ لا تتكلم الان ، اتسمع ؟ لا تقل شيئا .

كان لهذه الكلمات مغزى خاص ــ انها تخفي شيئا غريبا بغيضا يعرفه الجميع ، ولكنهم يرفضون البوح به .. ورفع جدي ، بعناية فائقة ، النافذة الداخلية وذهب بها اما جدتي ففتحـــت النافذة الاخـــرى على مصراعيهـــا . امتلأت الغرفة برائحة مسكرة تتصاعد من التربـــة التي ذاب الجليد عنهـــا حديثا ، وشحب لون ترميد الموقد الازرق ارتعشت اوصالـــي عندما تطلعت

الى هذا القرميد ، فانزلقت مـن فراشي حتى الارض ، لكن جدتـي حذرتني بقولـا :

ــ اياك والسير حافي القدمـين !

ــ سأذهب الى الحديقة .

ــ انتظر حتى نزول الرطوبـة .

لم أرغب في اطاعتها .. ان رؤية الكبار قد غدت تكدرني الان ...

كانت خصيلات شاحبة من العشب تنمو تشق طريقها من باطن التربة، وبراعم الزهر تزهر في اغصان الاشجار ، والعشب الاخضر الجميل يفرش سطح منزل بتروفنا ، والعصافير تملأ كل فسحة ، والرائحة الذكية المنطلقة في جو تملؤه اصداء خافتة عذبة تسكرني وتبعث في اوصالي نشوة لذيذة ... وكان حشيش بني اللون ، يحيطه الثلج من كل جانب ، يزركش ارض الحفرة التي ذبح العم بيوتر نفسه فيها . ان النظر الى تلك الحشائش مزعج مؤلم ــ فلا هي ، ولا تلك الكتل الخشبية المحترقة كأنها ترنو الي في اسى واكتئاب، لتنسجم مع الربيع الوليد المزدهر ... لا بل ان الحفرة بأسرها ، كانت زائدة في ذلك المكان ، عديمة النفع ، مزعجة ترهق الاعصاب .. واخذتني ، على حين غرة ، رغبة هائجة في ان اقتلـع تلـك الحشائش ، والقي بها بعيـدا وانظف تلك البقعة من الحديقة من كل ما يدنسها ، ثم ابني لنفسي هناك زاوية هادئة نظيفة استطيع ان اقضي فيها فصل الصيف وحيدا ، بعيدا عن سائر من يدعون انهم كبار ... وسرعان ما شرعت في تحقيق هذه الرغبة ، الامر الذي ساعدني على نسيان تلك الحوادث التي جرت في دارنا .. وطبيعي ان حب الاذى لم يبارحني بعد ، لكن حدته كانت تخف يوما بعد يوم .

كانت جدتي وأمي تسألانني باستمرار :

ــ ما بالك تبدو عابسا على غير عادتك ؟

هذا السؤال يزعجني ويضايقني ــ فانا لست ناقمـا عليهما .. كل ما في الامر ان كل ما يتعلق بالبيت قد أصبح غريبا علي ، وكثـيرا ما كانـت تلك المرأة الخضـراء تنضم الينـا على الغـداء ، أو الشاي ، أو العشاء ، تتجلس هناك أشبه ببقعة عفنة من سور عتيق ، وقد الصقت عيناهـا الى

وجهها بخيوط غير منظورة ، فهما تتدحرجان بسهولة في محجريهما العظيمين العمبتين تتطلعان الى كـل شيء ، وتتفحصان كـل شيء ، ترتفعـان الى السقف عندما تتحدث عن الله ، وتهبطان الى جوف الارض عندما تتحدث عن الامور الارضية . وكان يبدو ان حاجبيها مصنوعان من خيوط دقيقة خيطـت هناك ، فوق عينيها بطريقة عجيبة ، وأسنانها العاريـة العريضة تلتهم كل شيء يدخل الى فمها دون ادنى صوت على الاطلاق . كانت تمسك بشوكة الطعام بطريقة مضحكة ، وقد برز اصبعها الصغير جانبا بصورة تبعث على السخرية ، فاذا اكلت تحركت اذناها بدورهما عندئذ ، بينما شعرات دملتها الخضراء تهتز وتتأرجح ايضا وهي تزحف كالديدان على جلدهـا الذي تبعث نظافته على النفور والاشمئزاز . . . كانت ، هي وابنها ، نظيفين للغاية حتى لا يجسر انسان على الاقتراب منها . . . ولقد حاولت ، عـدة مرات ، خلال الايام الاولى من تعارفنا ، ان تحملني على تقبيل يدها الميتـة ، التي تفوح منها رائحة الصابون والبخور ، لكني كنت اولي الادبـار . . كانت لا تفتـأ تقول لابنهـا :

ـ ان هذا الصبي يحتاج ، بكل تأكيد ، الى تربية حقيقية لمدة طويلة . . . اتفهم يا يفجينيـي ؟

فلا يفعل يفجيني الا الاطراق برأسه خضوعا ، وقد قطب وجهه ، دون ان يقول شيئا . . . وفي الحقيقة ، كان الجميع يقطبون وجوههـم في حضور تلك المرأة الخضراء . . ابغضت تلك العجوز ـ وكذلك ولدهـا ـ بغضـا شديدا مركزا كلفني كثيرا من الجلد . . . وفي ظهر احد الايـام ، بينما نحن نتناول طعام الغداء ، راحت تحملق بعينيها فى وهى تقول :

ـ يا عزيزي الكسي ، لماذا تأكل بمثل هذه السرعة ؟ ولماذا تبالغ في تكبير حجم اللقمة هكذا ؟ لسوف تختنق ، يا حبيبى !

فأخرجت اللقمة من فمى ، وغرزت شوكتي فيها ، ومددت يدي بها اليها قائـلا :

ـ هاكها ، خذيها اذا كنت متأسفة عليهـا :

فانتزعتنى أمي عن الطاولة انتزاعا ، ونفتني الى الطابـق العلوى . ولحقت بي جدتى بعد ذلك ، وانفجرت ضاحكة وهي تشد على فمها باحدى

يدسها وتمد الثانية مؤنبة :

ــ يا الهي ، يا الهى ! يا لك من شيطان صغير !

لم ترق لي طريقتها فيوضع يدها على فمها ، فأفلت منها ، وتسلقت سطح المنزل ، وجلست هناك خلف المدخنة ... بلى ، أن بي رغبة لا تقاوم في اهانتهم جميعا ، يصعب علي جدا ان اقاومها . ولكنني كنت مكرها على ذلك .. ففي ذات يوم ، طليت مقعدي زوج امي وجدتي الجديدة بالغراء القاسي ، فالتصق كل منهما بمقعده بطريقة تبعث على الضحك ، ولكن امي لحقت بي الى الطابق العلوي ، بعدما جلدني جدي ، وجرتني اليها ، وامسكت بي بقوة بين ركبتيها ، وقالت :

ــ لو كنت تعرف كم تحز شيطنتك في نفسي !

وفاضت عيناها بدموع ملتمعة ، وقد ضمت راسي الى خدها الناعم.. لو انها جلدتني ، لكان ذلك اخف وطاة علي ! اقسمت الا اضايق آل مكسيموف ابدا بعدئذ ، بشرط ان تكف عن البكاء فقط . كنت اكره امي باكية . قالت بلطف :

ــ حسنا ، يجب الا تكون خبيثا ! سوف نتزوج عن قريب ، ثم نذهب في رحلة قصيرة الى موسكو ، وعندما نعود ستعيش معي ... ان يفجيني رجل حنون لطيف ، وانا اعرف انك ستسر بصحبته ... سيرسلك الى المدرسة ، وعندها تصبح طالبا مثله الان ، وبعد ذلك ستمسى طبيبا او اي شيء اخر تحب ... ان الرجل المثقف يستطيع ان يفعل ما يريد .. حسنا ، اخرج الان ...

وكان يبدو لي ان عباراتها التى تكررها دون انقطاع ، هي سلم منحدر يقودني بعيدا عنها الى الاسفل ، الى الظلمة والوحدة والانعزال وهذا السلم لم يكن ليبعث الغبطة في نفسي طبعا ، فأتمنى ان اقول لامي :

ــ لا تتزوجي .. سأجعلك تعيشين بترف ، انا وحدى ...

ولكننى لم اقل ذلك .. كانت امي تشعرني ، على الدوام ، بعواطف رقيقة ، ولكنى لم اجد قط الشجاعة الكافية للتعبير عنها ...

كان عملي في الحديقة يتطور من نجاح الى اخر .. فقد نبشت الحشيش واقتلعته ، ومهدت الاطراف المنحرفة للحفر بقطع من القرميد وصنعت في مكان اخر مقعدا مريحا عريضا استطيع ان اضطجع فيه على هواي ، وجمعت قطعا من الزجاج الملون والصحون المكسورة وصففتها في الطين بين القرميد ، فكانت تبرق مثل الايقونات في الكنيسة كلما اشرقت الشمس عليها.

قال جدي ذات يوم ، وهو يتفحص عملي :

ــ رائع منك ان تفعل ذلك ! لكن الحشيش سينمو ثانية ويجتاح كل شيء ــ فقد ابقيت جذوره في جوف الارض . هيا ، آتني بالمعول وسأبيد لك هذا العشب اللعين .

وعندما جئته بالمعول بصق في يديه ثم ضرب المعول بعمق في الارض قائلا :

ــ ارم الجذور بعيدا ، وسأوزع لك الزهور بمعرفتي وسيكون ذلك رائعا حقا ، رائعا جدا ...

وفجاة انحنى على المعول دون حراك ، وظل فترة دون ان ينبس بحرف واحد ... اقتربت منه ، فرأيت بعض الدموع تنهمر من عينيه الصغيرتين كعيني كلب صغير .. سألته :

ــ ما بالك ؟

فارتجف ، ومسح وجهه بيده ، وقال :

ــ ان العرق يبللني .. انظر فقط الى هذا الدود ما اكثره ! وشرع ، مرة ثانية ، ينبش الارض ، ثم قال فجأة :

ــ كل هذا العمل عبث ! فانا سأبيع البيت لاول مشتري ، في الخريف على الارجح ... اني في حاجة الى المال مهرا لامك كي تعيش ، على الاقل ، بصورة لائقة ..

ورمى بالمعول ثم مضى الى زاوية من الحديقة خلف الحمام حيث كان يحتفظ ببعض ادواته ... فرحت انبش الارض ، وما اسرع ما قطعت اصبعا من اصابعي بحد المعول .. ومنعتني هذه الاصابة عن حضور عرس أمي ، فلم أستطع اكثر من مرافقتها حتى البوابة ، ومن هناك رحت أراقبها وهي

تعبر الشـارع مع مكسيموف الذي تشبث بذراعها . كـان رأسها مطرقا ، وقدمها تتحسس طريقها بعناية بـين العشب الطري وكأنهـا تسير علـى مسامير مدببة ...

العرس كان هادئا .. تناولنا الشاي بعد الاحتفال بصمت ، دون اية بهجة او أقل سرور ... ومن ثم أسرعت أمي الى غرفة نومها ، وشرعت في حزم متاعها ، بينما جلس زوجها الى جانبي وقال :

ــ لقد وعدت ان أهديك شيئا من الدهان ، ولكن الانــواع التي توجد منه هنا رديئة . وانا لا اقدر ان امنحك دهاناتي الشخصية . سو ف أرسل لك هديتي من موسكو ...

ــ وماذا افعل بهـا ؟

ــ الا تحب الرسم ؟

ــ انا لا أعرف كيف أرسم !

ــ اذن سأرسل لك شيئا اخر .

ودخلت امي ... لتقول :

ــ سنعود سريعا ... بعد انتهاء والدك من امتحانه ودراساته سنكر راجعــين ..

كان يطربني ان يتحدثا الى وكانني واحد من الكبار ، ولكنى استغربت ان يكون رجل ملتح في طور الدراسة بعد . سألت :

ــ ماذا تتعلـم ؟

ــ تخطيط الاراضي .

لم اسأل معنى ذلك مع انني لم أكن ادري مـاذا يعنى .. كان البيت محاطا بسكون خانق ، فكنت اتلهف لمجيء الليل .. ووقف جدي مستندا بظهره الى الموقد ، ينظر من النافذة بعينين نصف مغلقتين . والمرأة الخضراء تساعد أمي في حزم المتاع ، وهى تتنهد وتدمدم طوال الوقت . أما جدتي ،

التي كانت ثملة منذ الظهيرة ، فقد اقفل عليها في الطابق العلوي كيلا تشين العائلة بما لا طائل تحته ...

تركتنا امي باكرا ، عانقتني مودعة ، وقد رفعتني بسهولة عن الارض وحدقت في عيني بنظرة لم ار لها عندها شبها من قبل ..

قالت ، وهي تقبلنـي :

ــ الوداع ! الوداع !

فقال جدي باكتئاب ، وهو ينظر نحو السماء :

ــ اطلبى اليه ان يسمع ما اقوله له .

ــ فتوجهت امي ، وهي ترسم اشارة الصليب على راسي :

ــ يجب ان تطيـع جدك .

كنت انتظر ان تقول شيئا اخر ، فنقمت على جـدي لمقاطعته اياهـا ومنعها عن الاستمرار في حديثها ... صعدت ومكسيموف الى العربة ، لكن ثوبها علق بشيء ما ، فظلت مدة طويلة تعمل منزعجة على تحريره ..

قال جـدي :

ــ ساعدها ، اما رايت ما حصل .

ولكنني كنت غارقا في اليأس لاأستطيـع ان افعـل شيئا ... ومـد مكسيموف ، بعناية فائقة ، ساقيه الطويلتين بسرواله الازرق ، بينما ناولت جدتي بعض الرزم التي كدسها على ركبتيه ، ثم رفع حاجبه الشاحب اللون باضطراب ، وقـال :

ــ كفـى !

وركبت المرأة الخضراء وابنها البكر الذي كان ضابطا عربة أخرى .. جلست منتصبة القامة كعمود ، في حين حك ولدها لحيته بقبضة سيفه وهو يتثاءب بين الفينة والاخرى ... ساله جدي :

ــ هل انت ذاهب الى الحرب ؟

ــ بدون شك .

ــ هذا رائع ! فلا بد من قهر هؤلاء الاتراك .

ومضت العربتان ... استدارت امي عدة مرات تلوح بمنديلها ، بينما راحت جدتي تبكي بالقرب من الحائط وهي تلوح بمنديلها ايضا ، اما جدي فقد ترقرقت الدموع في مآقيه ، وهو يغمغم بصوت متقطع كلمات غير مفهومه ابـــدا .

جلست على مقعد صغير لا مسند له اراقـــب العربتين تقفزان فـــوق اخاديد الشـارع ــ وما عتمتا ان انعطفتا في احدى الزوايا ، فخيـــل الي ان هناك شيئا في صدري قد ارتعش ، وان الدموع ستنهمر من عيني .

كان الوقت باكرا ، والشوارع فارغة بعد ، ومصاريع النوافذ ما برحت مغلقة ، لم ار من قبل مثل هذا الفراغ المطبق ... ومن بعيد ، مـــن بعض الاماكن النائية ، تلاحقت انغام احد الرعيان يرسلها مـــن مزماره ... قال جدي ، وقد امسكني من كتفـــي :

ــ تعال تناول فطورك ، يبدو ان من المقدر لـــك ان تعيش معي الى الابد مثل عود الثقاب يحك بمشعله ...

كنا ، جدي وانا ، نعمل في الحديقة منذ الصباح الباكـــر صامتين حتى حلول الظلام ، وهو يحفر التربة ، ويقتلع الاشواك عـــن اشجار التفاح ، ويسحق الدود الذي يعثر عليه هنا وهناك ، وانا ارتب زاويتي دون انقطاع ... بتر جدي اطراف الكتل الخشبية المحترقة ، وغرز عصا جديدة في الارض علقت بها اقفاص طيوري . وفرشت مظلات مـــن الحشيش الجاف لاحمي مأواي من الشمس والندى . وهكذا اضحت تلك الزاوية نظيفة معدة للسكن ... قال جـــدي :

ــ حلو منك ان تتعلم كيف تنظم امور حياتك من تلقاء نفسك .

كنت اقدر كثيرا ملاحظاته القيمة عن الحياة .. كـــان يرقد احيانا على المقعد الذي غطيته بالعشب ، يحدثني على مهل ، فخال لي انه يخرج كل كلمة من فمه بصعوبة فائقـــة :

ــ انك الان فصلت عن امك ! ولسوف تلد والدتك اولادا اخرين يكونون

اقرب الى قلبها منك . اما جدتك فقد اخذت ، كما تعلم ، تدمن شرب الخمرة !

ثم يغرق في صمت طويل ، فكأنه يرهف السمع الى شيء ما ، كي يعود فيتابع الحديث وهو يدحرج كلماته الثقيلة ، ويرنو الى البعيد كأنه يستجمع افكاره او كأنه يستلهم شيئا غير منظور :

ـ هذه هي المرة الثانية التي تعاقر الخمرة فيها ـ كانت المرة الاولى عندما دعي ميخائيل الى الجندية . لقد اقنعتني يومذاك كي افتديه . يا لهـا من مجنونة ! لعله كان يكون شيئا اخر لو خـدم في الجيش . . . امـا انا ! فلسوف اموت سريعا . وهذا يعني انك ستبقى وحيدا ، تظل وحيـدا تدبر امور نفسك بنفسك . تعلم ان تعنى بنفسك ، واياك ان تنحني للغير . عش مسالما ، ولكن كن عنيدا ، وامض في طريقك الخاصة دون خوف او هلع . . . واستشر ، ولكن افعل ما تعتقد انت انه الافضل . .

قضيت في الحديقة الصيف كله ، عدا ايامه الماطرة طبعا . وكذلك كنت امضي فيه الليالي الدافئة ـ فقد اعطتني جدتي قطعة من اللباد جعلت منها سريرا لي . وكانت هي ايضا تقضي العديد من الليالي تروي لـي الحكايات التي كنت اقاطعها بهتافات تأييد تارة ودهشة طورا ، فتصيح مثلا :

ـ انظر ! نجم يسقط ! هذه روح اشتاقـت الى امهـا الارض . ان انسانا صالحا قد ولد في مكان ما من هذه الارض . . .

او كانت تقاطع نفسها بنفسها فتقول :

ـ ها هي ذي نجمة جديدة بعثت . . . انظر ! كلها عيون ! السماء ، انها ثوب الله المزركش بالدرر اللامعة .

فيتأفف جدي ، ويقول :

ـ التقطا انفاسكما ، ايها الابلهان ! سوف تصيبكما بلية ، او ينقض عليكما بعض اللصوص . . .

وتنحدر الشمس ، تغمر السماء بلون احمر كأنه من النيران ثم تمسى رمادا ذهبيا محمرا فوق رداء الحدائق الخضر . وعندئذ يظلم الكون تدريجيا ، وهو يتسع ، بمقدار ما يبتلع الغسق ، ويفنى ، وتذبـل الاوراق المشبعـة بحرارة الشمس على اغصانهـا ، ويطاطىء العشب رؤوسه العديدة ناحية

الارض ، ويمسي كل شيء اكثر طراوه ونعومه ، يبعث اريجا لطيفا كالموسيقى التي تطوف ساعيه من الحقول البعيده توقعها مخيمات الجيش ، ويحمل الليل معه احساسا قويا منعشا مثل حب الام الرؤوم لاولادها ، ومثل مداعبات الام يكون السكون ايضا ، يمسح القلب باطراف مخمليه ، يكنس بعيدا كل ما يجب ان يضيع في عالم النسيان ــ كل ذلك الغبار الدقيق المحرق الذي تراكم خلال النهار . كان من الروعه بمكان عظيم ان يضطجع المرء ويرنو الى السماء طويلا ، يراقب مولد النجوم ، وكل واحدة منها تفتح ابعادا جديده في السماوات . ان هذه الابعاد المتقهقرة تبدو وكانها ترفعك بخفة عن الارض ، فلا تعود تعرف ان كانت الارض قد تقلصت واضحت بقدر حجمه ، ام انه هو الذي تمدد بشكل عجيب حتى اصبح واحدا مع كل ما يحيط به . ويزداد السكون وتتكاثف الظلمة .

أنغام اكورديون بعيد ، وضحك امراة عابثة ، وضربات المهاميز على الرصيف ، وعويل كلب ما هي سوى الاوراق الاخيرة التي تتساقط من النهار الذي يموت ويذوب !

وفي بعض الاحايين ، ترتفع اصوات سكرى تتشاجر في الشوارع او في بعض الساحات هنا وهناك ، ثم تتردد ضربات خطوات تعدو سريعة متلاحقة ... أن مثل هذه الاصوات المألوفة جدا ، لا تسترعي أدنى انتباه على الاطلاق ، بيد انني كنت أسمعها لانني لم اكن اعرف بماذا الهو سوى بالانصات الحاد الى كل ما يطرا من اصوات غريبة .

وتستلقي جدتي مستيقظة لساعات لا نهاية لها ، وقد أراحت رأسها على ذراعها ، وانطلقت تروي شيئا باندفاع لذيذ ، لا مبالية فيما يبدو ان كنت أصغي لها أم لا ... وكانت تعرف دوما كيف تختار أسطورة تضيف على الليل سحرا وتزيده جمالا وروعة ...

كنت اغرق في النوم وانا اسمع الى كلامها الموزون ، ثم استيقظ وقد غمرت الشمس وجهي ، وملأت أذني اغاني العصافير وتغاريدها ... أن نسيم الصباح يتحرك بلطف تغمره حرارة الشمس بدفئها ، واشجار التفاح تنفض الندى عنها ، والعشب يسترد بهاء لونه الاخضر ، وسائر أصوات الوليد الجديد والوانه تتدفق في روحي كتدفق قطرات الندى ، تحيطني بسعادة هادئة وتغمرني رغبة في النهوض والسير ، والعيش بانسجام مع المخلوقات جميعا ...

كانت تلك اكثر مراحل حياتي سكينه وتأملا . ممــى ذلك الصيف نمــ
عندي شعور الثقة بقواي الخاصه . وبدأت اتحاشى الناس ، فلا تحدوني
الرغبة ، حين اسمع صراخ أولاد شارع أوفزيانيكوف وهتافهم ، في الانضمام
اليهم ، وبدلا من أن ابتهج عندما ياتون الى زيارتي ، اصبحت اخاف من ان
يعيثوا فسادا في حديقتي في منزلي . في ماواي ، وهــو اول ما صنعته يداي
في حياتي كلهــا ...

لم تعد أحاديث جدي تثير بي ادنى اهتمام ، خصوصا وقد اضحت اكثر
تطويلا وجفافا وشكوى ... وتضاعفت مشاجراته مع جدتي ، وصار يطردها
من البيت ، فتمضي حينئذ الى دار الخال ياكوف او الخال ميخائيل . وفي بعض
الاحيان ، كانت تغيب عن الدار اياما عديده ، فيضطر جدي الى اعداد الطعام
لنا بنفسه ، وهو يلعن ويسب ، ويحرق اصابعه ، ويكسر الصحون ، ويزداد
شراسة يوما بعد يــوم .

كان يتخذ مجلسا مريحا في بقعة معشوشبة هناك ، عندما كان يأتي لزيارتي
في زاويتي الخاصة في الحديقة ويروح يراقبني طويلا دون ان ينبس بكلمــة
واحدة ... ويسأل فجأة :

ــ لماذا لا تقول شيئا ؟

ــ لست أدري .

فيبدأ هو الحديث عندئذ ، وكأنه الاستاذ الذي يلقي درسا :

ــ نحن لسنا نبلاء كما تعهد ... ما كان هناك مــن علمنا شيئا على
الاطلاق ، فيجــب اذن أن نتعلم لوحدنــا . ان الكتب قد وجدت لغيرنــا
والمدارس قد بنيت لسوانا ــ ... فواجبنا ان نحصل كــل شيء من تلقــاء
انفسنا .

ثم يستغرق في تاملاته ــ صامتا دون حراك ــ حتى ليبعث الرعشــة في
قلب من ينظر اليــه ...

باع جدي الدار في ذلك الخريف ..

وقال ، ونحن جلوس الى مائدة الافطار ذات صباح قبل الربيع ، في
صوت كئيــب :

ـــ حسننا ، يا ماما ! لقد اطعمتك مدة طويلة فيما مضى : اما الان فقد انتهى كل شيء ـــ يحلو لي ان تكسبي خبزك بنفسك من الان فصاعدا .

أعارته جدتي أذنيها بهدوء تام ، وكأنها تتوقع منه مثل هذا الحديث .. وتناولت علبة سعوطها ، ودفعت قبضة منها في انفها ، وأجابت :

ـــ حسننا ، فليكن كما تريد ، فلا بد ان نتدبر أمرنا على خير وجه .

واستاجر جدي غرفتين مظلمتين صغيرتـــين في قبو منزل عتيق يقع في درب جد ضيقة ... وبينما نحن ننقل أمتعتنا ، تناولت جدتي حذاء عتيقا ذا أشرطة طويلة والقت به تحت الموقد ، ومن ثم جلست القرفصاء وراحت تغمغم قائلـــة :

ـــ تعال ايها العفريت ، تعال أيها العفريت ! أركب في هذا الحذاء وسر معنا الى الدار الجديدة حاملا لنا حظا سعيدا ...

واطل جدي ، وكان في الساحة الخارجية ، من خلال النافذه وزعق :

ـــ انك تاخذينه معك ، اليس كذلك ؟ فلسوف أدق عنقك ، أيتها الكافرة! كيف تجعلين مني مدعاة للسخرية في اعين الناس ؟

فحذرته بقولهـــا :

ـــ ايه ، يا ابتاه ! انتبه ، ذلك يعني حظا سيئا لنا ..

ولكن غضب جدي كان يفوق حدود التصور ، فمنعهـــا مـــن اصطحاب العفريت الى الدار الجديدة ...

وظل ، طوال ايام ثلاثة ، يبيع الاثاث لبعض التجار ، وهو يساوم زاعقا صارخا ويكيل الشتائم دون حساب ... وكانت جدتي تراقبهم من النافذة ، تتأثر تارة ، وتضحك تارة اخرى ، وهي تنادي في صوت منخفض :

ـــ هيا خذوا كل شيء ، حطموا كل شيء ، لا تبقوا على شيء ...

وكنت بدوري اغص بالعبرات ، كلما فكرت في زاويتي في الحديقة ..

لقد عشت ، يرافقني الاحساس بأن شيئا يحاول انتزاعي والقذف بي

بعيدا طوال السنتين التاليين ــ حتى وفاة أمي .. وسرعان ما جاءت هذه لزيارتنا بعد انتقالنا الى القبو . كانت شاحبــة اللون ، ضامرة القــوام ، وعيناها الكبيرتان تحترقان ببريق من الدهشه ... كانــت تتفحص كل شيء بانتباه مركز ، وكأنها ترى أباها وامها وتراني للمرة الاولى في حياتها ... راحت تنظر الينا صامتة ، بينما ظل زوجها يسير في الغرفة جيئة وذهابا ، وهو يصفر ، وقد شبك أصابعه وراء ظهره .

قالت والدتي ، وقد أخذت وجهي في راحتيها الدافئتين :

ــ يا للسماوات ، لكم نضجت !

وكانت ترتدي ثوبا عريضا ، بني اللون ، بدا لي بشعا وهو ينفتح فوق معدتها .. قال زوجها ، وهو يمد لي يده :

ــ مرحبا ! كيف حالك ؟

ونفخ بمنخريه ، وغمغم :

ــ ان الرطوبة شديدة ههنــا !

كانا يبدوان متعبين ، وسخين ، فكأنهما يركضان منذ فترة طويلة ، وكل امنيتهما ان يستلقيا ويستريحا .. وتناولنا الشاي في وجوم ، وجدي يراقب المطر طوال الوقت وهو ينهمر ويدلف الى الداخل من خلال شقوق المصاريع ، ثم سأل أخــيرا :

ــ وهكذا . فقد خسرتما كل شيء بسبب النار ؟

فأجاب زوج أمي بلهجة من يروي مغامرة حدثت له على حين بغتــة :

ــ كل شيء ! وما انقذنا انفسنا الا بصعوبة قاسية .

ــ ان النار لا تمزح في الحقيقــة .

واقتربت أمي من جدتي وهمست شيئا في اذنها ، ضيقت له هذه فتحة عينيها وكان نورا براقا قد انسحب عليهما بغتة وازداد وجومهما ...

قال جدي فجاة بصوت هادىء مرتفع :

ـــ لقد سمعت ، يا يفجيني فاسيليفيتش ، بعض الاشـاعات التي تقول انه لم يكن هناك نار على الاطلاق ؛ بل انك خسرت كل شيء في القمار .

فران صمت قاتل ، لا يعكره سوى قطرات المطر تقرع النافذة ...

قالت امـــي :

ـــ ابي ... لماذا ؟...

فزمجر جدي :

ـــ ابتاه ! ماذا ايضا ؟ الم اخبرك ان من الجنـــون ان يتزوج الجيـــل الثالث من الجيل الثاني ؟ حسنا ، اليك ما انتهيت اليه ـــ انه نموذج رائع ، اليس كذلك ؟ ولقد جعل منك نبيلة ، اليس كذلـــك ؟ حسنا ، كيـــف تجدين ذلـــك الان ؟

اندفع الجميع الى الكلام ، وكـــان صوت زوج امي يرتفع فوق جميع الاصوات ، خرجت الى المشى ، وجلست على كومة من الحطب مصعوقا .. هذه الافعى لا يمكن ان تكون امي ـــ انها تختلف عنها الاختلاف كله .. ادركت ذلك عندما كنت في الغرفة ، اما الان وقـــد جلست في الظلمة هنا ؛ فاني استطيع ان اتذكر بوضوح كيف كانت من قبل ... وانـــي لاجدني بعد هذا ـــ دون ان اذكر كيف تم ذلك ، في سورموفو ، في بيت جديـــد ، وكانت الشقوق بين قطع الاخشـاب محشوة بنبات اخضر يسكنها عددا لا يستهان به من الصراصير . وكانت امي وزوجها يعيشـان في غرفتين تواجهان الشـارع ، بينما اعيش وجدتي في المطبخ الذي تطل نافذته الوحيدة على السطح . وفيما وراء هذا السطح ، كانت المداخن السوداء تنتصب بشمـــوخ نحو السماء ، تنفث دخانا كثيفا مجعدا تنثره ريح الشتاء فوق الحي بأسره .. وكانت غرفنا غير المدفأة تعج ابدا برائحة ذلك الدخان بينما صفارة المعمـــل تعوي في كل صباح مثل ذئب مفترس .

كنت استطيع ، اذا ما وقفت على دكة صغيرة وتطلعت من خلال زجاج النافذة العلوي ، ان المح بوابات المعمل المضاءة وقد فتحـــت على مصاريعها لتلتهم العمال التهاما . وعند الظهيرة ، كان صوت الصفارة يعلو مرة اخرى، فتفتح البوابات السود على مصاريعها ، تكشف عن ثغرة عميقة يلفظ المعمل

منها نفس اولئك الناس الصغار ، فيتدفقون في جـداول سود على طـول الشـوارع ، تطردهم ريح بيضاء عن الدور المبعثرة ..

وفي الامسيات كان دخان أحمر اللون قاتمه يتوهج مرفرفا فوق المعمل، مضببا رؤوس المداخن ، باعثا في النفس شعورا فريدا من الرهبة . كانـت رؤية ذلك المشهد يوما بعد يوم اثقل من ان نطـاق ، فيفيض قلبي بكراهيـة وحقد مؤلمين ..

كانت جدتي تقوم بسائر اعمال البيت ، فتنهمـك منـذ الصباح حتى المساء في تحضير الطعام ، ومسح الارض ، وتقطيع الحطب ، حتى اذا هبط المساء سقطت متعبة أعياء وارهاقا . وفي بعض الاحيـان بعد تهيئة طعـام الغداء ، كانت تلبس معطفا قصيرا ثم تخرج الى البلدة وهي تقول :

ـ سأذهب لارى كيف يدبر ذلك الشيخ اموره اليومية .

ـ خذيني معـك .

ـ لسوف تبرد حتى الجمود ، الا تحس بهذه الريح المريعة !

وتقطع مسافة سبعة اميال الى البلدة على طرق ضيقة في حقول من الثلج ، بينما تجلس امي الحامل في الدار صفراء منتفخة ، ملتفة بشال رمادي مزركش من على طرفيه .. كنت اكره ذلـك الشال الذي يشوه جسدهـا الجميل المتين البنيان ، واكره تلك الزركشـة ايضا ، فأود ان أمزقها أربا أربا، كما كنت أكره البيت ، والمعمل ، والمنطقة بأسرها . وكانت والدتي تتجول في حذاء عالي الكعبين ، يهتز بطنها المنتفخ كلما سعلـت ، وعيناها الزرقاوان تلتمعان بغضب قاس ، أو تشخصان باكتئاب الى الجدران العارية ... وفي بعض الاحيان كانت تتطلع الى الشـارع ساعة كاملة ... كان هذا الشارع يشبه فكا سودت السنون بعض اسنانه وشوهتها ، بينما سقط القسم الاخر فاستبدلت بأخرى جديدة لكنها كبيرة جداً بالنسبة الى الفك .

قلت اسال :

ـ لماذا نعيش في هذا المكان ؟

فاجابـت :

ــ اواه ، لا تسأل !

أصبحت تقتصر في حديثها معي ،فلا تخاطبني الا كي تصدر امرا ، أو تطلب الي عملا مــا :

ــ اجلب لي هذا .خذ ذاك . اسرع الى المخزن ...

ونادرا ما كانت تسمح لي بالخروج لالعب ، لانني كنت أعود دوما وقد اعتدى علي رفاقي واشبعوني ضربا ... كان القتال اللذه الوحيدة التي بقيت لي ، فكنت استسلم اليه بكل اندفاع . وكانت أمي تضربني ضربا مبرحا عقابا لي ، فلا يؤثر في العقاب الا كي اضاعف من سخطي ، فاروح اقاتل في اليوم الثاني بوحشية اكثر مني في اليوم الاول ، فتضاعف امي بدورها من قسوة عقابي ... وأنذرتها مرة اني ساعض يدها واهرب اضــرب في الحقول ان عادت الى ضربي ، فدفعتني عنها في دهشة ، وراحت تــذرع ارض الغرفة بخطوانها ...

قالت ، وهي تلهــث :

ــ يا لك من متوحش صغير !

وكان زوج والدتي قاسيا جدا علي . قليل الكلام مع أ مــي . كان أبدا يصفر ويسعل ويقف مقابل المرآة ينقر على أسنانه المعوجة . ولقــد أصبح يتشاجر مع أمي أكثر فأكثر ، ينعتها بعبارات شائنة قاسية تثير نقمة في أعماق قلبي . وفي كل مرة يتشاجر واياها ، كان يغلق الباب المؤدي الى المطبخ حتى لا اسمع اقواله ، ولكن اصداء صوته الجاف كانت تبلغني وتصفــع آذانــي بالرغم من كل احتياطاته ...

ضرب الارض بقدمه مرة ، وصاح مزمجرا :

ــ انا لا استطيع ان ادعو احدا الى الدار بسبب انتفاخ بطنــك ، أيتها البقرة الشمطــاء !

طغت علي دهشة عظيمة وغضب لا مثيل لــه ، فقفزت بعنــف حتى اصطدم رأسي بالسقف بقوة ، وعضضت لساني حتى آذيته ...

وفي ايام السبت ، كان عدد كبير من العمال يأتون اليه يبيعونه بطاقات

الطعام الذي نمكنهم من شراء الحاجيات من مخزن الشركة ... كان المعمل يوزع هذه البطاقات عوضا عن الاجور فيبتاعها زوج امي بنصف ثمنها . وكان يستقبل العمال في المطبخ ، فيجلس الى الطاولة وعلى وجهه سيماء التكبر، ويروح يتطلع في كل بطاقة مقطب الحاجبين :

ـــ روبل ونصف الروبل .

ولم نطل هذه الحياة السوداء المضطربة ، فقد ارسلوني قبل ان تلد أمي لاعيش مع جدي ...

كان يقطن منزلا جديدا مؤلفا من طابقين في شارع بيسشانانيا في كونافينو فوق مقبرة كنيسة نابولنايا . وكانت الغرفة التي يشغلها تطل على الساحة بنافذتين عريضتين .

ضحك حين رآني ، راح يرسل كلاما عاليا حادا متقطعا :

ـــ حسنا ! ان المثل يقول : « خير رفيق لك هو امك ... » . ولكن في هذه الحال يبدو ان افضل رفاقك هو جدك ، الشيخ ! يا لهم من قوم !

وما كدت استقر في المنزل الجديد حتى اتت اليه امي وجدتي بالوليد الجديد . اما زوج امي فقد خسر عمله في المعمل لاحتياله على العمال ، ولكنه استغاث بأصدقائه، وسرعان ما استلمعملا جديدا بوظيفةمحاسب في محطةللسكك الحديدية ...

ومرت أيام طويلة قبل ان ارسل ، مرة اخرى ، لاعيش مع امي في قبو ضيق يقع تحت منزل حجري ... ارسلتني امي فورا الى المدرسة ، ولكني بغضتهما هي والمدرسة منذ اليوم الاول ... ظهرت فيها ، للمرة الاولى ، لابسا حذاء من أحذية امي ، ومرتديا معطفا فصل من احد قمصان جدتي ، وقميصا أصفر اللون ، وبنطالا طويلا ... وطبيعي أن أكون مدعاة للسخرية بمثل هذا اللباس ، لكنني تفاهمت بسرعة مع زملائي ولكن الكاهن والاستاذ نفرا مني .

كان الاستاذ أصلع الراس ، اصفر الوجه ، يدخل قاعة الدرس وقد حشا منخريه بالقطن ويتخذ مكانه الى الطاولة ، ويطرح علينا الاسئلة في صوت أجش ، ثم يقف فيمنتصف الكلمة ليسحب القطن من أنفه ويتفحصه

وهو يهز راسه .. كان له وجه مسطح ، نحاسي اللون ، يبدو ان انعكاسات زرقاء مخضرة تتلاعب على صفحته . اما عيناه الصغيرتان ، وهما أكثر ما في وجهه شناعة ، فكان يخيل الي انهما محشورتان حشرا في راسه حيث لا مكان لهما على الاطلاق .

جلست طوال الايام الاولى في المقعد الامامي ، تماما تحت أنف الاستاذ، حتى لاخال انه لا يرى احدا سواي ، وانه لا يفتأ يرسل الي الملاحظة تلو الاخرى كأن يقول من خلال اسنانه :

ــ بشكو .. و . ف ! كفى هذرا ! بشكو .. و . ف ! كفى مراوغة ! بشكو .. و .. ف ! لقد ترك حذاؤك ، مرة اخرى ، بعض الوحل على الارض !

كان ذلك اكثر من ان استطيع احتماله ؛ ولكنني كنت انتقم لنفسي باستنباط اكثر الالاعيب تطرفا .. وفي ذات يوم ، حشوت بنصف بطيخة متجلدة ، وافرغت محتوياتها ، ومن ثم علقتها في مقبض الباب في الممر المظلم. وعندما فتح الباب ، طارت البطيخة في الهواء ، وعندما اغلقه الاستاذ سقطت القمة على راسه الاصلع .. وقادني الحارس الليلي الى الدار مع ورقة تأنيب من الاستاذ ، وكان نصيبي الجلد عقابا على تلك الاساءة ...

و في مرة اخرى ، نثرت السعوط في جراره ، فأخذته نوبة من التعطيس اجبرته على مغادرة قاعة الدرس التي بعث اليها بصهره الضابط كي ينوب عنه .. وطلب منا الضابط ان ننشد « يا الله انقذ القيصر » و « آه يا حريتي المباركة » مرات عديدة .. وكلما اخطأ احدنا في اللحن ضربه على راسه بمسطرة معدنية كانت تحدث ضجة جوفاء تبعث على الضحك ، وان لم تكن تؤلم ابدا .

اما استاذ الدين فكان كاهنا انيقا في شرخ الشباب ، كث الشعر اجعده ، ابغضني لاني لا املك نسخة من « العهدين القديم والجديد » ولاني اقلد طريقته في الحديث ايضا ...

كان يقول ، عند دخوله قاعة الدرس مباشرة :

ــ بشكوف ، هل اشتريت الكتاب ام لا ؟

ـــ كلا ، لم افعل . نعم ! . .

ـــ وماذا تعني بنعـــم ؟

ـــ كـــلا !

ـــ هيا الى البيت ! نعم ، الى البيت ! فلست ارغب في تعليمك . نعم، لا ارغب ابـــدا !

وما كنت اعترض ابدا على مغادرة المدرسة . فكنت اركض في طرقات الضاجبة القذره اتأمل الحياة الصاخبة من حولي حتى يحين موعد الانصراف من المدرسة .

كان للكاهن وجه رائع كوجه المسيح ، وعينان جميلتان كاعين النساء . . وكانت له يدان صغيرتان ، يخال الى انهما تلاطفان كل شيء تلمسانه ، اكان ذلك الشيء كتابا ، أم مسطرة ، أم ريشة . كان يبدو وكانه يحب كل شيء تقع عليه عيناه ، فينظر اليه على اعتباره شيئا حيا يمكن ان يؤذيه كل احتكاك عنيف . وكان الاطفال مولعين به بالرغم من انه لم كن يعطف عليهم بشكل ظاهر . . . ومع ان علاماتي كانت مرضية للغاية ، فما اسرع ما انذرت بانني سأطرد من المدرسة بسبب سلوكي . اقلقني ذلك جدا ، فمما لا ريب فيه ان نتائجه ستكون صارمة قاسية ما دامت امي تزداد عنفا يوما بعـــد يوم ، وتضاعف من جلدي اكثر فاكثر .

ولكن خلاصي من تلك الكارثة تحقـــق على غير انتظـــــار ، فقد زار مدرستنا ، بغتة ، الاسقف . وكان ، على ما اذكـــر ، أحدب الظهـــر . . . وامتلأت قاعة الدرس بجو غير معهود من الحركة والانطلاق عندما دخل ذلك الرجل الصغير مرتديـــا ثوبا فضفاضـــا أسود اللون ، واخـــذ مجلسه الى الطاولـــة . .

قال ، وهو يخرج يديه من كميه الواسعين :

ـــ حسنا ! هلا تحدثنا قليلا ، يا أطفالـــي ؟

وجاء دوري للمثول امام طاولته . . . سألني :

ـــ كم سنة لك من العمر ؟ حقا ؟ يا الله ! يا لك من فتى طويل بالنسبة الى سنك ! لا ريب انك وقفت كثيرا تحت الأمطار !

والقى احدى يديه الصغيرتين الطويلة الاظافر على الطاولة ، بينما امسك باليد الاخرى لحيته الصغيرة ، وهو يحملق في بلطف :

ــ حسنا ، ارو لي اية قصة نحبها من التاريخ الديني .

وعندما اجبته بانني لا املك كتابا ، ومن ثم لا استطيع حفظ دروس الدين ، اصلح من وضع قلنسوته وقال :

ــ كيف ذلك ؟ يجب عليك ان تدرس دروس الدين . الم تسمع بعض القصص في مكان ما ؟ هل تعرف المزامير ؟ حسنا ! والصلوات ؟ والان ، لعلك تعرف حياة بعض القديسين ؟ حسنا ، يبدو انك فتى مثقف اذن !

ودخل كاهننا ، محمر اللون ، وهو يلهث ... وبعد ان باركه الاسقف طفق يحدثه عني .. فقال الاسقف ، وهو يقاطعه باشارة من يده :

ــ انتظر لحظة !

ثم استدار الي ثانية :

ــ حسنا ، لنفرض انك اخبرتنا عن الكسي ، رجل الله ...

وعندما توقفت عن تلاوة الشعر لنسياني بعضه ، قال :

ــ شعر رائع ، اليس كذلك يا بني ؟ عساك تعرف شيئا اخر ــ عن الملك داوود ؟ رائع ! لسوف اكون سعيدا جدا بالاصغاء اليك ...

واستطعت ان الحظ بنفسي انه سعيد جدا بالاصغاء ، وانه مولع بالشعر .. وتركني اتلو الكثير منه قبل ان يقاطعني :

ــ هل تعلمت حرف الهجاء من المزامير ؟ من علمك ؟ جدك الطيب ؟ جدك « الشرير » ؟ حسنا ، انك لا تعني ذلك . ولكنهم اخبروني انك ابدا تسبب بعض الشغب ...

فتضرجت وجنتاي ، ولكني اعترفت بخطيئتي .. واثبت الكاهن والاستاذ هذه الحقيقة الى حد بعيد . فاستمع الاسقف اليهما مطرقا بعض الوقت وقال اخيرا :

ـــ اتسمع ما يقولان عنك ؟تعال الى هنا !

ووضع يدا تنوح منها رائحة البخور على راسي ، وقال :

ـــ ما الذي يجعلك بمثل هذه الشقاوة ؟.

ـــ ان المدرسة تبعث على الملل .

ـــ تبعث على الملل ؟ في هذا بعض الخطأ ، يا ابني ! فأنت اذا وجدت المدرسة باعثة على الملل ستكون تلميذا كسولا ، ولكن علاماتــك تشهد ضد ذلك . يجب ان يكون هناك شيء اخر بضايقك .

واخرج من جبته كتابا صغيرا وكتــب :

ـــ بشكوف ، الكسي . يحسن جدا لو عدلت عن شيطنتك ، قليل من الشغب لا بأس به ، ولكن الناس لا يتحملون كثيرا منه ، كما تعلــم ! الست على حق ، ايها الصغار ؟

فردت عليه جوقة من الاصوات بصوت عال :

ـــ بلى ، انك على حق !

ـــ وماذا عنكم ؟ اظن انكم لا تسببون الا قليلا جدا من الشغب ، اليس كذلـــك ؟

فضحك الاولاد :

ـــ اوه ، كلا ، بل كثيرا !

وقال في نغمة تعجب ودهشة ، اطلقت عاصفة مـــن الضحك اشترك فيها حتى الكاهن والاستاذ ايضا :

ـــ ما اغرب ذلك ! لقد كنت بدوري مشاغبا كبيرا عندما كنت في مثـــل عمركم ! ما الذي يجعلنا هكذا في رايكم ؟

ضحك الاولاد ، وهو يتابع اسئلته ، الامر الذي زادني مرحا وابتهاجا . ولكنه نهض اخيرا ، وقال :

ـ من المؤسف ان اغادركم ، ايها الخبثاء ، ولكن ساعة رحيلي قد دنت.

ورفع ذراعه ، ودفع الى الوراء كمه العريض ، ورسم اشارة الصليب قائـــلا :

ـ فليمد الله في حياتكم ، ويهدكم سواء السبيل ، باسم الاب والابــن والروح القدس . وداعا !

فصاح الاولاد :

ـ وداعا ، يا صاحب القداسة ! عد الينا سريعا !

ـ سأعود ، سأعود سريعا ! وسأحمل لكم بعض الكتب .

ثم استدار الى الاستاذ :

ـ فليمضوا الان الى منازلهم .

واعترض سبيلي في المشى ، وقال في صوت خفيض :

ـ عدني الا تسبب اية متاعب في المستقبل ، اتعـد ؟ انا افهم لـــماذا تفعل ذلك طبعا ! حسنا ، الى اللقاء !

كنت شديد الانفعال ، يشتعل في صدري احساس غريب ، حتى انـــى اصغيت بانتباه وطيبة خاطر الى الاستاذ الذي استبقاني بعد انتهـــاء الدرس وطفق يكرر لي ان من واجبي بعد الان ان اكون كالحمل وداعة ولطفا .

وخاطبني الكاهن ، وهو يرتدي معطفه :

ـ ومن الان فصاعدا يجب ان تواظب على دروسي . نعـــم ، هذا ما يجب ان تفعل . . . ولكن ، اهدأ ! نعم ، ابق هادئا !

تحسنت الامور في المدرسة ، ولكن حادثا وقع لى في البيت بعث في الجو نفورا واشمئزازا . . فقد سرقت روبلا من امى ، دون ان اقصد هذه الجريمة او اتعمدهـــا . . .

خرجت امي ذات مساء الى مكان مـــا ، وتركتني وحيـــدا مع الطفـــل الرضيع ، فتناولت كتابا ، أحد كتب زوج أمي ــ « ملاحظات طبيب » لاني

لم اجد شيئا افعله افضل من ذلك . وقد وجدت بين صفحـــات ذلك الكتاب ورقة من فئة الروبل الواحد ، واخرى من فئة العشر روبلات . واغلق على فهم الكتاب ، ولكنني عندما اطبقته راودتني فكرة السرقة فجاة باني استطيع بذلك الروبل ان اشتري ليس « تاريخ الدين » فحسب ، بل و « روبنسون كروزو » ايضا .

كان عدد اخر من الطلاب قد قراوا روبنسون كروزو ، فراحوا جميعـــا يمتدحون ذلك الكتاب . وعزمت ان احصل على روبنسون كروزو حتى استطيع ان اقول ، بعد قراءته ، انه رديء لا ينفع شيئا .

وجئت المدرسة في الغداة احمل « تاريخ الدين » ومجلدين صغيرين من قصص اندرسون الخرافية ، وقليلا من الخبز الابيض ، واوقية واحـــدة من اللحم المقدد . ولقد عثرت ، في المكتبة الصغيرة المظلمة القائمـــة في الزاوية القريبة من كنيسة فلادبمير ، على نسخة من روبنسون كروزو ـــ كـــان كتابـــا صغيرا أصفر الغلاف ، ووجدت في الصفحة التي تحمل العنوان صورة رجل ملتح قد وضع قبعة من الفرو على راسه ، والقى معطفا من جلد النمر على كتفيه . لم يستهوني ذلك ، بل فضلت عليه اقاصيص الجنيات التي فتنتني .

واقتسمت ، اثناء الفرصة ، الخبز واللحم مـــع الاولاد ، ورحنا نقرأ معا قصة « العندليب » التي ادهشتنا واستحـــوذت على قلوبنا منذ بـــدء الصفحة الاولى :

« ان سائر الناس في الصين صينيون ، وحتى الامبراطور نفسه صيني أيضـــا . . . »

وما برحت اذكر كيف ابهجتني هذه الجملـــة ببساطتها ، وموسيقاهـــا الباسمة ، ولست ادري اي شيء اخر فيها كان رائعا .

ولم اجد الوقت الكافي كي انتهي من قراءة « العندليب » في المدرسة ، وعندما عدت الى البيت سالتني امي في صوت مغتصب ، وهـــي تقلي بعض السمك :

ـــ هل اخذت روبـــلا ؟

ـــ نعم ، وها هي ذي الكتب . . .

فضربتني بعنف بالمقلاة ، واغتصبت مني القصص ، واخفتها عني للابد ... كان هذا العقاب اشد ايلاما من الجلد بما لا يقاس .

وانقطعت عن المدرسة أياما عديدة ... ومما لا ريب فيه ان زوج أمي اطلع الناس في المعمل على فعلتي ، فرووها بدورهم لاولادهم الذين حملوا القصة الى المدرسة التي استقبلتني — عندما عدت اليها — بلقب جديد ؛ الا وهو « الحرامي » ... كان اللقب وجيزا ، واضحاً ، ولكنه خاطىء .. ولم اجرب ان اخفي حقيقة سرقتي للروبل . ولكنني ، عندما حاولت ايضاح ذلك، لم يصدقني احد ... وهكذا رجعت الى البيت واخبرت امي انني لن اعود الى المدرسة ثانيـة ..

كانت حاملا ، مرة اخرى ، تجلس الى النافذة تعلم اخـي ساشا ، فادارت وجهها نحوي ونظرت الى بعينـين مذعورتـين وقد فتحت فمهـا دهشة ...

قالت في صوت اجوف :

— انت تكذب ، اذ لا يمكن ان يعرف انسان انك سرقت الروبل .

— ما عليك اذن الا ان تستفهمي .

— لا ريب انك انت الذي اخبرتهم بالامر اذن ؟ اصدقني الحقيقة — الم تخبرهم ؟ ولكن ، لا تكذب ، — سأذهب غدا الى المدرسة لاتحقق من الامر .

فاخبرتها ، باسم التلميذ ، واذا وجهها ينقبض الما ، والدمـوع تسيل عليـه بغزارة ...

ذهبت الى المطبخ ، وتمددت خلف الموقد على الفراش الذي صنع لي من بعض اخشاب الصناديق . وكنت استطيـع ان اسمع امي تبكـي في الغرفة المجاورة وهي تتأوه ، وتتفوه ببعض كلمات غير مفهومة .

لم اعد استطيع ان اطيق الرائحة التي تبعثها الاسماك القذرة ، فخرجت الى الساحة .

نادتني امـي :

الى اين ؟ تعال الـي !

جلسنا معا على الارض ، وساشا يقتعد ركبتيها يشد أزرار ثوبها ، وينحني عليها .. والتصقت بأمي ، فلفتني بذراعها . قالت :

ـــ اننا فقراء معدمون . فكل كوبيك ـــ كل كوبيك واحد ...

وضغطت علي بذراعيها الدافئتين عاجزة فيما يبدو عـــن التصريح بما تريد أن تقـــول ...

وزمجرت فجأة ، وهي تراجع كلمة كانت تتفوه بها كثيرا من قبل :

ـــ اواه ، يا للوحش ، يا للوحش !

كان ساشا طفلا غريبا ـــ ضخم الراس ، هـــادىء الطباع ، ذا عينـــين زرقاوين ساحرتين تضحكان دوما ، بدأ يتكلم في سن مبكرة غـــير عادية . ولم يكن يبكي ابدا ، بل يعيش على الدوام في حال من الفرح المستمر . وكان اضعف بنية من ان يقبل على الزحف بيسر ، ولكنه كان يبتهج كثيرا عندمـــا يراني ، فيمد ذراعيه الصغيرين ، ويروح يلعب بأذني باصابعه الناعمة التي تفوح منها رائحة البنفسج . ولقد مات على غير انتظـــار ، دون ان يمرض ابدا . كان سعيدا كل السعادة في الصباح كعهده ... ولكنه ،عندما يهبط المساء ، واصوات اجراس الكنيسة تدعو النـــاس الى صلاة الغـــروب ، كان يضطجع علـــى الطاولة دون حراك ، ولقد حدث ذلك بعد ولادة الطفل الثانـــي نيقولاي بفترة قصيرة .

وقد دبرت امي الامور في المدرسة ، فعدت اتابع الدروس كالمعتـــاد . ولكني عدت أعيش ، مرة اخرى ، مع جدي للسبب التالي ...

ذات يوم ، بينما كنت ادخل الى المطبخ ، سمعت امي تصيح بيأس :

ـــ يفجبني ، يفجيني ، لا تذهب ، اتوسل اليك !

فاجاب زوجهـــا :

ـــ هـــراء !

ـــ ولكني اعرف انك ذاهب اليهـــا !

ـــ حسنا ، وماذا في ذلـــك ؟

صمت كلاهما عدة لحظات ، ثم قالت امي بين نوبتين من السعال .

ـ يا لك من نذل خسيس !

وسمعته يضربها ، فعدوت داخل الغرفة كي أراها جاثية على ركبتيها ، تستند الى احد المقاعد بظهرها ، وراسها يتدلى الى الخلف ، وعيناها تبرقان بصورة غير معهودة بينما اسصب مكسيموف امامها ، مرتديا سترة جديدة ، يرفسها بساقه الطويل على صدرها ... والتقطت سكينا حادة مصبه المقبض ـ الشيء الوحيد الذي بقي لوالدتي من مخلفات أبي ـ وصوبتها الى خاصرته بكل ما بي من قوة .

ومن حسن الحظ ان والدتي استطاعت ان تدفعه عنها في الوقت المناسب ، فتفتت السكين المعطف وحده ، وجرحت الجلد جرحا طفيفا . فأطلق أنينا مزمجرا وخرج من الغرفة راكضا وقد امسك خاصرته .

اختطفتني أمي وقد ندت عنها صيحة حادة ، ثم طوحت بي على الارض . ولكن زوج امي انتزعني منها عندما قفل عائدا .

في ساعة متأخرة من مساء ذلك النهار ، عندما خرج بالرغم من كل شيء ، جاءتني أمي الى خلف الموقد ، وعانقتني بلطف وقبلتني :

ـ سامحني ، يا عزيزي . لقد اسأت اليك ! ولكن ، كيف يمكن ان تفعل مثل ذلك ؟ بسكين !

فاقسمت ، وانا ادرك تماما معنى كلماتي ، اني سأقتل زوج أمي ثم اقتل نفسي ايضا . واخال انني كنت فعلت ذلك ـ او حاولته على الاقل . وانا ما برحت ارى حتى اليوم تلك القدم المقيتة تتأرجح في الفضاء ، لترفس صدر امرأة ضعيفة ...

وعندما اذكر ، في بعض الاحيان ، تلك الحياة الروسية الهمجية اتساءل ان كانت تستحق ان يتحدث المرء عنها ... ولكني أقتنع بعد التفكير ان من الواجب ان اعرضها ، لانها تشكل الحقيقة الدنيئة التي لم تستأصل شأفتها حتى اليوم الحاضر .. انها تمثل حقيقة يجب معرفتها حتى أعمق جذورها ، كي ننتزعها بعد ذلك من حياتنا الملطخة بالعار .. ننتزعها من صميم نفس الانسان وذاكرته ... اجل ننتزعها من ذاكرة الجيل الطالع .

١٣

هأنذا مرة اخرى مع جدي ...

حياني ، وهو ينقر على الطاولة بعصبية :

ـــ حسنا ، انا لن اغذيك بعد اليوم . فلتتكفل جدتك بذلك .

فقالت جدتي :

ـــ سادبر ذلك ، لكأن هذا الامر عمل شاق !

ـــ حسنا ، خذيه في عهدتك اذن .

ولكنه أوضح لي الامور بعد ذلك بهدوء اعظم :

ـــ ان كل شيء ينقصنا ـــ كل يعني بنفسه وحدها ...

جلست جدتي الى النافذة تطرز ، فراحت بكرات خيطانها تتدحرج على الوسادة الملأى بالدبابيس النحاسية التي تلمع في اشعة شمس الربيع. كانت جدتي نفسها تلوح وكانها اناء من البرونز ، لم يتبدل فيها شيء ما على الاطلاق . لكن جدي اصبح اشد هزالا واكثر تغضنا تناقص شعره ، واستحالت رزانة حركاته اضطرابا مرتعشا ، واضحت عيناه الخضراوان ترنو الى كل شيء في ارتياب وتشكك . راحت جدتي تخبرني ، وهي تضحك ، عن اقتسام الاملاك بينها وبين جدي . لقد اعطاها جميع العلب ، والصحون ، الاحواض ، وقال :

ـــ كل هذا لك ،واياك ان تسأليني شيئا اخر !

ثم جمع سائر ثيابها القديمة وممتلكاتهـا ، بما فيهـا قبعة من جلـد الثعلب ، وباعها لقاء سبعمائة روبل ، اقرضهـا بالفائـدة ليهودي اعتنـق المسيحية يتاجر بالفواكه . لقد اصبح مريضا ، اهلكه الطمع ـ اصبح طماعـا بصورة مشينة ، فهو يزور معارفه القديمين ـ من تجار اغنياء ، ومهنيين ، عامل واياهم فيما مضى ـ ويسألهم بعض المال ، قائلا ان ابنيـه قاداه الى الخراب والتهلكة . ولقد قدموا له منحا سخية احتراما لمركـره السابق ، فكان يرجع الى البيت ويلوح ببعض اوراق النقد تحت انف جدتي وهو يسخر منها كطفل صغير :

ـ هل ترين هذه ، ايتها العجوز الحمقاء ؟ انك لن تجدي من يدفع لـك عشر هذا المبلغ فقط !

ثم اقرض جدي هذا المبلغ الجديد بالفائدة لشخص تعرف عليه حديثا ، تاجر فراء عملاق ، اصلع الراس ، ، ولاخته ، وهي صاحبة دكان سمينة ، حمراء الخدين ، سوداء العينين ، حلوة ورخوة في وقت واحد معاً .

كان اهل الدار يقتسمون كل شيء بصورة دقيقة : فاليـوم تهيء جدتي الغداء من مالها الخاص ، وفي الغد يشتري جدي الخبز والطعام ، وفي هذه الحال يكون الغذاء رديا على الاطلاق . كانت جدتي تبتاع لحما جيدا ، اما هو فيبتاع رئة الخروف او امعاءه . وكان كل منهما يحتفظ بشايـه وسكـره الخاصين ، ولكنهما يغليانه في الابريق نفسه . ويقول جدي مذعورا :

ـ مهلا ! كم وضعت فيه ؟

ويرجع اوراق الشاي ، ويعدها بعناية فائقة ثم يقول :

ـ ان الشاي الذي تبتاعينه ارق من الذي ابتاعه انا ـ ولكن اوراقي اكثر كثافة ، فهي تختمر بصورة افضل . وهكذا فعليك ان تضعي عددا اكبر من اوراقـك .

ويراقب جدتي ، وهي تصب لـه الشاي ، كي يـرى ان كانت حصته تساوي حصتها في الكثافة . كانا يشربان دوما عدداً متساويا من الاقداح .

وكانت جدتي تسأله :

ـ اتشرب القدح الاخير ؟

فيوافق جدي بعد ان يلقي نظره الى الابريق :

ــ حسنا ! انه القدح الاخير حقا !

لا بل ان كلا منهما كان يبتاع الزيت الضروري لقنديل الايقونة .

كنت اجد أعمال جدي مسلية ولكنها مقرفة ــ اما جدتي فتراها مسلية فقط . . . كانت تقول لي :

ــ لا تفكر في كل ذلك ! لقد كبر ، شاخ كثيرا ، فاصبح شاذ الطباع . لقد ناهز الثمانين ــ فكر فقط في هذا العدد الكبير من السنين ! فليصبح شاذ الطباع اذن ــ ذلك لن يؤذي احدا . أما انا وانت ــ فكن على ثقة من انني ساكسب دوما ما يدفع عنا غائلة الموت جوعا .

واصبحت اكسب ، بدوري ، بعض المال ، فما ان يشرق يوم الاحد حتى احمل كيسا على ظهري وأتجول في الشوارع والساحات اجمع العظام، والخرق ، والمسامير ، والاوراق . كانوا يدفعون لنا عشرين كوبيكا مقابل كل حزمة من الخرق والاوراق وقطع المعدن ، وثماني او عشر كوبيكات مقابل كل حزمة من العظام . ثم اصبحت أجمع هذه الاشياء من الطرقات بعد خروجي من المدرسة ، فاربح كل يوم سبت من ثلاثين حتى خمسين كوبيكا .

وكانت جدتي تأخذ المال مني : وتودعه جيب قميصها : وتطرف بعينها وهي تكافئني بكلمات المديح :

ــ شكرا ، ايها العصفور الصغير ! فلن نجوع ، لا انا ولا انت ، ابدا . . اليس كذلك ؟

وفي ذات يوم ، فاجئتها وهي تشخص الى قطع الخمس كوبيكات التي املكها وتبكي وقد علقت دمعة براقة عند نهاية انفها . .

ولكني وجدت ان ارباح المتاجرة بالخر ق اقل مما استطيع كسبه من سرقة الواح الخشب من متجرة تقع على ضفاف نهر الاوكا ، حيث تجري التجارة بالمعادن خلال السوق السنوي تحت خيمات مصنوعة من الخشب . وعندما كان ينتهي السوق كانت تلك الخيمات تفكك وتكدس الواحها فوق بعضها البعض وتبقى على أرض الجزيرة حتى صعود مياه النهر في الربيع . وكانوا يدفعون لنا عشر كوبيكات لقاء كل لوح جيد ، ونحن كنا نستطيع ان

نسرق لوحين او ثلاثة يوميا . ولكن عملية السرقة يجب ان تجري على اية حال في الايام الماطرة حتى يحتمي الحراس داخل الابواب .

كنت اعمل مع عصابة لطيفة من زملائي ، في عدادها سانكافيا الملقب بالحمامة ، وهو صبي في العاشرة من العمر ، كان ابنا لامراة متسولة من مردانيا ، هادىء الحركة أبدا ، مرح الطبيعة دائما . وكان هناك ايضا اليتيم كوستروما ، وهو صبي شديد النحول كثير العصبية ، واسع العينين السوداوين ... ولقد شنق نفسه فيما بعد ، عندما كان في الثالثة عشرة ، في اصلاحية للاحداث ارسل اليها لسرقته زوجا من الحمام . وكان هناك التتري خابي ، وهو شمشون في الثانية عشرة من العمر يجمع الى القوة الخارقة نفسا طيبة ساذجة . وكان هناك ياز ذو الانف الافطس ، وهو صبي يبلغ الثامنة من العمر ، صامتا أبدا ومصابا بـ « الداء الاسود » كان ابوه حفارا للقبور وحارسا للمقبرة في وقت واحد . وأخيرا كان هناك اكبر افراد عصابتنا ، وهو شخص اختصاصه في توجيه الاوامر يدعى ريشكا شوركا ، كانت امه أرملة تشتغل بالخياطة . وكنا جميعا نعيش في الشارع نفسه .

ولم تكن السرقة تعتبر جريمة في حينا ، بل كانت الوسيلة العادية ، والوحيدة تقريبا ، التي يستطيع بها اكثر البورجوازيين الصغار المتضورين جوعا ان يحصلوا على القوت . كانت الايام الخمسة والاربعون التي تقام خلالها السوق السنوية لا تكفي لتطعمهم طوال السنة بحيث كان عدد كبير يصطادون الواح الخشب وقطع الحطب التي يحملها المد معه ، أو ينقلون البضائع الخفيفة على عوامات صغيرة ... ولكنهم كانوا يعمدون الى السرقة في المحل الاول ... يسلبون الارصفة والقوارب وضفاف النهر وكل ما تناله أيديهم . وفي أيام الاحاد كان الكبار يتباهون بنجاحهم . أما الصغار فيستمعون اليهم ويتعلمون منهم الدروس الباهرة .

خلال الاسابيع المليئة بالعمل اثناء الربيع التي يجري فيها الاستعداد للسوق ، كان بعض العمال يملأون الشوارع بعد عمل النهار المضني . وعندئذ كان اولاد الحي ينطلقون في استكشاف الجيوب ، وهو عمل كان مشروعا في أعين الجميع يجري تحت انظار الكبار الذين يلاحظونه في لامبالاة .

اعلن شوركا ذات يوم :

ـــ اني لن أسرق بعد اليوم ، فأمي لا تسمح لي بذلك .

واضاف آخر :

ـــ وانا اخاف من ارتكاب اية سرقة .

كان كوستروما يحتقر اللصوص ويلفظ كلمة « اللص » وهو يشدد عليها بصورة غريبة ، فهو عندما يقع على بعض الصبية وهم يسلبون السكارى يطاردهم وينهال عليهم ضربا دون هوادة او رحمة . كان هذا الصبي الكئيب الواسع العينين يتصرف أبدا وكأنه احد الكبار . فيسير وهو يترنح مثل الحمالين ويجرب ان يجعل صوته عميقا قاسيا . والحقيقة ان شيئا مشدودا ، مسنا ، غير طبيعي ، كان يبدو في شخصه كله . أما الملقب بالحمامة فكان مقتنعا بان السرقة خطيئة لا تغتفر ..ولكن انتشال الواح الخشب والمواميد من جزيرة « الرمال » كان مسموحا به فلم يكن احد منا يخاف من ارتكابه ، بل اننا اخترعنا طرقا عديدة كانت تيسر علينا ذلك العمل كثيرا . كان اثنان منا ينطلقان اذا ما هبط المساء وخيم الظلام ، او في أيام الضباب الكثيف ايضا ، نحو الجزيرة فوق الجليد الموحل . كانا يذهبان بصورة ظاهرة ساعيين الى اجتذاب انتباه الحراس ، بينما ينطلق أربعتنا زحفا من جوانب مختلفة دون ان يشعر أحد بنا ، وبينما يعني الحراس بمراقبة الاخرين كنا نجتمع في المكان المعين ونختار الواحنا .. ومن ثم ، في حين يخدع رفيقانا الحراس ويهربان منهم ، كنا نحن ــ بكل هدوء ــ نختار طريق العودة . وكان كل منا يملك حبلا ينتهي في احد طرفيه مسمار ضخم منحن على شكل الكلاب كنا نربط اللوح لنجره بعد ذلك على الثلج والجليد . نادرا ما كان الحراس يروننا . فان فعلوا كانوا عاجزين عن الامساك بنا . ولدى بيع القيمة كنا نقسم الرصيد الى ست حصص متساوية ، وكان ثمن اللوح عادة يبلغ خمس او سبع كوبيكات .

كان هذا يكفي كي ناكل ما شئنا طوال يوم واحد ، ولكن أم رفيقنا الملقب بالحمامة كانت تجلده ان لم يجلب اليها شيئا من الفودكا معه . وكان كوستروما يوفر ارباحه كي يستطيع في المستقبل ان يحقق أحلامه في تربية الحمام . وكانت ام شوركا مريضة ، فهو اذن في امس الحاجة الى كل ما يستطيع ان يربحه من أجلها . اما خابي فكان يوفر المال ايضا كي يرجع الى المدينة التى جاء به منها عم لهغرق بعد وصوله الى المدينة .

ولسبب ما وجدنا فكرة المدينة مسلية مضحكة ، فكنا نهزأ بالتتري

ذي العينين المنحرفتين . وننشد له على الدوام حين نلتقيه :

« هناك مدينــة جد جميلــة ،

لكنــه لا يعــرف اين هــي

هنا أم هنــاك ، أم في الهواء »

وكان خابي يغضب منا في اول الامر ، ولكن الحمامة قال له يوما :

ــ دعك من هذا الان . من الذي سمع عن رفاق يغضبون من بعضهم؟

فخجل السري . وقبل التأنيب بطيبة خاطر . ومنذ ذلك الحين اصبــح ينشد وايانا تلك الاغنيــة .

ولكننا بقينا نفضل جمع الخر ق على سرقة الالواح . ولقد اصبح ذلك العمل مثيرا جدا للاهتمام في الربيع عندما ذابت الثلــوج وغسلت الامطــار الشوارع المرصوفة في السوق المهجور .. وكنا نستطيع دوما ان نجد فــي ارض السوق كميات كبيرة من المسامير وقطع المعــدن والخــرق ، وبصورة خاصة في مجاري المياه . وكثيرا ما كنا نعثر على بعض القطع النحاسية او الفضية ايضا . ولكن الحراس كانوا يلاحقوننا وينتزعون الاكياس منا اذا لم نعطهم كوبيكين في كل مرة ، وعلى العموم ، لم يكن كسب المال بالامر اليسير ، ولكننا اصبحنا افضل الاصدقاء في جهودنا المشتركة في سبيل الحصول عليه. وكان الخصام ينشب بيننا في بعض الاحايين ، ولكنني لا اتذكر اننا تقاتلنا مرة واحــدة .

كان الحمامة يلعب دور المصلح بيننا دوما . كان ابــدا يجد الكلمات المناسبة كي يهدىء من اعصابنا واحتياجنا .. كلمات بسيطة كانت ، بالرغم من كل شيء ، تدهشنا وتجعلنا نخجل من انفسنا . وكــان هو نفسه يبدو مدهوشا عندما يتفوه بها . لم يكن يستاء ابدا من الاعيب ياز الوضيعة ، بل يغض النظر بهدوء عن كل شيء تافه على اعتباره سخيفا عديم الجدوى . كان يسأل :

ــ لماذا اقدمت على فعل هذا الشيء ؟

فيتضح لكل واحد منا ان ذلك الفعل لم يكن له معنى حقا ...

وكان يسمي أمه « مرداميبي » . لكن احدا منا لم يكن يجد في ذالك ما يضحك . كان يضحك وعيناه الصغيرتان الذهبيا اللون تسمان ، وهو يحدثنا قائلا :

— في الليلة الماضية عادت مردافيني الى الدار مشربة خمرة مثل دجاجه مبتلة . وسقطت على عتبة الباب واضطجعت هناك تغني بملء عقيرتها . يا لها من دجاجة عجوز !

فيسأله شوركا جادا :

— وماذا تغني ؟

فيضرب رفيقنا على ركبتيه في توافق مع الموسيقى ، وهو ينشد اغنيه امه بصوت مرتفع رفيع :

« الراعي دق على بابي ..
فمشيت وحدي للغاب ..
والراعي ينشد للجارة
آه ما احلى مزماره ! »

كان يعرف عددا كبيرا من الاغاني المرحة فينشدنا اياها في حماسة واندفاع ، واسترسل يقول :

— نعم ! ولقد استغرقت في النوم هناك على العتبة ، والريح الباردة تدخل الى الغرفة بحرية تامة . وانا ارتجف واكاد اتجمد من البرد لاني لا استطيع ان اجرها الى الدار . لقد قلت لها هذا الصباح : « ماذا تتوخين من السكر هكذا ؟ » . فاجابت : « ما هم . جرب ان تتحمل ذلك بعض الوقت أيضا ، فاني سرعان ما سأموت ! » .
فاكد شوركا في خطورة :

— بكل تأكيد ! سوف لن تعيش طويلا ! افلا ترى كيف انتفخت ؟

سألت بدوري :

— هل ستأسف لذلك ؟

— بكل تاكيد ! لقد كانت اما طيبة لي .

وبالرغم من الحقيقة التى كنا جميعا نعرفها ، الا وهى ان الموردانية ضرب ابنها كثيرا ، فقد كنا على يقين من طيبة معدنها . ولقد كان شوركا تترح في الايام حيث تكون أرباحنا قليلة :

ـ فليعط كل منا كوبيكا واحدا كي نبتاع قليلا من الفودكـا لام زميلنا لحمامة ، كي لا تجلــده .

كنت وشوركا الوحيدين الذين نعرف القراءة والكتابة ، وكان الحمامة حسدنا على هذا ، وهو يشد على اذنه المدببة الشبيهة باذن الفار :

ـ عندما تموت موردافيتى سأذهب الى المدرسة ايضا . سوف ارجو لاستاذ واقبل قدميه كي يقبلني . ثم عندما انتهــي سأصبــح بستانيا عنــد لاسقف . وربما عند القيصر نفسه .

وفي ذلك الربيع ، قتلت الموردانية مع عجوز كان يجمع التبرعات لبناء كنيسة جديدة ، عندما سقطت عليها كومة من الاخشاب ونقلت المراة الى لمستشفى ، فقال شوركا للحمامة :

ـ تعال واسكن معنا . ولسوف تعلمك امى القراءة .

كان حبه الفائق للاشجار والاعشاب يدهشنا ويسلبنا ...

كان حينا رمليا فلا يجد المرء فيه الا قليلا من الخضرة ، الا بعض اشجار لصفصاف الهزيلة هنا وهناك فى ارض الباحات ، أو بعض فروع البيلسان لملتوية أحيانا . وقليل من العشب الجاف المختفى تحـت الاسوار . وعندما كان احدنا يجلس على هذا العشب ، كان الحمامة يوبخنا غاضبا :

ـ لماذا تفسدون العشب ؟ الا تستطيعون الجلوس على الرمل ؟ ذلك سواء لدبكـم ؟

وكنا نتردد في حضوره في اقتطاع غصن من البيلسان المزهر او غصن من الصفصاف المتفرع على ضفاف النهر . كان يقول لنا عندئذ، وهو يهـز كتفيه في ذهــول :

ـ لماذا تفسدون الاشياء دوما ، ايها الشياطين ؟

كان ذلك الذهول يخجلنـا ...

كنا نجمع ، طوال الاسبوع ، الاحذية العتيقة البالية من الطرقات استعدادا لرياضة أيام السبت ، حيث كنا نختبىء في المساء في احد الشوارع ننتظر ان يغادر الحمالون التتار الرصيف كي نرميهم بالاحذية . وكانوا في البدء يغضبون ، فيلعنوننا ويطاردوننا ، ولكن سرعان ما استهوتهم التسلية دورهم ، فكانوا يسلحون أنفسهم بالاحذية البالية ايضا استعدادا للمعركة القادمة ، لا بل كانوا يسرقون احيانا مخزننا بعد ان اكتشفوا المكان الذي نضع فيه الاحذية . ولكننا اعترضنا على ذلك ، فقلنا :

ـــ هذا ليس لعبا .

وعندئذ كانوا يقاسموننا السرقة ، ثم تبدأ المعركة . وكانوا يتخذون بالاحذية البالية . وكانوا يصرخون بدورهم وينفجرون ضاحكين كلما دفن أحدنا انفه في الرمل وقد اصابته قذيفة .

كان اللعب يستمر احيانا حتى حلول الظلام . وكان بعض البورجوازيين الصغار يتفرجون علينا محتمين بأحد المنعطفات ، وهم يحتجون على اقلاق راحة الناس . ولكن الاحذية كانت لا تنقطع عن الطيران في الهواء اشبه ما تكون بعصافير رمادية مغبرة . وكان احدنا احيانا ينال صفعة قاسية ؛ ولكن لذة القتال تعوضه عن كل الم .

وكان التتار يجاروننا في حماستنا ، فاذا انتهى القتال كنا نرافقهم احيانا حتى البيت حيث كانوا يقدمون لنا صحونا من لحم الخيل مع نوع خاص من الخضار المطبوخة . ويقدمون لنا بعده شايا كثيفا ونوعا من اللوز . كنا مغرمين جدا بهؤلاء الرجال العمالقة الذين يبدو كل منهم أقوى من الاخر ، فقد كان فيهم شيء طفولي وطبيعي ... وقد تأثرت خاصة عندما وجدتهم لا يستاؤون أبدا من بعضهم ، بل هم يتعاملون بلطف واحترام دائما .

كان جميع التتريين يضحكون كثيرا ... يضحكون حتى تسيل الدموع على وجناتهم . وكان أحدهم مخطم الانف ، خرافي القوة ، لقد حمل ذات يوم جرس كنيسة يزن قنطارين من أحد المراكب حتى ضفاف النهر يزمجر عندما يضحك ولا ينقطع عن الصياح والتفوه بما لا نتمكن من فهمه .

وفي ذات يوم ، حمل الحمامة على راحة يده ورفعه عاليا في الواء ، وقال :

ـــ اذهب وعش هناك في السماء !

وفي الايام الماطرة كنا نجتمع في البيت الصغير في المقبرة حيث يعيش ياز مع والده . كان ابوه هذا رجلا طويل الذراعين ، نغطى جمجمته ووجهه خصل من شعره القذر . كان رأسه يشبه راسا من اللباد يقوم على عنقه المتعظم الهزيل .كان يضيق عينيه الصفراوين بصورة مبهجة ، ويغمغم بسرعة:

ـــ فليحفظنا الله من الليالى المؤرقة .

وابتعنا شيئا من الشاي وبعض السكر والخبز وقليلا من الفودكا لوالد ياز ... وكان شوركا يعطي التعليمات باستمرار :

ـــ انتبهوا وافتحوا أعينكم جيدا . بعد غد ستقام في دار آل تروسوف وليمة احتفالية احياء لذكرى احدهم . ولسوف تكون هناك كميات كبيرة من العظام .

فيقول شوركا ، ولديه الخبر اليقين دائما :

ـــ ان طباخة آل تروسوف تحتفظ بالعظام لنفسها على الدوام !

ويقول الحمامة متأملا :

ـــ سرعان ما سيصبح الطقس جيدا فنستطيع الخروج الى الغابات .

كان ياز نادرا ما يتكلم ، بل هو يراقبنا في سكون بعينيه الكئيبتين .

ويهيىء والده المائدة ، فيضع عليها اقداحا مختلفة الاشكال ، ثم يحمل اليها المصباح . ويصب جوسروما الشاي ، بينما يحتسي العجوز حصته من الفودكا ، ويتسلق على الموقد يتطلع بنا من عل بعينين كعيني البوم ، وهو يغمغم :

ـــ الا فلتحل اللعنة عليكم ! انتم كائنات بشرية ، أم ماذا ؟ عصبة ! حزمة من اللصوص ، فليحفظنا الله من الليالى المؤرقة .

ويقول الحمامة :

ـــ ولكننا لسنا لصوصا !

ـــ لصوص صغار اذن ؟

وعندما يرهق والد ياز اعصابنا ، كان شوركا يصيح به في قسوة :

ـــ اخرس ، ايها الموجيك اللئيم !

كنا لا نطيقه ولا نطيق الاستماع اليه وهو يعدد مرضى الحي ، ويتساءل عمن سيموت منهم قبل الاخر . كان يخال لنا انه يمتص شفتيه في انتظار ذلك الحادث دون ان تعرف الشفقة طريقا الى قلبه ، وعندما يرى أن اقاصيصه تضايقنا كان يتعمد ازعاجنا ، فيروح يسخر منا .

ـــ انكم تخافون ، ايتها الحشرات الصغيرة ! ان هناك رجلا كبيرا سمينا سوف يموت عما قريب .

ونحاول اسكاته ، ولكنه يسترسل قائلا :

ـــ ولسوف ياتي دوركم عما قريب ؛ فلا تنتظروا ان تعيشوا طويلا فوق هذه الاكداس من الاقذار حيث تعيشون .

فيقول الحمامـــة :

ـــ حسنا ، سوف نموت . ولسوف نصبح ملائكة .

فيقول والد ياز مدهوشا :

ـــ أنتم ؟ ملائكة ؟

ومن ثم ينفجر ضاحكا ، ويعود فيعذبنا بأقاصيصه المقيتة عـــن الموتى والجثـــث :

ـــ اسمعوا ، ايها الفتيان ! لقد دفنوا بالامس سيدة ذات قصة عجيبة . ولقد اكتشفت كل شيء عنها ، ما رأيكم في ذلـــك ؟

كان كثيرا ما يتكلم عن النساء وبصورة بذيئة دوما . ولكـــن شيئا من الشك او التساؤل كان يتسرب الى اقاصيصه ، وكانه يتوجه الينا كي نساعده على فهم ذلك جيدا . وكنا نصغي اليه بانتباه ، وهو يتحدث فيقطع حديثـــه كثيرا كي يطرح علينا الاسئلة . ولكن ما يقوله كان يترك دومـــا اشياء مثيرة في ذاكرتنـــا .

كان يعرف قصة حياة كل من دفنهم في أرض تلك المقبرة المهجورة .
وعندما كان يتحدث ، فكأنه كان يفتح أمامنا ابواب المنازل المحبطة بنا فندخل اليها ونشاهد حياة سكانها ، ونحس شيئا رهيبا خطيرا في هـذا العمل . وكان يبدو قادرا على الحديث طوال الليل ، ولكن شوركا كان يهب واقفـا عندما يقترب الظلام من النوافذ ، ويقول :

ــ اني ذاهب الى الدار ــ فلسوف تقلق امي . من يرافقني ؟

ونرافقه جميعا ... فيصحبنا ياز حتى السور .

فنرد السلام عليه منزعجين من تركنا اياه في المقبرة . وفي ذات مساء، تطلع كوستروما الى الخلف ، وقال :

ــ سوف نستيقظ ذات صباح فنجده ميتا .

كان شوركا غالبا ما يدعى ان ياز يعيش حياة اسوأ من حياتنا جميعا ، فيعترض الحمامة عليـه :

ــ نحن لا نعيش بصورة سيئة ابدا .

وكنت أوافقه على ذلك . كنت اتمتع بحياة الشوارع المستقلة كما كنت مولعا برفاقي ، تملأني صحبتنا بشعور عظيم جديد يوحي الى الرغبة الدائمة في مساعدتهم جميعـا ...

وعدت الاقي المصاعب في المدرسة ، فطفق التلامذة يلقبونني بالشحاذ وجامع الخرق ، ثم أعلنوا للاستاذ بعد شجار نشب بيننا ان رائحـة منتنة تفوح مني بشدة حتى يستحيل الجلوس الى جانبي . وما زلت أتذكر كم آلمني ذلك الافتراء ، وكم صعب علي ان أعود الى المدرسة بعـد ذلك . كانـت الشكوى افتراء حقيرا لاني كنت دائما اغتسل بعناية فائقة كل صباح ، ولا اروح الى المدرسة ابدا في ذات الثياب التي ارتديها عند جمع الخرق .

وأخيرا ، اجتزت امتحانات الصف الثالث بنجاح كوفئـت عليه بشهادة شرفية وهدية التوراة ، وكتاب خرافات كريلوف ، وكتـابا آخر يحمل عنوانا غامضا « فاتا مورجانا » . وعندما حملـت هذه الهدايا الى الدار ، تأثر جدي كثيرا بهـا ، وشعر بفرح عظيم فاعلـن ان من واجبنـا الاحتفاظ

بالكتب في حرز امين ، وانه في سبيل ذلك سيحفظها في دولابه . وكانت جدتي تلازم السرير لمرض الم بها منذ أيام ، بينما جدي يزمجرفي وجهها ابدا ويعوي :

ـــ لسوف تخربين بيتي ! فتأكلين وتشربين على حسابي . . .

وهكذا اخذت الكتب الى أحد الباعةفاشتراها مني بخمسةوعشرين كوبيكا عدت بها الى جدتي .

وعندما انتهت المدرسة، عدت الى حياة الشوارع التيامست مع قدوم الربيع اكثر سحرا وروعة . . . واصبحنا الان نكسب كمية اكبر من المال ، وفي أيام الاحاد نذهب جميعا الى الحقول والغابات ، وقد زادت أواصر الصداقة فيما بيننا .

غير انهذه الحياة لم تطلكثيرا، اذ ما لبثزوج امي ان فقد عمله فغادرنامرة اخرى الى مكان ما ، فجاءت امي واخي الصغير نيقولاي ليقيما مع جدي . ولما كانت جدتي قد ذهبت للاقامة في دار تاجر ثري كانت تطرز له غطاء لجسد المسيح ، فقد كان علي أن أعني بتمريض اخي الصغير .

كانت امي الساكتة دوما تكاد لا تجد القوة لرفع قدميها عن الارض ، بينما أصيب اخي بقروح في مرسغقيه ، شديد الضعف حتى ليعجز عن البكاء ، فان جاع راح يئن بصورة مستمرة ، وان لم يكن جائعا فهو يغفو ويصعد زفرات متقطعة .

قال جدي ذات يوم ، بعد ان تفحص الرضيع طويلا :

ـــ ان ما يحتاج اليه هو الغذاء الحسن ! ولكن من أين لي كي أطعمكم جميعا !

فاجابت امي ، وهي تتنهد :

ـــ انه لا يحتاج الى شيء كثير !

ـــ هذا صغير .. وذاك صغير ..

ولوح بيده في قرف وتوجه الى قائلا :

ـــ ان نيقولاي يحتاج الى الشمس ، فاخرج به على الرمال . . .

اخذت كيسا من رمل جاف نظيف ، وكومته في بقعة مشمسة تحت النافذة ، ومن ثم دفنت أخي فيه حتى العنق مثلما امرني جدي ، فبـدا على الرضيع انه احب ذلك . . . فكان يطرف بعينيـه راضيا ، ويحملق بعينـين مندهشتين .

أصبحت مغرما جدا بأخي . . . اظن انه يفهم كل افكـاري ، فاسلمني الى جانبه ساعات طويلة تحت النافذة التي يتناهـى الي منها صـوت ابي المـدوي :

ـــ ان الموت لا يكلف تفكيرا طويلا . اذ كنـت فقط تملكين ما يكفي من الذكاء كي تعرفي كيف تعيشـين الان . . .

وكان نيقولاي يحرر ذراعيه الصغيرتين ويرفعهما نحـوي ، وهو يشير برأسه الشـاحب . واذا اقترب منـا قط او صوص ، راح نيقـولاي يراقبه بانتباه مركز ثم يستدير الي وعلى شفتيه ابسامة ناحلة . كانت هذه الابسامة تقلقني . . . ايمكن ان اخي قد ادرك مبلغ ضجري مـن الجلوس ههنـا الى جانبه ؟ وهل يفهم ان ما أرغب فيه هو التخلص منه واللحاق باصدقائي فـي الشـارع ؟

كانت الباحة صغيرة ملأى بمختلف الانقاض ، والخروق ، وعدد مـن المظلات المهترئة ، وأشياء اخرى سـواها تمتد من البوابة حتى غرفة الحمام في اقصى الباحة . . . وكانت السطوح مزدحمة بألواح من الخشب والعمد وحطام القوارب والنجارة المبلولة ، وجميعها صيد من النهر ايـام الفيضان بعد ذوبان الثلوج في الربيع . وكانـت الباحة بأسرهـا مزروعة بقطـع من الخشب تفوح منها رائحة العفن عندما تضربها الشمس .

وكان البيت المجاور لنا مذبحا صغيرا يأتينـا منه في كل صباح تقريبـا خوار البقر ، وثغاء الخراف ، ورائحة الدم التي كان يخيل الي لشدتها انهـا تعلق في الهواء مثل شبكة دقيقة .

وعندما كانت صيحـات الحيوانات تخرس بضربـة من قضيب حديدي تنهال بين قرونها ، كان نيقولاي يقطب جبنه ويمد شفتيه فكأنه يحاول ان يقلد اصوات الحيوانات ، فلا ينجح الا في اخراج صوت ضئيل غير مفهوم . وعند الظهيرة ، كان جدي يمد راسه من خلال النافذة وينادي : « الغداء ! » .

وكان هو نفسه يأخذ الرضيع على ركبتيه ويطعمه ، يمضغ الخبز والبطاطا له قبل ان يدفعها بين شفتيه الرقيقتين ، وهو يلوث له فمه وذقنه الصغيرة ويقول :

ــ أتساءل ان كان هذا يكفي .

فتقول امي من الزاوية المظلمة حيث ترقد :

ــ افلست ترى انه يمد يديه الى الخبز ؟

ــ ان الطفل لا يعرف ان كان قد نال حاجته أم لا .

ولكنه كان يدفع لقمة اخرى في فم الصغير بالرغم من ذلك . ويقول جدي اخيرا :

ــ حسنا ! خذه الى امه الان .

وعندما كنت آخذ نيقولاي بين ذراعي ، كان يئن ويمد ذراعيه نحو

المائدة . وكانت امي ، وقد نحلت بشكل مخيف ، تنهض نفسها لتلقاني وهي تمد ذراعيها الطويلين العاريين من اللحم .

ونادرا ما كانت تتكلم . أما الكلمات القليلة التي تتفوه بها فتتدحرج بسرعة من صدر مسلول ...

كانت ترقد طول النهار في سكون وتموت ببطء في تلك الزاوية .

كنت احس انها تشرف على الموت ، وجدي يوضح ذلك بكثرة حديثه عن الموت ، واصراره على ذكره دون انقطاع .

كان سرير جدي يقوم في الزاوية تحت الايقونسات تقريبا ، وكان ينام ورأسه الى النافذة ، وقبل ان يستسلم للنوم يروح يغمغم بينه وبين نفسه :

ــ حسنا ! لقد حان اوان الموت ، ولسوف نقدم الى خالقنا مشهدا رائعا . ماذا عسانا ان نقول ؟ لكأنني أشتغل طوال حياتي ــ أعمل دوما شيئا ما . وهذا ما نتج عن ذلك !

كنت انام على الارض بين الموقد والنافذة ، وكانت المساحة قصيرة جدا

بالنسبة الي ، فاضطر الى دفع قدمي تحت الموقد حيث لا تنقطع الصراصير عن دغدغة جلدي . كان جدي ، وهو يطهو الطعام ، يكسر أبدا زجاج النافذة بالطرف الاخر من ملقط النار الذي يدفع به اوعية الطعام من الفرن واليه . كان من الغريب والمضحك ان رجلا ذكيا مثله لم يفكر في قطع الطرف الاخر من الملقط للتخلص من اذاه .

وفي ذات يوم ، بينما كان شيء ما يغلي على الفرن ، دفع بالملقط بشدة حتى كسر الوعاء وحطم مصراع النافذة ولوحين من الزجاج . وكان ذلك مصيبة عظيمة خصوصا بعد ان جلس العجوز على الارض وشرع يبكي .

وعندما ترك البيت اخيرا ، تناولت سكين الخبز وقطعت نهاية الملقط . . .

صاح جدي ، عندما رجع وراى ما فعلت :

ـ ايها اللعين ، كان يجب أن تنشره ، هل تسمع ؟ تنشره بالمنشار ! كان يمكن ان نصنع من قطعه بعض الدبابيس ونبيعها . الا تبا لهذه العائلة المبذرة !

وقالت امي عندما خرج مسرعا الى الرواق :

ـ الافضل الا تمد يدك الى اي شيء مهما كان .

ماتت امي ظهر يوم احد من شهر اب . كان زوجها قد عاد حديثا من رحلته ووجد عملا ، وقد انتقلت جدتي ونيقولاي واياه الى جناح نظيف صغير يقع بعد المحطة حيث كانوا سينقلون امي بعد أيام قليلة . . .

و في صبيحة اليوم الذي ماتت فيه ، قالت لي بصوت ضعيف :

ـ اذهب وقل ليفجيني فاسيليفيتش اني أريد ان اراه .

وجلست ، وهي تعتمد على الحائط لتسند نفسها . . .

واستطردت ، وهي تعود فتسقط على الوسائد :

ـ اركض سريعا !

خيل الي انها كانت تبتسم وان نورا جديدا كان يلمع في عينيها . كان

زوج أمي في الكنيسة فأرسلتني جدتي الى اليهودية كي أشتري بعض السعوط . ولم يكن لدى هذه الاخيرة شيء منه ، فكان علي ان أنتظر تهيئته.

عندما عدت اخيرا الى بيت والدي ، وجدت امي جالسة الى المائدة ترتدي ثوبا نظيفا . وقد سرحت شعرها بعناية ، فخوره متكبره مثلما كانت عليه فيما مضى .

سألتها خجولا ، دون ان ادري سبب ذلك :

ـ هل انت احسن من ذي قبل ؟

فقالت ، وهي ترمقني :

ـ تعال هنا . أين كنت حتى هذه الساعة ؟

وقبل ان اجد الوقت الكافي للاجابة ، امسكت بي من شعري وحاولت ان تضربني فلم تتمكن من ذلك . ثم دفعتني ، وذهبت وجلست على حافة الموقد ورحت أراقبها بعينين مذعورتين .

قامت عن مقعدها . ومشت ببطء نحو الزاوية حيث رقدت على السرير وشرعت تجفف العرق المنصبب على وجهها . كانت يدها تتحرك في اضطراب ، كما سقطت مرتين على الوسادة والمنديل يرتجف بين أصابعها .

ـ قليلا من الماء ...

قدمت لها قدح ماء من السطل . فابتلعت جرعة وهي ترفع رأسها بصعوبة كلية . ودفعتني عنها بيد باردة وصعدت زفرة عميقة . نظرت الى الايقونات في الزاويه . ثم تطلعت الي ، وحركت شفتيها وكأنها تبتسم ، ثم اسبلت جفنيها الطويلين على عينيها . كان مرفقاها مشدودين الى جانبيها . بينما ارتفعت يداها الى صدرها . ومر ظل على وجهها ، بينما فتحت فمها في دهشة .

وقفت هناك وقتا بدا لي انه أجيال كثيرة لا حصر لها . والقدح في يدي . انه وجه امي وهو يتصلب ويكتسي باللون الرمادي .

دخل جدي . قلت :

ـ لقد ماتت أمـي .

فأجاب ، وهو يلقي نظرة سريعة على السرير :

ـ لماذا تكذب ؟

ثم اتجه الى الفرن وراح يحرك الفطير وهو يثير ضجيجا مملا :

راقبته ، وانا اعلم ان امي قد ماتت ، وانتظر ان يتحقق من ذلك .

ودخل زوج أمي ، وهو يرتدي معطفا صوفيـا ابيض ويغطـي راسه بقبعة . تناول بكل هدوء مقعدا وحمله الى جانب سرير امى . بغتة ، أسقط المقعد من يده ، وصاح :

ـ لقد ماتـت !

فترنح جدي في اتجاه السرير ، والملقط في يده ، وعيناه تكادان ان تقفزا من محجريهمـا .

عندما بدأوا يجرفون الرمل على نعش امي ، راحـت جدتى تتنقـل على غير هدى بين القبور الاخرى . . فتعثرت بأحد الصلبان ، وسقطت على وجهها الذي تأذى من ذلك . اخذها والد ياز الى بيته ، وبينما هـي تغسل جرحها كان هو يهمس في اذني بهدوء بكلمات معزية :

ـ فليحفظنا الله من الليالى المؤرقة ! ما بالك ؟ يجب الا تشغل بالك بمثل هذا الامر . ألست على حق ، ايتها الجدة ؟ ان الفقير والغنى يذهبان جميعا الى الحفرة .

عندما انتهت جدتى من الاغتسال ، لفتمنديلا حـول وجهها المنتفـخ ودعتني كي أرافقها الى الدار . لكننـي رفضت . . . فقد كنت أعلم انهـم سيشربون ويتقاتلون في خلال الوليمة التى تتلو المأتم . كنا في الكنيسة بعد عندما سمعت الخال ميخائيل يقول للخال ياكوف :

ـ حسنا ! سوف نتناول قدحا لا بأس به هذا النهار ، ما ؟

فجرب الحمامة ان يخفف عنى بتعليق المهماز ومحاولة الوصول اليـه

بلسانه ، فطفق والد ياز يضحك ضحكا واضح المبالغة ، وهو يصيح :

ـــ انظروا فقط ما هو فاعل ، انظروا فقط !

لكنه عندما راى فشل ذلك في تسليتي ، انقلب جادا وقال :

ـــ كفى ، كفى ! تمالك نفسك ! لا بد لكـــل انسان ان يمـــوت ! حتى العصافير تموت ! ان كنت تريد ذلك فسوف أضع بعض العشب حول قبر امك . هل تحب ذلك ؟ سوف نذهب الى الحقول الان ونجمع ذلك العشب . سوف نقتطع العشب ونضعه حول القبر . ولن يكون هناك قبر اخر ينازعه جمـــالا .

اعجبتني هذه الفكرة ، فذهبنا جميعا الى الحقول ...

بعد أيام من وفاة والدتي قال لي جدي :

ـــ حسنا ، يا الكسي ! انيبالضبط لا استطيع ان ابقيك مدالية معلقة في عنقي . ليس لك من مكان بعد اليوم ههنا ، فقـــد آن لك ان تخرج الى ما بين النـــاس ...

وهكذا خرجت الى العالم ...





منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان